علي الشوك

ملامح من التلاقح الحضاري
بين الشرق والغرب

اسم الكتاب : ملامح من التلاقح الحضاري بين الشرق والغرب
المؤلف : علي الشوك
الغلاف : من لوحة للفنان شاكر حسن .
الناشر : مكتبة رمضان
الطبعة الأولى ١٩٩٦

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون ٧٧٧٢٠١٩٠ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد ٣١٨١ - ١١ فاكس ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

علي الشوك

ملامح من التلاقح الحضاري بين الشرق والغرب

منشورات
مكتبة رمضان

مقدمة

منذ القديم كان مفهوم الشرق والغرب او الشمال والجنوب ، الجغرافي ، يتخذ بعدا سياسيا او حضاريا في اطار ما . فكلمة (آمُورُّو) عند السومريين في وادي الرافدين تعني الغرب ، لكنها كانت تطلق ايضا على القبائل الساميّة القاطنة في بادية الشام ، الى الغرب من الفرات ، وكانت تستعمل كرديف للبرابرة او المتخلفين حضاريا . وكان السومريون والاكديون ينعتون سكان الشمال الجبليين ، برابرة ايضا او متوحشين . وكانت كل جماعة متحضرة او متقدمة تعتبر سواها من الشعوب او الاقوام برابرة . وكلمة (بربر) او (بلبل) تقال لمن يبربر او يرطن بلغة اخرى . وهذا إنما يعني ان لكل هوية حضارية مركزيتها ، بصرف النظر عن موقعها الجغرافي . ولعل مفهوم الشرق والغرب بفوارقه الحضارية نشأ في اوروبا في عصرنا الحديث على نحو ما جاء في قول الشاعر البريطاني رديارد كپلنغ : «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا» . اما في العصور القديمة فلم يكن له مثل هذا المغزى بهذا المفهوم المطلق ، لان التلاقح الحضاري بين الشعوب لم يكن يخضع لبعد جغرافي . وحتى في عصرنا الراهن نرى ان تقدم اليابان ـ مثلا ـ ينقض مفهوم المركزية الاوروبية للغرب والشرق . وكتابنا هذا يسهم في الرد على هذه الدعوى ، فهو يلقي الضوء على

التفاعل والتلاقح الحضاريين بين الشعوب الشرقية والغربية في عصور الحضارات القديمة . واذا كان علم الآثار يضطلع بالدور الرئيسي في الكشف عن هذه العملية ، فان للغة ايضا دورا لا يقل اهمية عنه في هذا الاطار . وسينعكس هذا في العديد من الامثلة في كتابنا . لسوف نرى ان الغرب ـ من خلال اليونان ـ استعار الكلمة التي تدل على (الكتاب) من الشرق ، وبالذات من الفينيقيين . كما سنرى ان الكلمة الاوروبية التي تطلق على المدرسة ، ونعني بها لفظة School ترجع الى جدور ساميّة . وحتى كلمة Philosophy اليونانية تمتّ الى جذور بابلية او مصرية . وان قراءة في قاموس اللغة اليونانية تؤكد لنا ان هذه اللغة ـ الهندية الاوروبية ـ تحتوى على نسبة كبيرة من المفردات الغريبة ، لاسيما السامية ـ الحامية ، بما يزيد على ربع مفرادتها ، بما في ذلك الفاظ تحمل هوية يونانية ، مثل «اثينا» ، و «طروادة» ، و «كريت» ، الخ .

وهناك الكثير مما يمكن ان يقال عن ملحمتي هوميروس والابطال الاسطوريين اليونانيين : من هو هوميروس ، ومن هم ابطال ملحمتيه ، وما هي خلفيتهم ؟ هذه ، واسئلة كثيرة اخرى يحاول هذا الكتاب تقديم اجابات عنها .

نحن وهوميروس

ثمة قرائن تشير الى وجود نقاط تقاطع بين ملحمتي هوميروس وآدابنا القديمة . من بين هذه القرائن المثل العربي القديم : « اخرق من ناكثة غزلها » ، او « من ناقضة غزلها » . جاء في مجمع الامثال للميداني : هي امرأة كانت من قريش يقال لها ام ريطة بنت كعب بن سعد بن تيم بن مرة . وهي التي قيل فيها « خرقاء وجدت صوفا » ؛ والتي قال الله عز وجل فيها : « ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا » (سورة النحل ، آية ٩٢) . قال المفسرون كانت هذه المرأة تغزل وتأمر جواريها ان يغزلن ، ثم تنقض وتأمرهن ان ينقضن ما فتلن وامررْنَ . فضرب بها المثل في الخرق . (مجمع الامثال للميداني ، ص٢٦٦ . طبعة مصر ، سنة ١٣٥٢هـ) .

وهذا المثل يذكرنا ببنيلوبي Penelope ، زوجة اوديسيوس ، التي كانت تنسج على نولها غزلا وعدت الساعين الى خطب ودها بالاستجابة لطلبهم عند اكتمال نسجه ؛ لكنها كانت تنقض في الليل ما تنسجه في النهار .

القرينة الثانية « صحيفة المتلمس » . وهذا المثل جاهلي ايضا . يضرب لمن يسعى بنفسه لهلاكها . والمتلمس هو خال طرفة بن العبد . وفدَ هو وابن اخته على عمرو بن هند ملك الحيرة ، فاحسن وفادتهما ، ونزلا منه في خاصته .

وكانا يركبان معه للصيد ، فيركضان طول النهار فيتعبان . وعندما يشرب كانا يقفان على بابه النهار كله ولا يصلان اليه . فسئم طرفة وهجاه . واذ بلغ ذلك عمرو بن هند همّ بقتل طرفة ، لكنه خاف من هجاء المتلمس له ، وكان هو الاخر شاعرا ؛ فقال لهما : « اذهبا الى عاملي على البحرين ، فقد امرته ان يصلكما بجوائز » . فذهبا ، ومرّا في طريقهما بشيخ يتبرز ويأكل تمرا ويقصع قملا . فقال المتلمس : « ما رأيت شيخا احمق من هذا » . فقال الشيخ : « ما رأيت من حمقي ؟ اخرج خبيثا ، وادخل طيبا ، واقتل عدوا . وان احمق مني من يحمل حتفه بيده ، وهو لا يدري » . فاستراب المتلمس بقوله . وطلع عليهما غلام من اهل الحيرة ، فقال له المتلمس : « اتقرأ يا غلام ؟ » قال « نعم » . ففض الصحيفة ، فاذا فيها : « اذا اتاك المتلمس ، فاقطع يديه ورجليه ، وادفنه حياً » (١) .

اما الحادثة الهوميرية المشابهة لها فهي قصة بيليروفون ، حفيد سيزيف . وكان بيليروفون هذا وسيما جدا (*) ومن رعايا الملك پرويتوس Proitos . وقد علقت به الملكة انتيا Anteia ، زوجة پرويتوس ، وطلبت منه ان يشبع رغبتها في السر . بيد ان بيليروفون تمنّع ، لانه كان ذا وازع . فاخبرت الملكة زوجها الملك بأن بيليروفون هَمَّ بها ، واستحثته على قتله ، والا فسيقتل هو . لكن پرويتوس لم يجرؤ على قتل بيليروفون ، بل ارسله الى ليسيا ؛ وهنا فقط يرد ذكر الكتابة عند هوميروس لاول وآخر مرة ، كما يقول ليونارد كوتريل Le-onard Cottrell : « ارسله الى ليسيا وقد حمّله وصية تضمر له شرا . اعطاه صحيفة مطوية نقش عليها عددا من الرموز توصي بقتله ، واخبره بأن يسلم الصحيفة الى حميه (والد زوجته الملكة) ، ملك ليسيا ، وبذلك يضمن مقتله » .

---

١ ـ عن قاموس المنجد ، باب فرائد الادب ، تحت « صحيفة المتلمس » . وكذلك مجمع الامثال للميداني .

* « وكان طرفة غلاما معجبا تائها ، فجعل يخلج في مشيه بيزيديته (بردته) ، فنظر اليه (عمرو بن هند) نظرة كادت تقتلعه من مجلسه » . مجمع الامثال للميداني

ثم ان ملك ليسيا يكلف بيليروفون بعدد من المهام الخطرة ، بأمل ان تؤدي الى هلاكه . غير ان الشاب يخرج منتصرا في كل مرة . وفي النهاية يقتنع الملك بان بيليروفون سليل الالهة ، فيكف عنه .

ان الاختلاف في تفاصيل القصتين لا ينفي احتمال ان تكون احداهما متأثرة بالاخرى . وفي هذه الحالة لابد ان تكون قصة المتلمس مقتبسة من قصة هوميروس ، لانها احدث عهدا بكثير .

وهناك الفعل العربي « حلّ » ، الذي يذكرنا باسم « آخيل » بطل الالياذة . فمن معاني « حل » حللا : كان في كعبه او رجله رخاوة ؛ فهو احلّ . فالاحلّ : الذي في رجله استرخاء . وهذا يلتقي مع نقطة الضعف في كعب آخيل . فهل استعار العرب هذا المعنى من اسم آخيل ؟ وهل يأتي هذا دليلا آخر على معرفة العرب الجاهليين بملحمتي هوميروس ؟ ام ان التشابه في اللفظ والمعنى جاء مصادفة ؟ او لربما كان اسم آخيل مشتقا من هذه المادة ؟ . . . . هذا ، على اية حال ، ما سنحاول مناقشته عند حديثنا عن آخيل .

من جهة اخرى سوف نرى ان ملحمتي هوميروس لم تنبعا من العدم ، شأن اي اثر ادبي عظيم ، بل كانت حصيلة تراث طويل وغني ، كما يقول سايروس غوردن . ويمكن الاشارة في المقام الاول الى ملحمة جلجامش التي سبقت الالياذة بأكثر من الف عام ، وترجمت الى عدد من اللغات ، من بينها اللغة الحثية في الاناضول التي كان اليونانيون على صلة بها ؛ كما يمكن الاشارة الى ملحمة « كارت » الكنعانية ؛ وقصص الاسفار المصرية ، مثل قصة سنوحي ، وقصة وين - آمون ، وقصة جيحوتي ، وغيرها .

ان وجود ترجمة لاجزاء من ملحمة جلجامش باللغة الحثية يدعو الى الاعتقاد بأن القصة وصلت الى الساحل الآيوني لليونان قبل حرب طروادة ، اي انها كانت معروفة في ايام هوميروس . وقد ربط المستشرقون بين الاوديسة ، كعمل ادبي يتمحور حول اسفار البطل ، وبين ملحمة جلجامش التي تدور حوادثها حول مغامرات البطل واسفاره ايضا ، رغم وجود العديد من الفوارق

الكبيرة بينهما . ولقد كانت رحلات جلجامش كلها على اليابسة ، باستثناء حالة واحدة فقط ، بينما تدور حوادث الاوديسة في البحار .

والحق ان وادي الرافدين كان المنبع الاول لقصص البطولة الملحمية ، وذلك منذ ايام جلجامش ، او اذا توخينا الدقة ، منذ سيرة سرجون الاكدي (٢٣٤٠ - ٢٢٨٤ق .م) اول فاتح في التاريخ حقق انتصارات عسكرية على صعيد امبراطوري ، من البحر الاسفل (الخليج) الى البحر الاعلى (الابيض المتوسط) . ولا بد ان هذا البطل التاريخي كان الملهم الحقيقي لملحمة جلجامش ، لان حاكماً قبله لم يحقق انتصارات عسكرية بالمستوى التي حققها هو ، ولم يصل الى جبال لبنان وشواطىء البحر المتوسط ، وربما ابعد ، وهي الاماكن التي ورد ذكرها في ملحمة جلجامش بهالة من الخيال والفنتازيا تتناسب مع المآثر البطولية التي اجترحها سرجون الاكدي . وتستحق بطولته وسيرة حياته شبه الاسطورية ان نخصص لها بضعة اسطر اخرى دون ان نخشى من ان يخل استطرادنا هذا بسياق البحث . فبعد ان اخضع سرجون المدن السومرية تحت حكمه ، و « غسل أسلحته في البحر الاسفل » ، انشأ عاصمة جديدة في اكد Agade . ثم اتجهت انظاره الى خارج بلاد الرافدين . فبدأ حملته الاولى على عيلام التي سرعان ما خضعت له . واتجه بحملته الثانية نحو الفرات الاعلى ، حتى شمالي سوريا والخابور . و« سلم له الاله داجون Dagon المنطقة العليا » على حد تعبيره ، وهذا يعني انه وصل غابات الارز في جبال امانوس ومناجم الفضة في طوروس . وجاء دور نينوى وما وراءها بعد ذلك . وهناك نص مشهور عرف بملحمة « ملك المعركة » عثر عليه في تل العمارنة بمصر ، مدينة الفرعون المصري الشهير اخناتون (القرن الرابع عشر ق .م) يروي قصة توغل الملك (المقصود به سرجون او ربما حفيده نرام - سن) في اعماق الاناضول ، ليحمي « تجاره » من الابتزاز الذي كانوا يتعرضون له من قبل الحاكم المحلي المدعو بوروشاندا ، او بروشكاندا . وهناك رواية اخرى يمكن تصديقها بشيء من التحفظ عن حملته البحرية التي توغل فيها الى ابعد نقطة في الخليج العربي . وثمة شيء من

المصداقية في ادعائه بأنه عبر «بحر الغروب» ووصل الى قبرص وكريت (٢) . وبفضل هذه الفتوحات كان هذا الامبراطور النموذج الاول لكل الفاتحين البارزين من بعده ، من الاسكندر حتى نابليون ، كما يقول غوردن تشايلد . لقد اصبح سرجون ، مثل الاسكندر ، بطلا رومانسيا . فبعد مرور الف عام تقريبا كانت مآثره قد ترجمت الى ملاحم عثر على مقاطع منها في اقصى الصعيد بمصر . وفي المكتبة الحثية في بوغوزكوي في اواسط آسيا الصغرى (٣) . فسرجون هو الذي مهد لادب البطولة والمغامرات مثل ملحمتي جلجامش والاوديسة .

ومن جهة اخرى يمكن مقارنة الاوديسة الهوميرية بأوديسة وين - آمون المصرية البحرية ، التي ترقى الى القرن الحادي عشر ق .م . ، اي قبل تأليف ملحمتي هوميروس ببضعة قرون (عاش هوميروس في القرن التاسع او الثامن ق . م .) ، في الملحمة المصرية يُرسل وين - آمون في مهمة الى ميناء جبيل على الساحل اللبناني . ومثل اوديسيوس يبحر على سفينة الى شرقي البحر المتوسط . وفي رحلته يواجه صعابا ينجو منها ، في بلدة «دور» الكنعانية ، جنوب حيفا . وبعد انجاز مهمته يتوجه عائدا الى وطنه . بيد انه يضطر الى الانحراف عن طريقه ، الى قبرص ، بعد ان يجدّ الاعداء في اثره . وهناك يلقى الحماية من لدن ملكة الجزيرة . وتتوقف القصة عند هذا الحد . ولانها كتبت بصيغة المفرد المتلكم ، فلابد ان يكون الراوي قد عاد سالما الى وطنه .

وهناك قصة مصرية اخرى عنوانها «البحّار الذي غرقت سفينته ، تتحدث عن بحار مصري غرقت سفينته عند شاطىء جزيرة سحرية في البحر الاحمر ، لكنه يتمكن من العودة الى وطنه بعد عدد من المغامرات ، محملا بالهدايا من

---

2 - Seton Lioyd, The Archaeology of Mesopotamia, p. 138 Thames and Hudson (1978 - 1985). Printed in G.D.R.

3 - Gordon Childe, What Happened in History, p. 150, Penguin Books (1942 - 19860).

افعى تقيم في تلك الجزيرة . وهو ما يذكرنا بعودة اوديسيوس محملا بهدايا من الفيسانيين قوم نوسيكا . ومثل هذا يقال ايضا في قصة « سنوحي » المصرية التي تضرب على وتر الترحال والعودة الى الوطن(٤) .

وبوسعنا ان نكون فكرة واضحة عن هذه المغامرات البحرية المصرية ، اذا علمنا ان صناعة السفن في مصر ، في الالف الثاني ق .م . ، كانت متفوقة كثيرا على ما سواها في المنطقة . ففي عهد المملكة الوسطى (٢٠٥٠ ـ ١٥٩٠ ق .م .) كان طول السفينة المصرية يبلغ زهاء ٢٠٤ اقدام ، وعارضتها ٦٣ قدما . وتستوعب ١٢٠ راكبا . اما السفن الكريتية المعاصرة لها فلعل طولها لم يتجاوز السبعين قدما ، ثم بلغ المئة قدم في ايام الميسينيين (اليونانيين) . وفي موسم ملائم ، كانت الرحلة من موانئ الدلتا المصرية الى جبيل على الساحل اللبناني لا تتجاوز الاربعة ايام ، اما العودة فكانت تستغرق بين ثمانية وعشرة ايام ، لان السفينة كانت تُسيّر بواسطة المجاذيف (٥) .

وهناك قصة مصرية اخرى تذكرنا بحصان طروادة ، والاستيلاء على مدينة بعد تدبير حيلة لدخولها . وهي قصة « جيحوتي » التي كتبت في عهد المملكة الحديثة ، وتدور حوادثها حول احد قوّاد تحوتموسيس الثالث ، اسمه « جيحوتي » (في النصف الاول من القرن الخامس عشر ق .م .) . جاء فيها : ان جيحوتي يضرب امير يافا بهراوة (كان الامير قد قدم ليرى هراوة شاع خبرها من هراوات الفرعون) . وقد دخل جيحوتي المدينة بخدعة حربية ، حيث اخفى عددا كبيرا من الجنود المقيدين في سلاسل حملها جنود آخرون على عواميد . ثم طلب من سائق معجلة الامير ان يذهب الى المدينة ويخبر زوجة الامير بأن جيحوتي اسر مع زوجته واطفاله . «انظري ، هذه هي جزيتهم» . وكانت الجزية جنوده الذين تظاهروا بأنهم اسرى . وهكذا فتحت الابواب ؛

---

4 - Cyrus H. Gordon, Homer and the Bible, p. 54.

٥ ـ غوردون تشايلد ، ص ١٨٢ (ذكر في الهامش رقم ٣) .

حتى اذا حُمل الحمالون الى داخل القصر ، فكوا قيود رفاقهم واستولوا على المدينة . وهذه القصة يمكن مقارنتها بقصة الحصان الخشبي في طروادة التي تؤكد على فكرة اللجوء الى الحيلة البارعة لدخول مدينة حصينة(٦) .

ويعقب جاك لندسي في الهامش قائلا : « يرفض Goedike ، عن حق ، الفكرة القائلة بأن كبشا (آلة حربية كان القدماء يستعملونها لدك اسوار المدن المحاصرة) استُعمل في (طروادة) اسمه « حصان » (وبالمناسبة ، يبدو ان هذه الكباش اختراع آشوري : عن يادين Yadin : فن الحرب ، ص ٣١٤ وما بعدها) ، لكنه يميل الى الاعتقاد بان هناك إشكالا حصل حول كلمة سامية ، لعلها hepp (٧) (اخفى) التي لها معنى مماثل في المصرية ، ويبدو ان الكلمة المصرية Hb اخذها اليونانيون على انها hippos (حصان) ، التي اضيف اليها potamos « نهر » ؛ ومن ثم فان Hb تعني hippopotamos فرس الماء » .

ومما يجدر ذكره ان المصريين ذكروا اسم « دانونا » Danuna من بين اقوام البحر الذين شنوا غارات متواصلة على الساحل الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط في القرنين الثالث عشر والثاني عشر ق .م . وان دانونا ، اولاء ، هم الدانيون ، الاسم الذي يطلقه هوميروس على اليونانيين . وفي واقع الحال ان الدانيين هم الاقوام السابقون للهلينيين اليونانيين ؛ وقد قدموا الى اليونان من السواحل السورية والاناضولية في الالف الثالث ق .م . وينتسب هؤلاء الى الدانيات Danaids ، بنات دانوس Danaus ، الملك الذي هاجر من مصر الى اليونان ، على عهدة الاسطورة . ودانوس هو الشقيق التوأم لايجبتوس Ae-gyptus(مصر) ، وابن بيلوس (بعل) ، وحفيد ليبيا . واسمه مشتق من مادة « دان » السامية ، وتعني « قضى » ؛ ومن هذه المادة جاءت كلمة الدين العربية .

---

٦ ـ نقلت موجز هذه القصة بالحرف الواحد عن :

Jack Lindsy, Helen of Troy, P. 75. Constable, London 1974.

٧ ـ (خ ف ف) ؟ التعليق من عندي .

وفي اليونان البيلاسغية ـ السابقة لمجيء اليونانيين الهنود الاوروبيين ـ تزوجت بنات دانوس ؛ ومن نسلهن جاء اليونانيون ، كما تقول الاسطورة . ويرمز هذا الخبر ، استنادا الى G.S.Kirk ، الى صراع قام بين الميسينيين ـ اليونانيين الهنود الاوروبيين الاوائل ـ والمصريين(٨) . اما روبرت غريفز فيفسره على ان الموجات الاولى الى اليونان من المستوطنين الهيلاديين جاءت من فلسطين ، عن طريق رودس ، وانهم هم الذين ادخلوا الزراعة الى اليونان ، ويفترض ايضا ان هذه الموجات من المستوطنين الهيلاديين كانت تضم امشاجا من الليبيين والاثيوبيين(٩) . اي ان الدانيين الاصليين ربما قدموا الى منطقة بحر ايجة من بحيرة تريتونيس في ليبيا (حاليا مستنقع مالح) ، عبر الطريق الذي تقدم ذكره ، مع انهم من غير المرجح ان يكونوا قد حملوا هذا الاسم ـ اي دانيين ـ قبل وصولهم الى سورية . ويقدم A.B.Cookفي كتابه Zeus حججا قوية تؤكد على ان الليبيين ـ اليونانيين ، والفريجيين ـ التراقيين كانت تربطهم صلة قربى ، وان كلتا المجموعتين القبليتين لهما اقارب بين الكريتيين الاوائل(١٠) .

وكان سكان كريت الاوائل مهاجرين من سوريا وغربي الاناضول ، تدفقوا اليها في الفترة بين ٤٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ق .م . وقد كانوا في طور العصر الحجري الحديث : استعملوا ادوات واسلحة حجرية متطورة جدا . كما كانوا اقواما بحريين . ومع انهم كانو آسيويين الا ان السير آرثر ايفنس Arther Evans (مكتشف الحضارة المينوية في كريت) يعتقد «ان العنصر الحاسم في تطور هذه الحضارة (. . .) يرجع الى تواصلهم مع وادي النيل عبر البحر الليبي ، فلقد كانت هناك صلات مع النيل الاسفل وليبيا منذ ازمان سحيقة .

---

8 - G.S.Kirk, The nature of Greek Myths, P. 147. Penguin Books, 1985.

9 - Robert Graves, The Greek Myths, V. 1, P. 203, Penguin Books, 1984.

10 - Robert Graves, The White Goddess. P. 64, Faber and Faber, London, 1955.

وفي محاضرة القاها البروفسور Percy Newberry على الجمعية البريطانية في العام ١٩٢٣ اشار الى انه في المراحل المبكرة جدا من تاريخ مصر السفلى ، كانت مواد العبادة لسكان شمال غرب الدلتا المصرية (وهي الاقرب الى كريت) «تشمل على : ١ ـ الحربون Harpoon (وهورمح لصيد السمك ، ويسمى بالعراقية الدارجة فالة) ، ٢ ـ درع على شاكلة الرقم 8 مع اسهم متصالبة ، ٣ ـ الجبل ، وربما ٤ ـ الفأس ذات النصل المزدوج ، ٥ ـ حمامة او سنونو . وباستثناء الحربون ، كانت هذه الاشياء جميعا موجودة في كريت» . وحتى الحربون ، ربما تم تطويره فيما بعد الى السهم المينوي ـ الكريتي ـ الثلاثي ، الذي يظهر على جدران كنوسوس وفيستوس في (كريت) (١١) .

وليس من المستبعد ان تكون زمر صغيرة من لاجئي مصر السفلى قد وجدت نفسها مضطرة الى الهجرة الى كريت ، بعد ان غزا مينيس Menes مصر السفلى في ٣٢٠٠ق .م . ومن الجدير بالذكر ان سكان الدلتا الغربية كانوا قريبي الصلة بليبيا(١٢) .

وهذه الوشيجة الليبية تقدم تفسيرا لجذور بعض المظاهر الحضارية عند الكريتيين . فمن بين مواصفات اللباس الرجالي الليبي في تلك الايام السحيقة ـ كما يظهر في التماثيل الصغيرة ـ كان «الثوب الليبي الضيق» الذي يقي الاعضاء التناسلية . وكان الكريتيون يرتدون مثل هذا الثوب تماما . وكان الرجال الليبيون يسرّحون شعرهم بخصلة جانبية تنسدل من امام الاذن ، وفوق الصدر ، او عند الابط . وهكذا كان رجال كريت يفعلون . (ويظهر هذا بوضوح في صورة حامل الكأس ، وصورة الملك الكاهن في رسوم قصر كنوسوس الاثارية في كريت)(١٣) .

---

11 - Leonard Cottrell, The Bull of Minos, P. 183, Pan Books. 1955.

12 - Ibid, P. 123.

13 - Ibid, P. 184.

ومن جهة اخرى لاحظ المؤرخون وعلماء الآثار أن هناك بصمات من آسيا الغربية (وعلى وجه التخصيص بلاد الرافدين) في نمط الحياة في المستوطنات الفلاحية المبكرة في اليونان ، مثل : زراعة الحبوب ، وتدجين الحيوانات ، والابنية الطينية ذات النمط التلي ، والاختام ، والفخار الملون ، والتماثيل النسائية الصغيرة ، واستعمال المقلاع Sling . ومما تجدر ملاحظته ان المقلاع استعمل في غرب آسيا ومنطقة ايجة في عصور ما قبل التاريخ ، في الصيد والحروب ، بدلا من القوس والنشاب . بينما كان القوس يستعمل في مصر واوروبا الغربية لمثل هذين الغرضين . كما ان رؤوس الرماح المعقوفة ظهرت لاول مرة في اوائل عصر السلالات في سومر ، ومن هناك انتقلت الى قبرص وكيليكيا ، واواسط الاناضول وطروادة (١٤) . ومن بلاد آشور ، او شمال سوريا ، انتقلت المُعَجّلة الحربية الخفيفة التي تجرها الجياد ،الى اليونان في اوائل الحقبة الهيلادية المتأخرة (اي اواخر العصر البرونزي في اليونان) (١٥) .

ولئن صح ان عبادة الإلاهة الام اتخذت شكلها المتطور في كريت قبل ان تنتقل الى بقية المراكز الاخرى في المناطق المجاورة ، فان هذه الجزيرة لم تكن المهد الاول لهذه العبادة . فلقد ازدهرت ـ هذه العبادة ـ في الاربجية Arpachia قرب الموصل في العراق ، قبل ان توجد في ايجة بالف عام . هذا الى ان الفأس المزدوجة (ذات النصلين) ، التي كانت تعتبر فيما سبق ابتكارا كريتيا ، كانت في الحقيقة رمزا من رموز العبادة ، مع الحمامة التي ترمز للالاهة الام ، عند سكان الاربجية في شمال العراق ، وفي اماكن اخرى في الشرق الاوسط ، منذ المرحلة الحجرية ـ النحاسية (١٦) .

---

14 - Gordon Child, New Light on the Most Ancient East, P. 241, Norton Library, N.Y. 1969.

15 - Gordon Child, What Happened in History, P. 185.

16 - E.O. James, Prehistoric Religion, P. 163.

وتقدم مكتشفات الفخار دليلا على وجود صلة بين منطقة ايجة ووادي الرافدين منذ الالف الرابع ق .م . ومن المرجح انه كانت هناك مستعمرات تجارية لبلاد ما بين النهرين في آسيا الصغرى ، وحتى في جزيرة كريت ، قبل نهاية الالف الثالث ق .م . وقد توطدت هذه الصلة على نحو مؤكد فيما بعد ، كما يظهر على الاختام الاسطوانية البابلية المكتشفة في ايجة وكريت . وهناك زخرفة على اناء كريتي تمثل مشهد حصاد يظهر ابناء البلد تحت امرة موظف يبدو انه يرتدي لباسا من بلاد ما بين النهرين . ثم ان هناك دعوى قوية مؤداها حاليا ان احدى اللغات الكريتية الاولى ، التي اطلق عليها اسم Linear (A) ، لم تكن سامية فحسب ، بل كانت سامية غربية على وجه الخصوص ، وترقى نصوصها الى الفترة الواقعة بين القرن السابع عشر والقرن الخامس عشر ق .م .(١٧) .

وفي ميسينيا اليونانية - مهد الآخيين غزاة طروادة - عثر على قبور كبيرة تشبه خلايا النحل ، وقد سميت بهذا الاسم ، وباليونانية tholoi ، جمع tho-los (خلية النحل) ، وهي عبارة عن مبان دائرية من الحجر تحت الارض ، مسقفة على شكل قبب ، ويتم الوصول اليها في بعض الاحيان عبر ممر يسمى dromos باليونانية . ويعتقد ان اغاممنون وجماعته ربما دفنوا في مثل هذه الثولوي (وكان هذا الاعتقاد هو الذي حفز ، في القرن الماضي ، التاجر الالماني هاينريخ شليمان على التنقيب في ميسينيا اليونانية ، بأمل العثور على جثة اغاممنون) . وتجدر الاشارة الى ان مثل هذه القبور وجدت قبل ذلك بألفي سنة او يزيد في شمال العراق ، في الاربجية قرب الموصل ، وفي تبة كورة Tope Gawre ، وقبلها في يارم تبة Yarim Tepe ، سوى انها كانت في العراق تبنى من الطين على اساس من الحجر ، وكانت اصغر من نظائرها اليونانية .

---

١٧ - عظمة بابل The Greatness that was Babylon تأليف H.W. Sagg ، ترجمة الدكتور عامر سليمان ، ص ٣١٦ ، بغداد ، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر .

وفي اوروبا الوسطى تطورت صناعة المعادن ، مع ظهور ارستقراطية عسكرية تطلّب نظامها انتاج اصناف جديدة من السيوف وعدة المحارب ، كالخوذة والدرع ، وذلك قبل صناعتها المعروفة في منطقة البحر المتوسط . ولقد تم هذا التطور في تكنوولجيا صناعة الاسلحة والآنية البرونزية (تلك التكنولوجيا التي عرفت في الشرق القديم منذ الالف الثالث ق .م .) في اوروبا الوسطى في القرنين الثالث عشر والثاني عشر ق .م . من خلال الصلة مع المجتمعات الميسينية في اواخر عهدها ، وربما كذلك بفعل انزياح صناع فنيين من شرقي البحر المتوسط الى اوروبا ، في غمرة الغزوات التي شنها «اقوام البحر» على هذه المناطق(١٨) ، ووراء هذا التقدم في الصناعة العسكرية يكمن سر الرعب الذي اوقعه «اقوام البحر» في نفوس سكان شرقي وجنوبي البحر المتوسط ، في الفترة الواقعة بين القرنين الرابع عشر والثاني عشر ق .م . ، والتي وردت الاشارة اليها في سجلات الكتبة المصريين . ومن بين «اقوام البحر» اولاء ، كان الطرواديون بقيادة باريس ، واليوانيون الآخيون ، اي الميسينيون قوم اغاممنون ومنيلاوس الملكين اللذين شنا الحرب على طروادة ، وسكان جزيرة ساردينيا (شاردانا في النصوص القديمة) ، وصقلية (شكارلش) ، وجزر ايجة ، وكريت ، والفلست Peleset ، اي الفلستينيون الذين استوطنوا جنوب فلسطين ، والدانيون او Danunaفي الوثائق المصرية ، وغيرهم .

وفي النصف الثاني من الالف الثاني ق .م . كان للميسينين - قوم اغاممنون ومنيلاوس - اقوى نفوذ في منطقة ايجة . ولم تنعكس قوتهم هذه في اعمال العنف وما يرافقها من سلب ونهب فحسب ، بل تخلدت في الشعر ايضا ، الذي انتقل ، اول الامر ، على السنة الشعراء الاميين ، قبل ان يتخذ صيغته النهائية في ملحمتي الالياذة والاوديسة اللتين ترويان قصة اجتياح طروادة في الفترة

18 - G. Clark and S. Piggot, Perhistoric Societies, P. 312, Penguin Books, 1985.

١٢٤٠ ـ ١٢٣٠ق .م . تقريبا . لكن الميسينيين ـ اغا ممنون وحلفاءه ـ لم ينعموا طويلا بانتصارهم على طروادة . ففي الفترة الواقعة بين ١١٠٠ ـ ١٠٥٠ ق .م . انقضّت جحافل الدوريين Dorians البربرية ، وهم يونانيون ايضا ، على شبه جزيرة البيلوبونيز Peloponnese ، وقضوا على الحضارة الميسينية ، فخيمت على اليونان فترة مظلمة دامت حتى القرن الثامن ق .م . وبعد الاجتياح الدوري بقرن او قرنين هاجر الآيونيون الى آسيا الصغرى ، بضغط من الدوريين ، وبذلك بدأت نهضتهم التي كانت الالياذة والادويسة مفخرتها الكبرى .

ويدور موضوع الالياذة حول حصار طروادة ، التي تم دمارها ونهبها على يد جيش من المقاتلين اليونانيين اطلق عليهم هوميروس اسماء مثل الآخيين ، او الدانيين ، او الارغوسيين ، نسبة الى آخايا (الاسم الذي اطلقه هوميروس على البر اليوناني) ، ودانايه (الالاهة التي تمت الى اصل سامي او مصري حامي) ، واورغوس (احدى اقدم المدن اليونانية ، وقد انشئت قبل مجيء اليونانيين الهنود الاوروبيين الى اليونان) ، وهو اسم يذكرنا بمادة « يرق » ، او « ورق » السامية ، التي تفيد معنى الفضة ، او الذهب ، او الصفرة ، او الخضرة ، ومن هنا الورق بالعربية .

ويفترض ان الآخيين ينتسبون الى آخايا Achaea في شمال البيلوبونيز ، من اعمال اليونان . وقد ورد هذا الاسم في اقدم لفظ يوناني له بصيغة Achai-wos ، او Achaiwia . ويذهب كروسلاند Crossland الى ان المقصود بذلك جزيرة رودس اليونانية القريبة من الساحل التركي الجنوبي الغربي ، او المنطقة المتاخمة لها . لكن المعنى اللغوي للفظة achaea هو « الحزن » ، او الصوت المتوجع « آخ » ، او « آه » . فلماذا اطلق اليونانيون على انفسهم هذه التسمية ؟

وكان الآخيون طلائع اليونانيين الهنود الاوروبيين الذين غزوا ارض اليونان في حدود ١٩٠٠ق .م . كانوا رعاة بطرياركيين (اي يتوارثون عن طريق الاب) ، يعبدون ثالوثا من الآلهة الهندية الاوروبية الذكور ، لعلها هي

ميترا Mitra نفسها ، وفارونا Varuna ، واندرا Indra ، ثم اتخذت اسماء زيفس Zeus ، وبوسيدون Poseidon ، وهاديس Hades . وحاولوا القضاء على الحضارة البرونزية شبه الامومية التي كانت قائمة هناك قبل قدومهم ، لكنهم اضطروا الى التآلف معها ، وتقبلوا التوارث الامومي . واعتبروا انفسهم ابناء الالاهات الاناث . وكان ابناء السكان السابقين لهم خليطا واسعا من الاجناس ، بعضهم طوال الرؤوس ، والبعض الاخر عراضها ، وقد اطلقوا عليهم اسم البيلاسغيين pelasgins ، او جوابة البحار . ولعل البيلاسغيين اولاء كانوا يطلقون على انفسهم اسم الدانيين ، وهو من دانايه Danae التي ينسب اليها ادخال الزراعة الى اليونان ، كما تقدم .

ويزعم البيلاسغيون - على ذمة اليونانيين الذين كتبوا عنهم فيما بعد - انهم ولدوا من الثرى . لكنهم ربما كانوا اقوام «الفخار الملون» من ابناء العصر الحجري الحديث . ويفترض انهم جاءوا الى اليونان من فلسطين في حدود ٣٥٠٠ق .م . ، وقد وجدهم الهيلاديون الاوائل - وهم مهاجرون من آسيا الصغرى عن طريق جزر ايجة - في شبه جزيرة البيلوبونيز بعد ذلك بسبعمئة عام . بيد ان اسم البيلاسغيين Pelasgins اصبح يطلق بصورة تفتقر الى الدقة على جميع مواطني اليونان السابقين للهلينيين (اي اليونانيين الهنود الاوروبيين) . وفي هذا الاطار اشار يوريبيديس Euripides (في نص منقول عن سترابو) الى ان البيلاسغيين تبنوا اسم الدانيين Danaans عند نزولهم في ارغوس التابعة لدانوس Danus وبناته الخمسين . ويقول سترابو في النص نفسه ان اولئك الذين نزلوا قرب اثينا عرفوا «باللقالق» Pelargi ؛ ولعل هذا كان طائرهم الطوطم (١٩) .

ثم ان الآخيين انفسهم استعاروا اسم الدانيين ، واصبحوا جوّابة بحار . فيما عُرف الاقوام الذين اقاموا الى الشمال من برزخ كورنث Corinth

---

19 - Robert Graves, Greek Myths, 1:28.

بالآيونيين Ionians ، ابناء الالاهة ـ البقرة ايو Io (٢٠) ، التي استقوا منها اسمهم . وايونيا اصبحت تعرف بإياماني Iamaniعند البابليين ، واليونان عند العرب . وكان الايونيون يعتبرون اغريقا في القديم ، لكنهم ربما كانوا ايجيين هاجروا الى اليونان من فينيقا ، كما يقول روبرت غريفز .

وقد ذكر الملك الآشوري سرجون الثاني (٢١) ، في السنة الثانية عشرة من حكمه (٧١٢ق .م .) اليونانيين تحت اسم ايامانى Iamani ، والمقصود بذلك إيونيا Ionia المقاطعة التي تقع شرقي اليونان ، وكان جيران اليونايين الشرقيون يسمونهم باسم هذه المقاطعة . جاء ذلك في سجل حملاته العسكرية ، حيث اشار الى ان سكان اشدود ، المدينة الفلسطينية التي كانت خاضعة لحكمه « رفعوا فوقهم (اي ليحكمهم) حاكما ايامنيا دون ان يطالب بالعرش ، وكان مثلهم لا يعرف الخوف من اية سلطة » . ويتساءل دنباين ، الذي نقلنا هذا الخبر عنه ، قائلا : « ترى من كان الاياماني ، هذا اليوناني الذي نصب نفسه حاكما عى اشدود ، ثم هرب امام الزحف الآشوري ولجأ عند فراعنة مصر الاثيوبيين . لا ندري بالضبط ؛ لعله احد المقاتلين الاوائل الذين ساعدوا بفضل سلاحهم سلالة سائيس عل الاستقلال من آشور ، لكنه لم يكن الاول : لعل قصص الاوديسة عن اسفار اوديسيوس ومنيلاوس تقدم الرواية اليونانية عن هذه المآثر القتالية » (٢٢) .

وتتحدث الاساطير اليونانية عن كنعان (= اجينور) ، وفينقس ، وقدموس ، وايجبتوس ، وليبيا ، واوروبا (ابنة كنعان وشقيقة قدموس

---

20 - The White Goddess, P.62.

٢١ ـ سرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق .م .) ، من ملوك الدولة الاشورية الحديثة . تابع سياسة التوسع ، واحتل السامرة وقضى على مملكتها ٧٢١ق .م . واليهودية وكركميش ٧١٧ق .م . وفريجيا (الاناضول) وبابل ٧١٠ق .م . عن المنجد .

22 - T, J. Dunbabin, The Greeks and Their Eastern Neighbours, P. 31, Printed in the Netherland, 1957.

وفينقس) ، كأسماء علم واماكن اسطورية في وقت معا ، وكجزء من التراث اليوناني ، دون ان تنفي هويتها الاصلية ، الامر الذي يشير الى حدوث هجرات سامية وحامية الى ارض اليونان قبل مجيء اليونانيين ، على نحو ما تقدم ذكره . وتأتي قصة انشاء مدينة طيبة على يد قدموس الكنعاني مصداقا على ذلك . وطيبة هي احدى اقدم مدن اليونان ، وكانت صيدا معروفة جيدا لدى اليونانيين قبل ان تدمر في اواخر العصر البرونزي . ومع ان موقعها اعيد بناؤه ، الا ان صور فاقتها شهرة في اوائل العصر الحديدي . وقد عرف اليونانيون اسمي صيدا وصور مذ كان الحرفان اللذان يبدأ بهمااسماهما مختلفين ؛ ولهذا ما يزال اسم الاخيرة باليونانية Tyr . «ومن المؤكد ان اسم Byblos (جبيل) دخل اليونانية قبل العام ١٢٠٠ق .م . عندما تغيرلفظها من بوبلا Bubla الى غوبلا Gubla (. . . . .) وتشير الرُقم الاثاريةالى ان الكلمات المستعارة من السامية في زمن الميسينيين كانت تشتمل على الفاظ تدل على الذهب ، والاسد(٢٣) ، والكمون ، والنحاس ، والخيتون Chiton (ثوب اغريقي للرجال والنساء) (٢٤) الذي يذكرنا بكلمة الكتان السامية .

وفي الاوديسة يرد ذكر الالاهة تيرو Tyro ، ابنة سالمونيوس ، في كتاب الاموات المكرس لزيارة اوديسيوس الى العالم الاسفل ، وهي اول امرأة يواجهها بعد امه . وتيرو ، او تورو ، هي صور الفينيقية . والكلمة كنعانية وتعني صخرة ، وتقابلها بالاكدية «صُرّو» : صوان . وبالعربية ، الظر : وهو الحجر ، او الحجر له كحد السكين . ومن لفظة Tyr اشتق اليونانيون كلمةTyrsis وتعني «مدينة مسورة» ؛ ومنها ايضا اشتقت كلمة tyrany (طغيان) بالانكليزية .

---

٢٣ ـ انا لا اميل الى الاعقاد بأن اليونانيين استعاروا كلمة Lees من (ليث) السامية ، بل ارجح انها كلمة مشتركة بين اللغات الهندية الاوروبية والسامية الحامية .

24 - Jack Lindsay, Helen of Troy, P.59.

وقد عثر على زهريات ميسينية متأخرة من مرحلة الحرب الطروادية (القرن الثالث عشر ـ القرن الثاني عشر ق .م .) في بلدة صابوني السورية ، التي تقع على بعد ميلين من الميناء(٢٥) .

لم تكن ارض كنعان ، والحالة هذه ، مجهولة لدى باريس مختطف هيلن . فعندما توجه هو وهيلن الى طروادة ، بعد ان تركت بيت الزوجية في اسبارطة ، اثارت الالاهة هيرا زوبعة اجبرت باريس على الانحراف نحو قبرص . ومنها ابحر الى صيدا ، حيث رحب به ملكها . لكن باريس غدر به وقتله غيلة في الوليمة التي اعدها له ملك صيدا ، وفرّ بعد ان نهب المدينة . الا ان الصيدونيين طاردوه وقاتلوه ،فهزمهم في معركة خسر فيها سفينتين . وخشية ان يتعقبه منيلاوس (زوج هيلن) تلكأ باريس عدة اشهر في فينقيا ، وقبرص ، ومصر ، قبل ان يعود الى طروادة(٢٦) .

ويفسر روبرت غريفز هذه الرواية الاسطورية قائلا : «في القرن الرابع عشر ق .م . تعرضت مصر وفينيقيا الى غارات متكررة شنتها جماعات الكفتيو Keftue ، او «اقوام البحر» ، التي يبدو ان الطروادييين لعبوا دورا فعالا فيها . ومن بين القبائل التي وجدت موطىء قدم لها في فلسطين كانت قبيلة الجرجاشيين (سفر التكوين ١٠ :١٦) ، وهم التيوكاريون من Gregis الذين ورد ذكرهم في الالياذة (٨ :٣٠٤) وقد ذُكر بريام Priam ، وانخيسيس An-chesis الطروادييان في التوراة بهذه الصورة : فرآم وآخيش (سفر يشوع ١٠ :٣ ، سفر صاموئيل الاول ٢٧ : ٢) . ويبدو ان فارص ، الجد الاعلى لقبيلة يهودا ، ذات الدماء المختلطة ، والذي تخاصم مع شقيقه التوأم في رحم امه ، ما هو الا باريس »(٢٧) .

---

25 - T.J. Dunbabin, P.23.

26 - Robert Graves, Greek Myths, 1:274.

27 - Helen of Troy, P.73.

ويعترف منيلاوس في حديثه مع تليماخوس بن اوديسيوس بانه لجأ ذات يوم الى ملك صيدا ، في قوله : «سأهبك اجمل واثمن كنوز قصري . سأعطيك اناء من المعدن المطرّق ، صنع من الفضة الخالصة باطار من ذهب حول الحافة ، من صنع هيفاستوس نفسه . لقد اهدانيه صديقي ملك صيدا . عندما آواني تحت سقف بيته في طريق عودتي الى الوطن . . . » (الاوديسة . الكتاب الرابع) .

ويتحدث هوميروس باعجاب كبير عن الصناعات الفينيقية ، في قوله : «ثم سارع ابن بيليوس (المقصود به آخيل) فعرض جوائز سباق العدْو . كانت الاولى اناء من الفضة المشغولة . حجمه ستة مكاييل ، وهو ابدع شيء في الدنيا . لقد تفنن صناع صيدا في صنعه ، ثم حمله رجال فينقيا فوق البحر المدلهم وقدموه لثاوس بعد ان رست سفينتهم في مينائه» (الالياذة ٢٣ :٧٤١ وما بعدها) كما يتحدث عن مطرزات النساء الصيدونيات باعجاب مماثل ، عندما يصف رداء هلين الذي طرزته النساء الصيدونيات اللائي اتى بهن باريس نفسه من صيدا ، في سياق رحلته مع هيلن الى طروادة (الالياذة ٦ :٢٨٩ - ٢٩١) . ويقول دنبابن ان معظم هذه الآثار - عدا ما يتلف منها ، كالمطرزات - عثر عليها في اماكن مختلفة من اليونان ، ولا سيما في المعابد الكبيرة في اولمبيا ، ودلفي ، وديلوس ، واورغوس ، وساموس ، وفي كريت ، وكورنث ، واثينا[٢٨] . وكانت السفن والمعجلات chariots المرسومة او المنقوشة على الزهريات ابدع ما صورته يد انسان . وكانت المواد المصنوعة من العاج ، والذهب ، والمعادن الثمينة الاخرى قد بدأت تصل الى اليونان . ومن المرجح ان هذه المصنوعات ، على غرار تلك التي وصفها هوميروس ، فينيقية[٢٩] .

على ان اقدم المجلوبات الى اليونان لم تكن فينيقية ، بل سورية : تماثيل برونزية سورية الاسلوب ، واشكال طينية ايضا ، يمكن تمييزها بسهولة من محاجر العيون العميقة والانف والذقن البارزين ، وانحدار الوجه نحو الاعلى .

---

28 - T.J. Dunbbin, P. 36. 29 - Ibid.

ويرقى بعضها الى القرن التاسع ق .م . ولقد كان للفن السوري تأثير واضح على اسلوب النحت اليوناني في اواخر القرن الثامن وفي القرن السابع ق .م . على نحو ما افاد Homman - Wedeking . وفي كورنث عثر على قالب لرأس انسان من الطين الكورنثي (اليوناني) صب على الطريقة السورية . ويعتبر هذا اقدم قالب عثر عليه في كورنث ، وواحد من اقدم القوالب في اليونان(٣٠) .

ومع ان التنقيبات لم تكشف سوى عن القليل جدا من البرونزيات الآشورية في اليونان ، وهو امر يدعو للحيرة ، كما يقول دنبابن ، اذا اخذنا بعين الاعتبار المستوى الفني الرفيع لهذه الاعمال الفنية ، والنفوذ السياسي الآشوري القوي في الشرق يومذاك (الالف الاول ق .م .) ، الا ان هذا الفن كان له تأثير بيّن على الفن اليوناني . ومن مظاهر هذا التأثير : تصوير حالة البحارة الذين غرقت سفينتهم وهم يسبحون ، والقتلى على الشاطىء في معركة بحرية . كما يمكن تلمس بصمات الفن الآشوري على زهرية من ارغوس تصور اوديسيوس في كهف بوليفيموس .

ومما له اهمية خاصة ، في تصوير الاسلوب الواقعي وفي تقنية الرسم ، الاعمال الآشورية الشهيرة التي تصور اكداس الجثث في مشاهد المعارك ، وعلى العموم ، تصوير الخلفية من خلال رسم اشكال بشرية في الطرف الابعد من المنحوتة الناتئة ، وكأنما ينظر اليها من فوق . لكن تأثير الفن الآشوري - وهو من اعظم الفنون ، ليس في ايامه فحسب ، بل في العالم القديم قاطبة ، وكان متقدما جدا على الفن الاغريقي او اي فن آخر معاصر له ، في التقنية الواقعية - انما تم عن طريق وسطاء غير مباشرين ، على ما يبدو(٣١) .

وقد عثر على ستة وثلاثين ختما شرقيا في ما يدعى بقصر قدموس في مدينة طيبة اليونانية ، على احدها نقش بالكتابة المسمارية . ويرقى معظم هذه الاختام الى العهد البابلي في ايام الكاشيين ، في القرن الرابع عشر ق .م .

---

30 - Ibid.P.77. 31 - Ibid. P.42.

وبعضها اقدم من ذلك . وثمة ختم ميتاني ، وآخر حثي - سوري . ويوجد على ختم اسطواني بابلي نقش عفريت مجنح وقد روضه إله جالس . . وفي كل منطقة ايجة عثر على احد عشر ختما فقط ، كان اثنان منها من كريت ، والباقي من بابل . كما عثر في القبر الملكي في ديندرا Dendra ، يعود تأريخه الى منتصف القرن الرابع عشر ق .م ، على ثمانية بروشات (دبابيس زينة) صغيرة من الزجاج الازرق ، على كل منها ثقبان لتشد منهما بخيط في خوذة . وعلى كل بروش تظهر صورة امرأة تمتطي حيوانا ، يرجح انه ثور ، مندفع بسرعة الى الامام . ويبدو ان المرأة ترتدي ثوبا من صنف الكوناكس Kau-nakes (وهي من كلمة guannakko الآشورية ، وتعني معطفا مهدّبا ومكشكشا) . ويرجح انها تمثل الالاهة اوروبا ، او صورة اقدم لها . كما نجد السلف المباشر لاوروبا - عشتار على النقود الصيدونية (١١١ - ١١٧م) (٣٢) .

وهناك ختمان من Hagia Triada من كريت يدعواننا الى اعادة النظر في شكل حيوان ديندرا (المشار اليه في السطور السابقة) . فعلى احدهما تظهر امرأة بلباس الكوناكس تمتطي ظهر حيوان غريب ؛ وعلى الآخر تظهر قوادم كائنين من الصنف نفسه . ان هذه الاصناف من الحيوانات تذكرنا بالافعوان - الغرفين (نصفه اسد ونصفه الآخر نسر) في العبادات الرافدينية التي ظهرت اصنافها منذ اقدم مرحلة وحتى العصرين البابلي والآشوري الحديثين .

وهذا كله يقدم ادلة على التلاقح الحضاري بين منطقتنا واليونان في مرحلة تأليف الالياذة والاوديسة ، وقبل ذلك بكثير .

تقع طروادة في اقصى الشمال الغربي من آسيا الصغرى (تركيا) ، على بعد ثلاثة اميال فقط من ساحل الدردنيل . واطلالها التي تشكل تلا ارتفاعه خمسون قدما او يزيد ، ، تشتمل على تسع طبقات او سويّات رئيسية ، تشير

---

32 - Helen of Troy, P. 297.

الى عدة مراحل من الاستيطان . وقد رقمت هذه الطبقات من السوية الاولى وحتى التاسعة ، ابتداء من الاسفل ، اي الاقدم . ولوحظ ان السويات الخمس الاولى تمثل حضارة واحدة دون تغيير يذكر ، ويرجع تأريخها الى اوائل العصر البرونزي . وقد انشئت طروادة في حدود ٣٠٠٠ق .م ، على يد مستوطنين قدموا اليها ، على ما يبدو من الجنوب الشرقي عبر البحر . وكانت اول مستوطنة عبارة عن قلعة صغيرة يبلغ قطرها اقل من ٣٠٠ قدم بقليل ، ويحيط بها سور متين من الحجر ذو مداخل اقيم على جانب كل منها برجان . ويقول Blegen ان نهايتها كانت بسبب حريق هائل ادى الى دمارها . في حين جاء في كتاب جاك لندسي (هيلن الطروادية) ان طروادة الاولى دام عهدها حوالي خمسمئة عام ، وآل صراع داخلي ، على ما يبدو ، الى دمارها[٣٣] . وتعكس طروادة الثانية تفاصيل عمرانية تتسم بشيء من الاهمية . فجدرانها كانت مشيدة من اللّبن بصورة اساسية ، على النمط المعماري المعروف في آسيا الغربية (وادي الرافدين) ، لكنها كانت مدعمة بشريط من الجذوع الخشبية[٣٤] . وتميزت هذه المستوطنة ـ الثانية ـ بوجود قصر ذي قاعة كبيرة ورواق يطلق عليه باليونانية megaron ، وهي كلمة مجهولة الاصل ، ويُظن انها سامية (مغارة) . وتذكرنا ايضا بمعابد من الصنف نفسه في طرازها المعماري عثر عليها في تبة كورا Tepa Gawra في شمال العراق (يرجع تأريخها الى الالف الرابع ق .م) لكن هذه الاخيرة تبدو غريبة او فريدة في المنطقة (آسيا الغربية) . وكانت طروادة الثانية على صلة بسوريا وقيليقيا في جنوب الاناضول . ثم اتى حريق عليها بعد مضي ثلاثمئة سنة على تأسيسها ، كما يقول جاك لندسي . وفي المراحل اللاحقة تم بناء اسوار امتن مع ابراج صغيرة مستدقة النهايات . ثم ازدهرت المنطقة واشتهرت بتربية الاغنام وغزل ونسج الصوف ، وذلك على غرار مملكة ايبلا السورية (التي ازدهرت حضارتها

33 - Ibid. P.61.

34 - G.Clark and S. Piggot, Prehistoric Societies. P. 203.

في منتصف الالف الثالث ق .م .) حيث كانت صناعة النسيج اهم مهنة فيها ، على ما يرجح ، وخاصة انتاج وصباغة الاقمشة الصوفية والكتانية . ويستفاد من اللقى الآثارية ان طروادة الثالثة والرابعة كانت علاقاتهما مستمرة مع جنوب الاناضول وسوريا واليونان ، حيث عثر على الفخار الطروادي في هذه الاماكن . وقد استعمل سكان طروادة الرابعة التنور[٣٥] الذي يذكرنا بتنانير وادي الرافدين . وقد دامت مراحل طروادة (١ ـ ٥) بين ٣٠٠٠ ـ ١٩٠٠ق .م . (وهذا يتزامن مع اوئل العصر البرونزي في منطقة ايجة) . ومن المرجح ان سكانها في تلك المراحل كانوا من صنف مواطني جزر ايجة وكريت والبر اليوناني السابقين للوجود اليوناني (الهندي الاوروبي) ؛ ولعلهم قدموا اليها من جنوب غرب الاناضول او سوريا[٣٦] . اما طروادة السادسة والسابعة فيمكن تحديد مرحلتيهما في منتصف واواخر العصر البرونزي (بين حوالي ١٩٠٠ ـ ١١٠٠ق .م .) وهنا ادخل الحصان وتم انشاء القلاع الحصينة والهندسة العسكرية المتطورة . وهذا يعني ان اقواما جدداً قدموا الى المنطقة منذ طروادة السادسة .

وعلى ذكر الحصان ، نقول ، او بالاحرى ننقل كلمات كروسلاند الآتية : «ان جميع الاقوام الهندية ـ الاوروبية المبكرة كانت لديها خيل مدجنة ، والعديد من هذه الاقوام استعمل المعجلات الحربية . واقدم تأريخ معروف لنظام الخيل في الاناضول وجد في طروادة السادسة . وقد وجدت هياكل عظمية لنوع محسن من الخيل ، من الصنف المدجن على ما يرجح ، في عصمانكياسي (تركيا) . وهذه اللقى تعزز وجهة النظر القائلة بان هجرة الاقوام الهندية الاوروبية بدأت قبل ١٩٠٠ق .م . ولكن من المشكوك فيه ان يكون الهنود الاوروبيون قد عرفوا المعجلة الحربية قبل ان يحتكوا بالشرق الاوسط عن كثب ، ولعل هذا حصل في الربع الثاني من الالف الثاني ق .م . »[٣٧] .

---

35 - Helen of Troy. P. 61. 36 - British Encyclopedia.

37 - R. A. Crossland, Immigrations from the North, Volume 1, Cambridge, 1967.

اما طروادة السابعة «أ»[٣٨] التي دام عمرها جيلا ونيفاً ، والتي ربما اتت عليها النيران في القرن الثالث عشرق .م . بعد اجتياحها من الآخيين جنود الملكين اغاممنون ومنيلاوس ، فلعلها هي مدينة بريام Priam ملك طروادة التي تتحدث عنها الياذة هوميروس . ثم كانت طروادة الثامنة اول مستوطنة اغريقية . واما طروادة التاسعة فقد استوطنها الهلينيون اليونانيون والرومان[٣٩] .

وكانت طروادة منذ تأسيسها (حوالي ٣٠٠٠ق .م . كما مربنا) مركزا تجاريا مهما بين الشرق والغرب بحكم موقعها في ملتقى الطرق البرية والبحرية بين وادي الرافدين ومنطقة ايجة عبر الاناضول ومضيق الدردنيل . وفي طروادة الثانية (حوالي ٢٦٠٠ق .م .) عثر على جرار وتماثيل صغيرة تذكر بمثيلات لها في الاناضول ومنطقة سومر العراقية[٤٠] .

ومن بين اقدم النقوش التي تحمل اسم طروادة : جرة خمر اتروسكية ترقى الى أواخر القرن السابع ق .م .عثر عليها في Tragliatella ، عليها صورة



٣٨ ـ طروادة السابعة مرت بمرحلتين : «أ» ، «ب» .

٣٩ ـ الموسوعة البريطانية ، تحت مادة Troy .

40 - E. O. James, The cult of the Mother Goddess, P. 40.

فارسين ، يحمل احدهما درعا شعاره طائر الحجل ،ويجثم خلفه عفريت يشبه القرد . اما صاحبه فيحمل رمحا ودرعا شعاره بطة .وكلاهما خارجان من متاهة(٤١) (maze) كتب عليها Truia (طروادة) .

وتقترن طروادة ، مثل كنوسوس في كريت ، بالمتاهة . فقد ارتبطت طقوس المتاهات بالطبيعة المقدسة للمدينة ؛ فهي تشكل موانع سحرية امام من يدخلها من الغرباء . ويبدو في الواقع ان اسمي طروادة Troy ، وايليوس Ilios يعنيان مدينة مقدسة او مسورة بالسحر . ومن الجائز ان كلمة Troia تمتّ الى اصل واحد هي والكلمة البابلية Tirani التي وجدت في الواح ترقى الى حدود سنة ١٠٠٠ق .م . مع مخطط لمتاهة شبيهة بالامعاء (التي كانت ترتبط عند البابليين بطقوس العرافة) . وفي احد هذه الالواح وردت عبارة ekal tirani ، وتعني « قصر الامعاء »(٤٢) . ويرى ف . موللر F. Muller ان الفعل اليوناني eilein(يتدحرج ، يلتف ، يلف) يرجع الى الجذر نفسه ايضا . وهناك عدد لا بأس به من الكلمات اللاتينية التي تفيد في جوهرها معنى الاحاطة بالشيء والاستدارة واللف ، مثل troareكما في قولهم porca troia (الخنزيرة الحبلى) ، و trulla (قِدْر) و redantruare (يردّ الجميل) ، على حد قول كلاوزن Klausen ، مع انه لا يتفق مع الذين يذهبون الى القول بوجود صلة بين هذه الالفاظ وكلمة Troy (طروادة) (٤٣) . وتجدر الاشارة ايضا الى ان هناك متاهة في ويلز (المملكة المتحدة) تدعى Caer Droia ، حيث تعني Caer (مخيم) ، اما Droia فيبدو انها مشتقة من الجذر السلتي tro - (يدور ، يستدير ، يخض ، يحرث) . والكلمات التي لها صلة بهذا الجذر تعني : ينحني ، يلتوي ، يجدل ، يقلب . ولكن هذه تذكرنا ايضا بمادة (دار)

---

٤١ - المتاهة : شبكة من الممرات المعقدة المحيرة .

42 - Helen of Troy, P. 108 - 9.

43 - Ibid. P. 109.

السامية ، كما ان صور وجه خمبابا ، المارد الذي قتله جلجامش او انكيدو(؟) في غابة الارز ، كانت ترسم في بابل بخطوط ملتوية مستمرة تشبه الامعاء ؛ ولعل الغرض منها ان تترك اثرا نفسيا - تمائميا- لدرء الشر . ورسمُ الوجه بخطوط متواصلة ومتمعجة شبيهة بالتواءات المصارين ، ووجهُ خمبابا ، كانا معروفين في اليونان ؛ فقد عثر على نماذج من اصناف خمبابا في معبد ارتميس اورثيا باليونان . بل ان هذه الاقنعة وجدت ايضا في بلدة هلين بالذات ، اي اسبارطة(٤٤) .

ولعل ما يدعى بلعبة طروادة ، عند الرومان ، بشبكاتها وممراتها المعقدة ، لم تكن ابتكارا متأخرا ؛ وهي تذكرنا برقصة المتاهة التي يؤديها الداخلون في الجمعيات السرية عند الانتقال من مرحلة من مراحل الحياة الى اخرى ؛ والغرض منها ارباك القوى الخبيثة وعزلها في المؤخرة ، في الجانب الاخر من المتاهة .

وقد لفتت ابواب طروادة مزيدا من الاهتمام ايضا . فمنذ طروادة الاولى كان لبوابة المدينة برجان ، الغرض منهما تفادي اي جيش يحاول اقتحام المدخل الشبيه بممر طويل . وفي طروادة السادسة استعملت اسوار متشابكة ، لاعاقة الهجوم على الابواب . ان انظمة الدفاع الطروادية مُعدّة بطريقة تيسر عملية ما يدعى برمي الانتظام في القتال ، بممراتها المعقدة المتشابكة ، التي تؤمن للمدافعين حماية اكيدة ضد اي هجوم ، وتنطوي على جانب سحري ايضا . ولعل اقدم المتاهات التاكتيكية هي تلك التي وجدت في بعض الحصون المصرية التي يرجع تأريخها الى السلالتين الاولى والثانية (الالف الثالث ق .م .) . وقد شاهد هيرودتس متاهات مدينة كنوسوس بكريت ، وفي الهوارة في الفيوم بمصر ؛ وفي كلا المكانين كانت المتاهات معقدة ومربكة . . . . وهذه الفكرة كانت تطبق في بعض البيوت ايضا . ففي الصين «يتعذر الدخول في طريق

44 - Ibid. P.285. and P. 292.

مستقيم في منزل اعتيادي من منازل الطبقة الوسطى . فخلف الباب الامامي توجد ستارة تجبر الزائر على الانعطاف الى اليمين او اليسار ؛ والغرض من ذلك طرد الارواح الشريرة ، لانها لا تستطيع الحركة الا بخطوط مستقيمة » (جيل... Giles ، ١٩١١ ، عن جاك لندسي) . ومثل هذا النظام يوجد في القبور والمدافن المصرية القديمة ، مثل قبرالملك (Perabsen) من السلالة الثانية ، كما انه استخدم على نطاق واسع في هرم السقارة المدرج . ويتحدث « كتاب الابواب » المصري ، الالف الثاني ق .م . ، عن « الاسوار المزدوجة » خلف الابواب التي يتعين اجتيازها في السحر والغموض . ولربما استعير مخططها من الرمز الهيروغليفي المصري لشكل الحرف h ، الذي يمثل مخطط باحة ؛ بيد ان تصاميم مماثلة من شمالي سوريا قد تكون هي التي تركت بصماتها على المخططات الاغريقية في المرحلة الموسومة بالزخرفة الهندسية (على الفخار والآنية) في perachora قرب كورنث اليونانية ، والتي كان الغرض منها سحريا اكثر منه فنيا(٤٥) .

ويحسن بنا ايضا ان نتطرق الى قصة البطل الاسطوري الاثيني ثيسيوس THeseus مع المينوتور Minotaur في متاهة كريت ، لانها تقترن بطروادة ومتاهتها ، ولان لبطلها علاقة بهيلن ايضا ، وان بدت هذه العلاقة من التفاصيل المقحمة على سيرة حياته (فلقد خطف هيلن من اسبارطة وهي بعد في الثانية عشرة من عمرها ، واحتجزها ليتزوجها بعد ان تكبر ، الا ان اخويها يفلحان في انقاذها) : كان الملك مينوس يضمر حقدا لاهالي اثينا ، لان ثور الماراثون قتل ابنه Androgeos . وكان لدى مينوس ثور برأس انسان يدعى مينوتور ، ولد لزوجته باسيفاية بعد ان مكنت احد ثيران قطيعه من تلقيحها ، واخفاه في داخل المتاهة في قصره الشهير في كنوسوس . وبحكم كونه سيد البحر ، فرض على اثينا ان تقدم له كل ثلاث سنوات (وفي رواية اخرى كل تسع سنوات)

---

45 - Ibid.P. 109 - 10

سبعة غلمان وسبع بنات ابكار . وفي الدورة الثالثة من هذه الجزية تطوع ثيسيوس ان يكون احد افرادها . وفي كريت - بلد الملك مينوس - فاز بقلب الاميرة اريادنة Ariadne ابنة الملك مينوس ، التي اكدت له قائلة : «سأساعدك في قتل اخي من امي ، المينوتور ، اذا وعدت بأن تتزوجني وتصحبني معك الى اثينا » . فلقي هذا العرض من لدنه كل الرضا . واقسم بأن يتزوجها بعد ان يصرع المينوتور . وكان ديدالوس Daedalus الفنان والمخترع الشهير قد اعطى اريادنة لفيفة غزل سحرية (كبة خيط) ، وعلمها كيف تدخل الى المتاهة وتخرج منها دون ان تضل طريقها ، وذلك بان تفتح باب المدخل وتشد طرف الخيط بعتبة الباب العليا ، وتفك كبة الخيط وهي تسير في منعرجات المتاهة الى ان تصل حيث يوجد المينوتور . وقد اعطت اريادنة هذا الخيط الى ثيسيوس ، ونصحته بان يتبع اثره الى ان يصل الى مقر الهولة النائم ، ويقتله ، ثم يعود الى الخارج بعد ان يلفت الخيط على لفيفته . وهذا ما فعله . ثم اصطحب معه اريادنة والبنات والغلمان الاثينيين ، وفي طريقه الى اثينا ، عرج على ديلوسDelos ، وهناك رقص معهم رقصة الغرانيق ، مقلدا تعرجات المتاهة .

وهذه الرقصة تذكرنا برقصة الحجل الكنعانية التي كانت تؤدى تكريما لإلاهة القمر ، حيث كان الراقصون الذكور يحجلون وهم مرتدون اجنحة ، تشبها بطائر الحجل . وكان هذا الطقس يدعى في فلسطين «فسخ» ويعني «حجل» ، وكان يؤدى حتى في ايام النبي ارميا ، في بيت حجلة ، حيث كان الراقصون يرقصون على هيئة حلزونية . وكانت هذه الرقصة كنعانية الاصل . وقد حذر ارميا اليهود من ممارسة هذه الطقوس الكنعانية . والى الشمال من كريت هناك جزيرة تدعى Anaphe كان ملك كريت شبه الاسطوري مينوس قد عقد معاهدة معها ، وهي معروفة في القديم كوكر لطيور الحجل المهاجرة لتستريح فيها(٤٦) .

46 - Robert Graves, The Greek Myths, 1:315 - 6.

ويقول روبرت غريفز ان «لعبة طروادة» التي تؤدى فيها الرقصة الحلزونية (وتدعى «رقصة الغرنوق» في ديلوس ، لانها كانت ترقص هناك لإلاهة القمر كطائر غرنوق) تعود الى اصل واحد هي ورقصة «الفسخ» (= الحجل) . وقد عكس هوميروس هذه الحقيقة بقوله :

ديدالوس في كنوسوس ابتكر ذات مرة
باحة رقصة لاريادنة ذات الشعر الاشقر

وهو مقطع شعري فسره الشارحون على انه يشير الى رقصة المتاهة . ويمكن ربط هذه العلاقة على النحو الآتي : ان مخطط المتاهة يرمز الى «القلعة الحلزونية» ، او «مدينة طروادة» ، التي يذهب اليها ملك الشمس المقدس بعد الموت ، ويعود منها اذا كان الحظ حليفه(٤٧) .

ويرى مارتن برنال في كتابه (اثينا السوداء ، ج١ ، ص ٦٣ - ٦٤) أن اسطورة الثور (المينوتور) والمتاهة الكريتية ترجع الى جذور مصرية لا غبار عليها . فاسم مينوس ، الملك الكريتي شبه الاسطوري ، يذكرنا بالملك المصري السابق له Menes او Min كما يدعوه المؤرخ اليوناني القديم هيرودتس ، ويعود تأريخه الى حدود ٣٢٥٠ ق .م . فيؤثر عن مين أنه اوجد عبادة الثور Apis في ممفس المصرية . وعلى غرار ذلك اشتق الرومان اسم Mnevis الذي يطلق على عبادة الثور ، من Mnewe المصرية القديمة . وكانت هذه العبادة تقترن بالجدران المتعرجة منذ ايام المملكة القديمة ، التي سبقت بناء القصور الملكية (بما فيها من متاهات) في كريت . وهذا يأتي دليلا على ان عبادة الثور ، والمتاهة ، في كريت ، إنما جاءت من مصر . يؤكد ذلك ان المرويات الاغريقية تشير بوضوح الى ان المتاهة استنسخها الملك مينوس (الكريتي) عن اصل مصري بواسطة الصانع الماهر والمعماري ديدالوس . كما يقول مارتن برنال بشأن كلمة Labyrinth التي تعني (متاهة) باللغة اليونانية ، ان محاولات

---

47 - Robert Graves, The White Goddess, P. 329.

اشتقاقها من الكلمة الليدية Labyrs التي تعني (فأس) تبدو اضعف احتمالاً من اشتقاق علماء المصرويات في الستينات من القرن الماضي ، من الاسم المصري R - pr- n- h nt ، وهو اسم موقع المتاهة المصرية التي وصفها هيرودوتس والكتّاب القدامى الاخرون .

ويدور موضوع الالياذة حول فكرة طالما تغنّى بها الشعراء قبل هوميروس وبعده ، هي خراب طروادة . فهناك «نهب طروادة» ، و«نهب ايليوم = طروادة» ، و «نساء طروادة» ؛ وهذه الاخيرة ليوريبيديس . وتتعاطف مشاعر مؤلفيها جميعا ، دون استثناء هوميروس ، مع طروادة . وهذا يذكرنا ، ايضا ، بخراب مدينة اور السومرية ، التي أبّنها الشعر بعد دمارها ، وناح عليها .

والمحور الرئيس لملحمة الالياذة هو الحملة التي شنها الآخيون على طروادة لاسترجاع الاميرة هيلن ، زوجة منيلاوس (شقيق اغاممنون) ، بعد ان اختطفها باريس ، ابن بريام ملك طروادة . ويُروى ان منيلاوس ، ملك اسبارطة ، ذهب الى طروادة ليبحث عن قبري اثنين من ابناء بروميثيوس ، وذلك تنفيذا لفتوى افتى بها كهنة معبد دلفي لدرء جائحة ألمت باسبارطة . فاستقبله باريس بحفاوة ، ثم رجاه ان يرافقه في رحلة العودة الى اسبارطة ، على رأس اسطول اعده له ابوه . وهناك استضافه منيلاوس عدة ايام . وقدم باريس لهيلن هدايا حملها لها من طروادة ، وغازلها بحضور زوجها الذي لم يكن شديد الملاحظة والغيرة على ما يبدو . فلقد ابحر الى كريت لامر ما ، تاركا هيلن لتقوم بإكرام الضيف وحكم المملكة في اثناء غيابه . الا ان هيلن وقعت في حب باريس ، وهربت معه الى طروادة . وكان ما كان من تحالف ملوك ورؤساء قبائل اليونانيين في الطرف الاوروبي من اليونان ، وحربهم التي شنوها على يونانيي طروادة الآسيوية (التي تقع في الشمال الغربي من آسيا الصغرى) ، وحصارها الذي دام عشر سنوات ، ثم تدميرها ، والعودة بهيلن الى بيت الزوجية .

ولسنا هنا وراء تحليل اسباب الحرب الطروادية الحقيقية من وجهة النظر التأريخية ، لان هذا ليس موضوع كلمتنا . ان الذي يهمنا من هذه القصة هو

ثيمتها الرئيسة ، التي تدور حول اختطاف اميرة من مملكة الى اخرى ، ثم شن حملة لاستعادتها . ففي هذه الثيمة تلتقي الالياذة بملحمة « كارت » الكنعانية ، التي كتبت قبل حرب طروادة بنحو قرنين ، وتروي قصة ملك ، هو كارت ، يشن حملة على مملكة ادوم ، ويحاصر مقر الملك فابل ، ملك ادوم ، طالبا منه ان يزوجه من ابنته الفاتنة «حورية» . ثم نعلم ، بعد خرم في النص ، ان « كارت» يتزوج «حورية» . اما كيف تم ذلك ، فلا ندري . هل وافق ابوها على الزواج ام اختطفها كارت ؟ اغلب الظن ان اباها وافق على شروط الغازي .

وملحمة كارت هي اقدم قصة في الادب العالمي تدور حوادثها حول اختطاف اميرة ، كما يقول سايروس غوردن . لكنه يشير في الوقت نفسه الى انها تحمل بصمات كريتية ، لان اسم البطل نفسه (ك ر ت) كريتي . ويذهب الى ان موضوع اختطاف الزوجة الشرعية لم تتطرق اليه آداب شرقي البحر المتوسط قبل عصر العمارنة (القرن الرابع عشر ق .م .) ، ولم يعرفه الادب المصري ولا ادب وادي الرافدين . وان قصص الحب والمغامرات في المهابهارتا والرامايانا (الهنديتين) تدعو للاعتقاد بأن الهنود الاوروبيين طعموا الملحمة في شرقي المتوسط بهذا اللون من الادب[٤٨] .

ويقول جاك لندسي ايضا ان اسم «ك ر ت»اطلق في التوراة على الجد الاعلى للفلستينيين (الكريتيين) في سفر صفنيا (وكذلك في مواضع اخرى من التوراة) ، ويظهر ايضا بين الاسماء في الالواح المينوية (الكريتية) من حفريات Hagia Triada[٤٩] . لكن الدكتور انيس فريحة يقول عنه : «آثرنا ان نلفظ الاسم بصيغة اسم الفاعل . فيرولو كان اول من حرّك الاسم (ك ر ت) هكذا Kert وشاع هكذا في كتابات علماء الغرب . وقد يكون الاسم « كاروت» اي

---

48 - Cyrus H. Gordon, Homer and the Bible, P. 53 - 54.

49 - Helen of Troy, P. 72.

صيغة اسم المفعول من كرت بمعنى قطع ، فيكون معنى اسمه المقطوع ، اي من النسل . ونحن نفضل ان نسميه القاطع اي السيف ، والله اعلم!(٥٠)» .

وتفيد مادة «ك ر ت» باللغة العبرية معنى «القطع» ايضا . و «كاراتو» الاكدية تعني : يضرب ؛ يقطع . ثم ان اسم جزيرة كريت Creteليس يونانيا . وجاء في كتاب روبرت غريفز (الميثولوجيا الاغريقية) . انها من Crataie غير اليونانية ، وتعني : قوية ، او حاكمة ، وهي إلاهة . ومهما يكن من امر فنحن نرى ان مادة «ك ر ت» السامية تصلح اكثر من اي جذر آخر اصلا لكلمة «كريت» . يعزز هذا ان ما يدعى بالخط «أ» (Liner A) الكريتي القديم سامي الاصل ، في ضوء ماتوصل اليه سايروس غوردن ، وان اسماء اساسية في الحضارة الكريتية تمتّ الى اصل سامي او كنعاني ، مثل الملك شبه الاسطوري مينوس Minos من (م ن) ، والفنان شبه الاسطوري ديدالوس Daedalos من (ددل) (٥١) ، وهما ابرز اسمين كريتيين .

ويعتقد ان الالياذة التي تتألف من اربعة وعشرين بابا كانت في الاصل قصيدة واحدة عنوانها «غضب آخيل» يمكن إلقاؤها في ليلة واحدة ؛ ويدور موضوعها حول الصراع بين آخيل واغاممنون حول امتلاك الاميرة الاسيرة بريسيس Brisies التي كانت من سبايا آخيل . وكانت لاغاممنون سبية ايضا تدعى خريسيس ، هي ابنة احد كهنة ابولو . ولشدة جمالها رفض اغاممنون فدية ابيها مقابل اعتاقها ؛ فحلّ الطاعون بمعسكر الآخيين ، بتدبير من ابولو . وبعد ان علم اغا ممنون سبب الوباء ، تنازل عن خريسيس على ان تعطى له بريسيس التي كان آخيل متعلقا بها كثيرا . ونتيجة لذلك اعتبر آخيل نفسه في

---

٥٠ ـ الدكتور انيس فريحة : ملاحم واساطير من اوغاريت ، ص ٧٦ . دار النهار للنشر . بيروت ١٩٨٠ .

51 - Cyrus H. Gordon, Ugarit and Minoan Crete, P. 150. W.W.Norton and co. N.Y. 1966.

حل من ولائه لاغاممنون ، وانسحب هو واتباعه المقاتلون من المعركة ، فحلت بمعسكر الآخيين هزيمة منكرة ، واضطروا الى التقهقر الى معسكرهم المحصن بسور ، برغم البسالة التي ابداها دايوميديس ، واياس ، واخرون . واستجابة لنصيحة الشيخ نسطور ارسل اغاممنون وفد مصالحة الى آخيل ، يعرض عليه اعادة بريسيس اليه مع جائزة مجزية ، ووعده بان يزوجه بعد النصر من اميرة ملكية مع سبع مدن كبائنتلها . في غضون ذلك قتل هكتور الطروادي باتروكلس صديق ورفيق آخيل الحميم ، مستغلا غياب آخيل عن ساحة القتال . عند ذاك صاح آخيل صيحة ارتعدت لها فرائص الطرواديين ، وعاد الى القتال ، ليقتل هكتور ، وبذلك ينهي هوميروس الالياذة دون الاشارة الى مقتل آخيل بسهم يسدده باريس الى كعبه ، الذي كان نقطة الضعف فيه .

ولما كانت حرب طروادة حقيقة تاريخية ، فمن المرجح ان يكون اغاممنون الآخي ، وبريام الطروادي ، والعديد من الابطال الاخرين شخوصا حقيقيين . اما آخيل فكان شخصا اسطوريا اقحم على حرب طروادة ، لان عبادته كانت معروفة قبل ذلك في اليونان البيلاسغية (اي السابقة لمجيء الهنود الاوروبيين) . ولم يكن آخيًا اصلا ، اي لم يكن هنديا اوروبيا . واسمه يدل على ذلك[٥٢] .

وتقول الاسطورة ان آخيل كان سابع او ثامن ابناء كانت امهم ثيتس The-tis ، وهي حورية ماء ، تحرق اجسادهم في النار او في مرجل لتخلد ارواحهم . اما آخيل فقد انقذه ابوه پيليوس Peleus في اللحظة الاخيرة عندما كانت امه ممسكة به من كعبه وقد غطسته في نهر الجحيم Styx .

وهذه القصة تذكرنا بطقوس حرق الاطفال في فينيقيا قرابين للإله (مولك) في وادي هنوم (جهنم) باورشليم ، موطن الافعى الخالدة ، حيث كانت نار القرابين تضرم باستمرار ولا تطفأ (ومن هنا جاءت فكرة جهنم الخالدة) . ويقول

---

٥٢ ـ الاسماء التي تنتهي بالمقطع eus- سابقة للعهد اليوناني . وهذا ينحسب ايضا على اسم ابيه پيليوس Peleus ، وان كان مقطعه الاول مشتقا من اسم جبل Pelion اليوناني التسمية .

روبرت غريفز ان حرق الطفل حتى الموت كبديل سنوي للملك المقدس تنعكس على نحو واضح في اسطورة ثيتس ، وبيليوس ، وآخيل(٥٣) . وما نهر الجحيم Styx سوى المقابل اليوناني لوادي هُنّم او جهنم الفينيقي . وهذا يأتي دليلا اخر على قدم البطل الاسطوري آخيل ، وعلى جذوره الشرقية ، كما نرى .

ومن جهة اخرى قابل الباحثون بين آخيل وجلجامش ، وبين امه وننسون ام جلجامش ، وبين صديقه باتروكلس وانكيدو صديق جلجامش . فقد كانت ثيتس ام آخيل إلاهة ؛ وكذلك كانت ننسون ام جلجامش . كما ان كلا منهما تشد من ازر ابنها في المحن والشدائد . وحزن جلجامش الشديد على موت انكيدو يذكرنا ايضا بحزن وغضب آخيل على مقتل باتروكلس . . . لكن ابرز مظهر من مظاهر التماثل الذي يدعو للاعتقاد بوجود اتصال مباشر بين النصين الجلجامشي والهوميري ، يتجلى في ظهور شبح الصديق من العالم الاسفل وحديثه المروع عن العالم الاسفل ؛ يحصل هذا مع انكيدو في اللوح الثاني عشر من ملحمة جلجامش ، ومع باتروكلس في الباب الثالث والعشرين من الالياذة(٥٤) .

ويلتقي آخيل مع جلجامش في فشلهما كليهما في الفوز بالخلود الابدي ، وان اختلفت الوسيلة في الظاهر . جلجامش يحصل على عشبة الخلود في رحلته مع اورشنابي ملاح اوتنابشتم ، لكنه يفقدها بعد ان تسرقها منه الافعى . اما آخيل فكان نقطة ضعفه في الموضع الذي امسكته منه امه عندما غطسته في نهر الجحيم لنيل الخلود ، وهو الموضع الذي اصابه فيه سهم باريس المسموم . لكن السهم المسموم هنا هو كناية عن الحية . والحية هي التي سرقت سر الخلود من جلجامش . وقد تكررت نقطة الضعف في الكعب مع ابطال اسطوريين آخرين ، مثل تالوس Talus الذي وخزته ميديا Medea بدبوس ؛ و « رع » الذي لدغت

---

53 - Robert Graves, The White Goddess, P. 128.

54 - G.S. Kirk, The Nature of Greek Myths, P. 256 - 70.

كعبه حية مسحورة ارسلتها ايزيس ؛ وموبسوس Mopsus الذي لدغته حية ليبيا السوداء ؛ وكريشنا في المهابهارتا الذي وخزه سهم رماه اخوه الصياد جارا Jara (٥٥) .

وتلتقي سيرة آخيل - الى حد ما - بسيرتي جلجامش وانكيدو مجتمعين . فهو يشبه جلجامش في ما اشرنا اليه من ضعف مناعته ضد الموت او الفناء ، وفي بطولته الخارقة ، وعلاقته بصديقه الحميم الذي يلقى المصير نفسه الذي يلقاه صديق جلجامش ، الخ . ومن جهة اخرى هو يشبه انكيدو في نشأته . فعندما هجرت امه اباه ، بعد ان انقذه من النار ، كلف ابوه القنطورَ خيرون بتربيته على جبل پيلون Pelon . فكان هذا يطعمه احشاء الاسود والخنازير البرية ، ونخاع عظام الدببة ، لتمده بالشجاعة ؛ او ، طبقا لرواية اخرى ، كان يطعمه العسل ونخاع الخشف ، ليؤهله على الجري السريع . ومنذ السادسة من عمره قتل اول خنزير بري . وفيما بعد صار يجر وراءه ، على الدوام ، الى مغارة خيرون ، الخنازير البرية والاسود وهي تلفظ انفاسها . وكانت الالاهتان اثينا وارتميس تحملقان ، والدهشة تعقد لسانيهما ، بهذا الصبي ذي الشعر الاصهب الذي كان يسبق الظباء في عدْوه ، ويصيب منها مقتلا ، دون الاستعانة بكلاب الصيد .

وفي رواية ، ان اباه عهد بتربيته منذ الخامسة عشرة الى فينقس Phoe-nix ، فاصبح هذا الاب الروحي لآخيل الذي بدوره تعلق به . وهذا ، ايضا ، يلقي مزيدا من الضوء على الجذور الشرقية لآخيل ، لان فينقس يذكرنا بفينيقيا .

ولكن ماذا يعني اسم آخيل ؟

يقول ابولونيوس Apollonius ان اسمه الاصلي هو ليغورون Leguron (الناحب) ، من Liguria ، ثم غيّره مربيه خيرون الى آخيل Achilleus . اما

---

55 - The White Goddess, P. 30.

هوميروس فيشتق اسمه ـ جناسيا ـ من achos (اسى) . بينما يشتق ابولودوروس الصقلي الاسم من « a » (وتعني بلا) ، و « cheile » (شفة) ، اي (بلا شفة) ؛ وهو اشتقاق وصفه السير جيمس فريزر ، صاحب « الغصن الذهبي » ، بانه غير معقول . لكن روبرت غريفز يميل الى رأي ابولودوروس ، لانه يصلح اسما لبطل نبوئي ، كما يقول(٥٦) .

لكننا رأينا من بين معاني مادة « حل » في العربية : « كان في كعبه او رجله رخاوة » ، فهو أحلّ . وهذه اللفظة تلتقي تماما ، كما نرى ، مع كلمة « آخيل » مبنى ومعنى ، لان الاحل من به خلل في كعبه ، وهي نقطة الضعف عند آخيل . ومن معاني كلمة « حلل » الكنعانية والعبرية : يثقب ، يخز ، يحرق ، يتخلل ، يرتخي ، يتحلل . وتقابلها بالاكدية « خلالو » . وتعني : ينفذ ، يدخل ، يمسك بشدة . ومنها جاءت كلمة خلخلاتو التي تقال للمزمار القصبي .

فنحن امام ثلاثة احتمالات : اما ان تكون كلمة « أحَلّ » (وزن افعل التفضيل) مشتقة من « آخيل » او بالعكس ، استقى آخيل اسمه من مادة « حلّ » السامية ؛ او ان التشابه جاء مصادفة . ونحن نرجح الاحتمال الثاني ، اي ان آخيل اشتق اسمه من مادة « حلّ » السامية ، يعزز ذلك ، في رأينا ، ان اسمه غير يوناني ، وسابق لمجيء اليونانيين الى اليونان . ولما كان الساميون قد اقاموا ردحا من الزمن في اليونان ، على نحو ما تقدم ذكره ، فقد تركوا بصمات في هذه الديار ، بما في ذلك العديد من اسماء العلم والمدن والاماكن ، مثل : الدانيين (من دان) ، وايجة (من مادة عزّ ، او عنز ، وهو المعنى الذي تذهب اليه كلمة ايجة) ، وطيبة من (طاب) ، ومغارة (المدينة) ، واثينا الإلاهة التي سميت باسمها مدينة اثينا (من اناث الليبية ، او عناة الكنعانية) ، وقدموس (من قَدمَ السامية وتفيد معنى الشرق) ، واوروبا (= الغروب) ، وپيرسيوس Perseus (من الجذر السامي فَرَس ، ويعني قطع او دق العنق) ، وهذا ينطبق تماما على

---

56 - Ibid. P. 213.

اسمه وعليه بصفته قاطع رأس او داق عنق الميدوزا . . . وغير ذلك . وبهذه المناسبة ، جاء في الموسوعة البريطانية ، في سياق الحديث عن بعض اسماء الالياذة والاوديسة ما يلي : «ثم ان اسماء مثل اتريوس Atreus (وهو ابو اغاممنون ومنيلاوس) ، وباريس Paris ، وهيلن Helene ، واوديسيوس Odysseus (او اوليتيوس Olytteus) لا يبدو انها اغريقية ؛ واسماء مثل آخيل Achilleus ، واغاممنون Agamemnon ، ومنيلاوس Menelaus ، تبدو غير اغريقية لكنها حرفت لتصبح مماثلة لكلمات اغريقية . ولئن كان الامر كذلك ، فلعها لم تبتكر بل اشتقت من اشخاص حقيقيين كانوا يحملون اسماء تشبهها الى هذا الحد او ذاك ، في حين تبدو اسماء مثل دايوميديس Dio-medes (ويعني مستشار زيفس) ، ونيوبتوليموس Neoptolemus (ويعني جديد ـ الحرب) ، وهيكتور Hector (ويعني : قابض ، او ماسك) ، وربما پريام Priam ، ايضا اشبه باسماء اغريقية خالصة بوسع اي كان اجتراحها .

اما هيلن فينعتها روبرت غريفز بانها كانت اسما لإلاهة القمر الاسبارطية ، التي اهّل زواج منيلاوس بها لان يصبح ملكا . على ان جاك لندسي يرى ان المعنى القمري لاسم هيلن متأخر الى حد ما ، وان قَرْنَ هيسيخيوس Hesychios لاسم Helene بكلمة helene «مشعل» اقرب الى الصواب . ويمكن ذكر كلمة elane ايضا ، وتعني «مشعل قصب» او «حزمة قصب» . ثم اصبحت Hel-ene تعني سلة اماليد كانت تقدم فيها الاشياء المقدسة في عيد ارتميس (٥٧) . اي ان اسمها كان يرتبط بالادوات والاشياء التي تستعمل في طقوس العبادة . وحيث ان كلا من المشعل والسلة يصنع من القصب ، فالقصب هنا قاسم مشترك ؛ ومن ثم فان هيلن ديمون daimon(٥٨) نباتية . لكن حزمة القصب هي العلامة المسمارية لاسم إنانّا السومرية او عشتار البابلية . وبالتالي ، وكما سنرى بعد قليل ، فان لهيلن جذورا رافدينية .

57 - Helen of Troy, P. 209.

ويميل ارنست كلاين في قاموسه لاشتقاق المفردات الانكليزية الى الاعتقاد بأن الكلمات التي لها صلة باسم هيلن ، والتي تعني ايضا «حزمة قصب» مشتقة من مادة eilein «لوى ، التوى ، الخ» ، وهي والحالة هذه من الجذر الهندي الاوروبي -well ، او- wall ، وصيغته الموسعة -welu أو -welw «يلوي ، يلتوي ، يستدير ، يتدحرج» الذي يذكرنا بالجذر «لوى» السامي .

على ان جون الليغرو يرجع بجذر الكلمتين اليونانيتين Helene (هيلن) ، و elene (مشعل) الى السومرية Erin (شجرة الارز) (٥٩) ؛ وهذا يتفق مع كون هيلن إلاهة شجرة بالاصل . والارز بالاكدية erenu أيضاً ، وبالعربية والعبرية (ارز) .

واذا اخذنا بالرأي الذي يذهب الى المعنى او المغزى القمري لاسم هيلن (هيلن عند روبرت غريفز تعني اما : قمرا ، او سلة تستعمل لتقديم القرابين الى إلاهة القمر) ، فان اسمها يتقاطع مع مادة (هلّ) السامية ، ومنها (الهلال) ، ومع مادة «هلل» ايضا ،وتعني : يهلل ، يهتف ، يصرخ . ومنها التهليلة على روح تموز الاله السومري .

وتذكر الاساطير أمّين لهيلن ، هما نيميسيس Nemesis ، وليدا Leda . لكن الاولى هي المرجحة ، لارتباطها بالبيضة التي تقترن بهيلن .

تقول الاسطورة : ان زيفس وقع في حب نيميسيس ، فهربت منه الى الماء واتخذت هيئة سمكة . ثم تبعها كقندس . الا أنها نطت الى الشاطىء ، وحولت نفسها الى هذا الحيوان او ذاك ، لكن دون ان تفلح في صد زيفس عنها ، لانه كان يتخذ هيئة حيوان اضرى واخف سرعة منها . وعندما طارت في الهواء على هيئة اوزة ، اصبح بجعا ، واعتلاها في رامنوس Rhamnus في اتيكا . عند ذاك نفضت نيميسيس عنها ريشها ، وذهبت الى اسبارطة. وهناك

59 - John Allegro, The Sacred Mushroom and the Cross. Hodder and Stoughton. P. 25.

وجدت ليدا Leda ، زوجة الملك تنداريوس Tyndareus ، بيضة بلون زهرة المكحلة Hyacinth في مستنقع ، فحملتها الى منزلها واخفتها في صندوق . بعد ذلك تفقست هذه البيضة عن هيلن . ويزعم اخرون ان هذه البيضة سقطت من القمر ، مثل البيضة التي كانت تغطس في نهر الفرات ، في قديم الزمان ، وتدفعها الاسماك الى الشاطىء ، ثم تفقسها الحمائم ، وتتمخض عن إلاهة الحب السورية(٦٠) . ويزعم اخرون ان زيفس تظاهر بانه بجعة يطاردها نسر ، واتخذ من صدر نيميسيس ملاذا له ، ثم اغتصبها ، وبعد ذلك باضت بيضة القاها هيرمس ، ابن زيفس ، بين فخذي ليدا عندما كانت جالسة على مقعد ، وقد باعدت بين ساقيها . وهكذا انجبت ليدا هيلن ، ثم رسم زيفس صورتي البجعة والنسر في السماء ، تكريما لهذا الحدث (٦١) .

وفي رواية اخرى ان ليدا هي التي واقعها زيفس بهيئة بجع قرب نهر يوروتاس Eurotas ، وهناك باضت البيضة التي تفقست عن هيلن(٦٢) . والذي يهمنا من هذه الرواية الشبه في اللفظ بين كلمتي يوروتاس وفرات ، مما يلقى ضوءا ، ايضا ، على الجذور الشرقية لهيلن . اما ليدا Leda فهي الإلاهة لاتونا Latona او اللات Lat .

ومعنى Nemesis باليونانية «توزيع الحصص» ، وهي عبارة كانت تستعمل للدلالة على القدر او المصير . والكلمة مشتقة من السومرية NAM - ENSI كما يقول جون الليغرو ، وهذه تعني «حامي المصير» . والمصير او القدر بالسومرية NAM + TAR . ويقابلها بالاكدية «شيمتو» (السمة) . و «نامتار» من الالهة المهمة في عالم الموتى عند البابليين ؛ وهووزير العالم الاسفل ، ورسول الربة اريشكيغال .

---

60 - Robert Graves, The greek Myths, 2:206.

61 - Ibid. P. 206.

62 - Ibid.

يقول كلوشكوف : «لقد بذل العلماء جهودا كبيرة للكشف عن المعنى الاولي لكلمة nam . وحاولوا الاستعانة بالرسم الايديوغرامي NAM ، فاتفقت الاراء على ان هذا الرسم يمثل طائرا . اما ما هو هذا الطائر ، وما هي الصلة بينه وبين المصير ، فان أ . هاوثون يرى فيه طيرا منبسط الجناحين وهو على وشك ان يبيض . ويعتقد غومل ان الرسم يمثل طير السنونو ، في حين يرى ج . جلبرست انه طائر مائي ذو رقبة طويلة . وبما ان سكان بلاد الرافدين كانوا يتكهنون بالطيور فقد استخدموا من طريقة طيرانها وسلوكها هذا الرمز للتعبير عن مفهوم (المصير)(٦٣) . وهذا يذكرنا بزجر الطير عند العرب ايضا ؛ فان كان طيرانه عن اليمين تفاءلوا به ، وان كان عن اليسار تطيروا منه (ومن هنا جاءت كلمة التطير : من الطير) .

ولكن ما هو هذا الطائر المائي طويل الرقبة ؟ الا يذكرنا بالبجعة والاوزة في الاسطورة اليونانية عن نيميسيس وزيفس وبيضة الفرات ؟ بل ان جون الليغرو يميل الى الاعتقاد بان كلمة Kuknos اليونانية التي تقال للبجعة ، وتقابلها cycnus باللاتينية ، مشتقة من GUG - NU السومرية ، وتعني «بذرة ـ قرنة» . لان البجعة يقترن اسمها بقرنة الرحم .

وتعني «مناتا» الارامية «نصيب» ايضا . ولا بد ان الالاهة العربية القديمة (مناة) تفيد المعنى نفسه ايضا ، كما يرى ڤلهاوزن . ومن هذه المادة جاءت كلمة «مَنّ» العربية بمعنى انعم ، والمنّة : الاحسان ؛ والمنون ، والمنية : الموت ، والممنون : القوى ؛ الضعيف ؛ واقصى ما عند الرجل .

ومن الابطال المركزيين في الالياذة ، اغاممنون Agamemnon شقيق منيلاوس ، وقائد حملة الآخيين ضد طروادة . ومع ان اسمه اغريقي ، ويعني «حازم جدا» ، الا انه يذكرنا بالالفاظ والاسماء السامية والمصرية القديمة : ممنون ، وآمون ، وامين . وهناك بطل ثانوي ، اثيوبي ، او آشوري ، هو ممنون

---

٦٣ ـ كلوشكوف : الحياة الروحية في بابل ، مترجم عن الروسية .

Memnon ، اشترك في حرب طروادة حليفا للملك پريام . وتقول الاسطورة ان ممنون هو ابن تيثونوس وايوس ، وشقيق ايماثيون Emathion الذي حكم الجزيرة العربية . (ولعل هذا الاخير ، ايماثيون ، يذكرنا بمدينة حماة السورية) . وتقول الاسطورة ان ممنون كان ملك اثيوبيا ، وقاد جيشا من الاثيوبيين الى طروادة لاسناد پريام . وكان «اشد المحاربين وسامة ، ممن ظهروا امام طروادة» . لكنه قتل على يد آخيل . ومن المرجح ان ممنون يمثل معبودا آسيويا قديما . ويزعم انه انشأ مدينة سوسة ، حيث يوجد قبره ، وبنى اسوار بابل . وكان موضع تقديس في مصر : كان له تمثال من الحجر في طيبة ، مجوف ، فيه ثقب خلف فمه المفغور ، يند عنه صوت عند ارتفاع درجة حرارة الشمس في الفجر .

اما هرقل فهو المقابل اليوناني لاكثر من بطل شرقي ، مثل جلجامش السومري - البابلي ، وملك ارض الكنعاني ، ومردوخ البابلي ، وغيرهم . ويتحدث ديودوروس الصقلي عن ثلاثة ابطال تحت اسم هرقل : مصري ، وكريتي ، ويوناني . ويرفع شيشرون هذا الرقم الى ستة . وڤارّو Varro الى اربع واربعين . ويمكن تفسير ذلك بأن المآثر البطولية الخارقة التي تنسبها الشعوب الى ابطالها قد يكون بعضها مستعارا من شعوب اخرى . وهرقل بالذات صار نموذجا للبطل الخارق في كل مكان ، كأن يقال : هذا هرقل الكنعاني ، او المصري ، الخ فهرقل المصري يدعى Som او Chom ، وقد عاش قبل حرب طروادة بعشرة آلاف سنة ، كما يقول ديودوروس الصقلي . وقد ورث اسمياؤه (جمع سميّ) اليونانيون مآثرة . . وعلى العموم كان هرقل الملك المقدس النموذجي لليونان الهلينية المبكرة ، وزوجا لحورية قبلية ، إلاهة - قمرية . ويمكن القول ان القصة الاساسية عن هرقل كانت صيغة اخرى لملحمة جلجامش البابلية التي وصلت اليونان عن طريق فينيقيا ، كما يقول روبرت غريفز (الميثولوجيا الاغريقية ، ج٢ ، ص ٨٨) . فمثلما كان لجلجامش صديقه الحميم انكيدو ، كان لهرقل صديق يدعى ايولوس Iolous . ومثلما ناصبت

الالاهة عشتار جلجامش العداء ، كانت Deianeira ، تناصب هرقل العداء .
وكل من جلجامش وهرقل ينتسب الى اب إلهي . وكلاهما قتلا الاسود وقضيا على الثور السماوي . واستعمل هرقل ، مثل جلجامش ، رداءه شراعا عندما ابحر الى الجزر الغربية . ومثله عثر على عشبة الخلود السحرية . كما اقترن مثله بتقدم الشمس في دائرة البروج(٦٤) .

ويذهب اغلب الباحثين الى ان اسم هرقل Heracles يعني مجد او فخر «هيرا» الالاهة اليونانية (زوجة زيفس) . بيد ان هناك - جوزيف شيبان على سبيل المثال - من يرى ان اسمه قد يكون مشتقا من المقطعين Erek ، و Lies ، اي (اسد ايريك ، او اورورك = الوركاء) ، اي جلجامش . ومما يعزز هذا الرأي ان جده المباشر هو پيرسيوس Perseus ، وجده الابعد هو دانوس ، وينتهي باجينور او خناس ، الاسم اليوناني المقابل لكنعان .

وپيرسيوس هو من اولئك الابطال الذين وضعتهم امهاتهم بعد ولادتهم في سلة او صندوق والقين بهم في الماء ، على نحو ما حصل لموسى ، وقبله سرجون الاكدي ، وهو الذي قطع رأس الميدوزا Medusa ، وانقذ اندروميدا (المرأة المسلسلة : في الفلك) ابنة قيفاوس ، بعد ان تعرضت مملكة هذا الاخير لخطر طوفان ، وهولة بحرية هددت بإفناء المملكة ما لم تلق اندروميدا طعاما لها . وبعد ان انقذها بيرسيوس تزوجها ، وولد له ابن منها يدعى Electryon ، هو جد هرقل . ويروى ايضا ان پيرسيوس كان الجد الاعلى للملكين الآخيين منيلاوس - زوج هيلن الطروادية - واسكالوس مؤسس مدينة عسقلان في فلسطين ،كما تقول الاسطورة .

ولعل قصة اندروميدا تذكرنا ايضا بالاله الاكدي مردوخ ، او سليله بعل . الذي امتطى صهوة جواد وقتل «تعامت» (او تهومة) هولة البحر . ولهذه القصة ما يوازيها في الميثولوجيا العبرية ، في سفر اشعياء ، حيث يمزق يهوه رهبا

---

64 - Robert Graves, The greek Myths, 2: 89.

بالسيف . لكنها في القصة البابلية لم تنقذ على نحو ما جاء في قصة بيرسيوس ، بل قيدها مردوخ بنفسه بعد ان قضى على شبيهتها تعامت الهولة البحرية . وفي قصة الطوفان البابلية كانت هي التي سببت الطوفان ، في حين كانت اندروميدا في القصة اليونانية الضحية التي وقع الاختيار عليها لدرء الطوفان . واندروميدا العارية الا من الجواهر ، والمسلسلة بصخرة ، هي افروديت ، او عشتار ، او استارت ، الاهة البحر الداعرة التي اقيمت لها معابد على طول الساحل الفلسطيني السوري ، وفي طروادة كانت تدعى اسيونة Hesione (= ملكة آسيا) التي انقذها هرقل من هولة بحرية اخرى ، (غريفز ج١ ، ص٢٤٤) .

وقد اقام اليونانيون مستوطنة في خيمس Chemmis (مصر او بلاد حام) في نهاية الالف الثاني ق .م . وماثلوا بين پيرسيوس وحام Chem الذي كان رمزه الهيروغيليفي طائرا مجنحا وقرصا شمسيا ؛ وقد ربط هيرودوتس المؤرخ بين داناية ، ام پيرسيوس ، والغزو الليبي لارغوس على يد الدانيين .

وعندما عاد هرقل من بلاد الامازونيات الى طروادة وجد اسيونة He- sione مقيدة الى صخرة على شاطىء طروادة ، وكانت مثل اندروميدا عارية من كل شيء خلا الحلي . لقد عرضها ابوها لوميدون Laomedon قربانا لهولة البحر الذي هدد بإغراق المدينة . وكان هرقل هو الذي فك قيودها . وبمشورة وحماية الالاهة اثينا بنى الطرواديون سورا عاليا ليحمي هرقل من الهولة البحرية الذي تقدم نحو الشاطىء . ولدن وصوله السور فتح فكيه ، فألقى هرقل بنفسه في داخل فمه مدججا بكامل سلاحه . وامضى ثلاثة ايام في جوف الهولة ، ثم خرج منتصرا بعد ان فقد شعره بالكامل . (الالياذة ٢٠ :١٤٥ - ٨) وهذا ما يذكرنا بالاله البابلي مردوخ ، او ممثله ملك بابل الذي يمضي في عيد رأس السنة فترة انتقال الملكية في صراع مع هولة البحر «تعامت» . وقد امضى النبي يونس ، هو الاخر ، ثلاثة ايام في بطن الحوت . وعلى زهرية اتروسكية يظهر ياسون ، البطل الاسطوري الاغريقي ، بين فكي وحش بحري ايضا . ولابد ان هذه القصص جميعا ترجع الى جذور بابلية .

ونعود الى بيلليروفون الذي جاء ذكره في مستهل هذه الكلمة ، في حديثنا عن صحيفة المتلمس والصحيفة التي حملها بيلليروفون البطل الاسطوري اليوناني الى ملك ليسيا ، ونجد ان اسمه غريب في لفظه على اليونانية . لكنه اذا اخضع للتحليل والاشتقاق ككلمة سامية ، فالغموض سيزول . ذلك اننا اذا جزأنا الاسم الى المقطعين بعل ـ رافون ، فان المعنى سيكون مقبولا ، ويتماشى مع اوصاف البطل . فكلمة (رافون) منحوتة من الجذر السامي « رفأ » ، ويعني « شفى » ، وتقابله كلمة « رفا » العربية . وبعل = إله . فبيلليروفون يعني إله الشفاء . وفي اللغة الاوغاريتية (الكنعانية) ترتبط كلمة رف و ـ ب ع ل باشخاص يطلق عليهم (رف وم) ، وهم يماثلون الرفائيم الفينيقيين ، والعبريين ، اشباح الموتى في العالم السفلي . ومن رف و ـ بعل الكنعاني جاء اسم الملاك رفائيل .

ولابد ان رحلة بيلليروفون مع صحيفته التي تحتوي على رموز كتابية (تذكرنا ـ كاسمه ـ بالكتابة الفينيقية) كانت ابعد من ليسيا ، اي الى الشرق منها . وفي واقع الحال ، وكما اشار مايكل استور في كتابه (ايلينوساميتيكا) ان الالياذة (٤ : ٢٠٠ ـ ٢٠٢) جعلت بيلليروفون يعيش ، في أواخر عمره ، في قيليقيا السفلى ، وهي موطن الدانيين (وهم قوم ساميون) . اما اسم زوجة پرويتوس ، الملك الذي ارسل بيلليروفون الى ملك ليسيا ، فهو انتيا Anteia في الالياذة ، ويذكرنا تماما باسم عناة (عنتيت ، او عنتا) الالاهة الكنعانية . واذا علمنا ان الاسم الثاني لانتيا هو Sthemeboia ، اي (البقرة الجبارة) ، فان هذا يأتي تأكيدا للجذر السامي لاسم انتيا ، لان عناة كانت تلقب ايضا بالبقرة الجبارة .

وفيما يلي نذكر بعض نقاط الالتقاء الاخرى بين ملحمتي هوميروس وآدابنا القديمة :

- ان قدسية الملوك كانت تستمد قوتها من اعتبارهم ابناء الالهة . لقد كان « كارت » ، الملك الكنعاني ، ابن « إيل » الاله الاكبر ، وكذلك كان ساربيدون الاغريقي ابن زيفس (الالياذة ١٦ : ٥٢٢) .

وفـي مصـر كـان كـل فـرعون تجـسيـدا لحـورس ، وقد رضـع من صـدر ايـزيـس . وفـي اوغاريـت الـكـنعـانـيـة ايضـا ، عـنـدمـا يـعـتلي الامـراء عـرش الملكيـة يقال انهـم رضعوا من صدر الالاهة اشيرة او الالاهة عناة . وهناك اشارات في الالياذة (٢ : ٤٤٥ ، ١٤ : ٢٧ ؛ ١٧ : ٦٨٥ ؛ الخ) الى مثل هذا الـشيء ، اي الى ان الملوك انما يتمتعون بقدسية - في ملكهم - لانـهم رضعوا من صدور الالاهات(٦٥) .

- وكـان الالـهـة يـشـتـركـون في الحروب مثـل البـشـر ، على نحـو ما جاء في الالياذة ، وهـذا يـذكـرنـا بـآلهة اوغاريـت الـكـنعـانـيـة ايضا . كانت الالاهة «عناة» المتعطشة للحرب لا تتردد في قذف خصومها وضحاياها بأدوات الاثـاث ، كـالـكـراسـي ، والموائـد ، وكـراسـي القـدمـين . ان رمي كـراسـي القدمين في حوادث الشجار ظاهرة متكررة في الاوديسة (١٧ : ٢٣٠ - ٢ ، ١٩-٤٠٩ ، ٤٦٢ ؛ ١٨ : ٣٩٤)(٦٦) .
- غالبا ما يـشـار في الاعمـال الادبيـة الـكلاسيـكـيـة ، كـالإلـيـاذة والاوديـسة وغيـرهـمـا ، الـى ان المـلـك هو راعـي الـشـعـب ، مـثـل «اغـامـمـنـون راعـي الـشـعـب» ، و «راعـي الـشـعـب آخيـل» ، و «بـاريـس راعـي طـروادة» . وكذلك كان فراعنة مصر رعاة لـشعوبهم . وكـان جلجامش ايضا راعيا لمدينة اوروك ولشعبه . جاء في الملحمة :

  وهو الراعي لاوروك المنيعة

  هو راعينا القوي الوسيم الحكيم
- في الباب الحادي عشر في الاوديسة يروي اوديسيوس قصة لقائه بالموتى ، رفاقه الذين صُرعوا في حرب طروادة ، وغيرهم ، بعد ان وصل ابعد حد للاوقيانوس ، حيث يسكن السيماريون المحاطون بالضباب والغمام ، ولا

---

65 - Cyrus H. Gordon, Homer and the Bible, P. 65 - 6.

66 - Ibid. P. 83.

تقع عليهم الشمس . وهناك حفر حفرة اراق فيها عسلاً ولبناً ونبيذاً وماءً ، وذرّ فوق ذلك شعيرا ابيض . ثم ذبح خرافا حتى سالت دماؤها في الحفرة . عند ذاك اجتمع ، إلى المكان ابناء الموتى ، تجمعوا حول الحفرة ، وهم يصرخون صراخا مروعا...

وهذا يذكرنا تماما تقريبا بما فعله جلجامش في اللوح الثاني عشر من الملحمة ، في نصها السومري ، عندما التقى بشبح انكيدو في العالم الاسفل ، بعد ان طلب من نرجال زوج اريشكيغال إلاهة العالم الاسفل ان يفتح ثقبا في العالم الاسفل ، في قوله :

« نرجال ايها البطل المحارب ، يا ابن بيليت ـ ايلي ،
افتح الآن ثقبا في العالم الاسفل
تتسلل منه روح انكيدو من العالم الاسفل... »(٦٧)

- ان الفكرة القائمة على ان إلهاً (بوسيدون) شيّد السور العريض والمنيع لمدينة طروادة (الالياذة ٢١ : ٤٤٦ ـ ٧) تذكرنا بملحمة جلجامش (١ : ١ وما بعده ؛ النهاية) حيث شيد الحكماء السبعة اسوار اوروك .
- كان الشعر الطويل يقترن بالقوة والبطولة . وفي ملحمة جلجامش اشارة واضحة الى ان انكيدو كان له شعر طويل كالنساء ؛ وينعكس هذا في النقوش التي تصوره . وكان شعر جلجامش طويلا ايضا ، وان لم يكن مثل شعر انكيدو . كان يعقصه الى الجانبين كضفيرتين . وتعزو الالياذة (٢٠ : ٣٩) قوة الاله فوبس Phoebus القتالية الى خصل شعره غير المقصوصة . وكان للمقاتل يوفوربس Euphorbus شعر كشعر إلاهات الحسن الثلاث بغدائر مضفورة بالفضة والذهب (الالياذة ١٧ : ٥١ ـ ٥٢) . وكان المقاتلون الآخيون يُنعتون بذوي الشعور الطويلة . وهذا يذكرنا بشعور الكريتيين الطويلة التي تنسدل على جانبي الاذن(٦٨) .

---

٦٧ ـ نقلت كلمات جلجامش عن فراس السواح ، قراءة في ملحمة جلجامش ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ . منشورات سومر ، نيقوسيا ـ قبرص ١٩٨٧ .

68 - Cyrus H. Gordon, Homer and the Bible,P. 85.

● وغالبا ما تشير الالياذة الى ان القُواد كانوا يضطرون الى رفع معنويات المقاتلين عن طريق التوبيخ ، او الاقناع ، او الارغام ، او النصح . ولم يتورع المقاتلون عن البكاء والعويل احيانا . (الالياذة ٢ : ٢٨٩ ـ ٩٠) تشير الى ان المقاتلين الآخيين كانوا ينتحبون كالاطفال او الارامل حنينا الى الوطن . وتروى الاوديسة (١٠ : ٤١٠ ـ ٥) ان اوديسيوس عندما عاد الى سفينته تحلق حوله رفاقه ينتحبون كالعجول التي كانت تخور وراء امهاتها . قارن ذلك بالملحمة الاوغاريتية (١٢٨ : ١ : ٥ ـ ٧) وكيف ان الجنود كانوا يبكون حنينا الى امهاتهم كالبقر التى تخور على عجلها(٦٩) .

● تتطرق الالياذة (٢٤ : ٦٦٣ ـ ٤) الى انه في فترة الحصار اصبح من العسير على المدافعين الاحتطاب من المنطقة المحيطة بهم . وقد اقتضى الحال عقد هدنة بين الآخيين والطرواديين لجمع الحطب ودفن جثة هكتور . ان التوقف من اجل جمع الحطب في اثناء الحصار لم يكن اجتراحا اغريقيا في الالياذة ، بل تطرقت اليه ملحمة كارت الاوغاريتية (كارت : ١١٠ ـ ٢ ، ٢١٢ ـ ٥)(٧٠) .

● وكان الابسو Apsu عند البابليين والآشوريين تجسيدا (إلها مجسدا) للمياه البدئية العذبة ، ويحيط بالارض ؛ وهو مصدر كل المياه العذبة على الارض . وفي الاساطير الاكدية المبكرة ، كان الأبسو إلاهة مؤنثة ، وفيما بعد اصبح إلهاً ذكرا ، هو زوج تعامت ، واب الآلهة الاخرين .

وعلى غراره كان اوقيانوس عند هوميروس ، وفي الميثولوجيا اليونانية ، إلها مجسدا يمثل المياه العذبة ، ويحيط بالارض ، ومنه تنبع كل الانهار والينابيع .

● بعض العبارات الهوميرية الجاهزة (بما فيها تلك التي تصف القتال) . هي صدى لمثيلات لها من التعابير الشرقية القديمة . على سبيل المثال : «ضربه على

69 - Ibid. P. 85 - 6. 70 - Ibid. P. 88.

رأسه ، فوق الاذن » (الالياذة ١٥ : ٤٣٣) تذكرنا بالعبارة الاوغاريتية الكنعانية : « ضربه مرتين على الرأس ، بل ثلاثاً فوق الاذن » (٣ ملحمة اقهات : ٣٣ ـ ٣٤) . وجاء في الالياذة (٦ : ١١٠) : « غير ان هكتور رفع صوته وهتف مخاطبا الدانيين » . وهذا يذكرنابالحديث المباشر في الاوغاريتية ، وغالبا ما يستهل بعبارة : « رفع صوته وهتف قائلا »(٧١) .

وكلمة (drop) الهوميرية (الالياذة ١٩ : ٢٠٨) وتعني : « طعام ، وجبة طعام » ، لا يوجد لها جذر هندي اوروبي ـ حثي . لكنها تذكرنا بمادة (drp) المصرية ، وتعني : « يُطعم ، يقدم طعاما » . ولانها ترقى الى المصرية القديمة في الالف الثالث ق .م . ، فالظاهر انها انتقلت من مصر الى اليونان عن طريق البحر المتوسط(٧٢) .

- ومعلوم ان اليوم الذي التقى فيه اوديسيوس بزوجته پنيلوپي كان اليوم نفسه الذي تطابقت فيه دورة الشمس مع دورة القمر . ويدعى هذا اليوم عند الفلكيين يوم التقاء الشمس والقمر ؛ ويتم في دورة عدتها عشرون عاما . ومما هو جدير بالذكر ان العدد الذي نسبه البابليون للشمس هو عشرون ، وهو العدد نفسه الذي نسبوه للملك ايضا .

وبعد ، من هو هوميروس ؟

هناك عدة سير عن حياة هذا الشاعر العظيم ، نشرت ثمان منها في مجلد اوكسفورد ، اطولها وافضلها تلك التي كتبت بالاغريقية الايونية تحت اسم هيرودتس . ويُروى ان كالينوس Callinus اشار في اوائل القرن السابع ق .م . الى ملحمة ، مفقودة الان ، لهوميروس بعنوان Thebais (طيبة ، في مصر) . وذكر هيرودوتس (٥ : ٦٧) ان كليستينيس Cleisthenes طاغية سيكيون Sicyon امر في اوائل القرن السادس ق .م . بعدم نشر الاشعار الهوميرية التي

---

71 - Ibid . 72 - Ibid. P.60.

تمجد آرغوس Argos واهاليها (وارغوس من المدن التي انشئت قبل مجيء اليونانيين الهنود الاوروبيين) . وبالفعل ان الالياذة والاوديسة لا تتغنيان بذكر الارغوسيين على نحو خاص ، الا ان كلمة الارغوسيين ترد كمعادل للاغريق بصورة عامة .

وتجدر الاشارة الى انه في الوقت الذي يعتبر الشعر الهوميري حقيقة لا ريب فيها ، فان مؤلف هذا الشعر شخص افتراضي ليس الا . والمتعارف عن هذا الشخص انه شاعر ذو هالة ، واعمى ، وشيخ فقير ، وكان يتنقل من مدينة الى اخرى . وتكاد تجمع الاراء على ان موطنه هو مقاطعة ايونيا Ionia ، على الساحل الغربي من آسيا الصغرى ، او احدى جزر ايجة الشرقية . وهناك سبع مدن تدعي انتساب هذا الشاعر العظيم اليها ، هي Smirna, Chios, Col-ophon, Salamis, Rodos, Argos, Athenae وقد تتغير بعض اسماء هذه المدن ، كأن تذكر : اسبارطة ، ومصر ، وبابل . ويمكن اطراح بعضها لسبب واضح . فمصر وبابل تقترنان بالهالة المرسومةعن هوميروس « كحكيم » كلي المعرفة ، ذي إلمام واسع بعلوم الشرق . لكن سميرنا ، وخيوس ، ترجحان على بقية الاماكن (عن الموسوعة البريطانية تحت مادة Homer) .

ولقد تعرضت الالياذة والادويسة لعملية تلاعب قبل ان تستقرا على صيغتهما النهائية الحالية ، كما يقول روبرت غريفز . وفي القرن السادس ق .م . ظهرت قراءات غير موثوقة تلاعبت بالنص ، فأمر Peisistratus ، طاغية اثينا ، باجراء تنقيح رسمي للملحمتين ، وعهد بهذه المهمة الى اربعة من الشُراح البارزين . وقد نفذوا المهمة كما ينبغي ، بيد ان خصومPeisistratus اتهموه بتحريف واقحام مقاطع لاغراض سياسية . على سبيل المثال ان طيبة Thebes ، وايجينا Aegina ، ومغارة Megara حذفت من قائمة تعداد السفن المشاركة في حرب طروادة ؛ وحُجّم دور سلامس Salamis ، كما قلص دور كورنث Corinth . وهي مدن تشهد الفاظها على عراقتها وقدمها السابق للوجود اليوناني ، وترجع معظمها الى جذور سامية . وقد لعبت اثينا وحدها

دورا في هذا التعسف . ثم ان قراءة متأنية للالياذة والاوديسة تترك انطباعا بان مواضيعها لا تمت الى مرحلة زمنية محددة . بل ان بعضها يرقى الى زمن سابق لحرب طروادة ، والبعض الاخر متأخر عنها . وان هناك «انتحالات» تنسب الى ابطال لاحقين انتحلت من آخرين سبقوهم . على سبيل المثال إن بطولات دايوميديس Diomedes في الالياذة استعير بعضها من مآثر ابيه تيديوس Ty-deus في ملحمة Thebais (طيبة ، المصرية) ، وان هكتور نفسه - الطروادي ابن الملك پريام - الذي اشير الى وجود قبره في طيبة Thebes (اليونانية) ، كان بالاصل مدافعا عن طيبة ، وليس طروادة على نحو ما جاء في الالياذة . (ينظر بهذا الموسوعة البريطانية) .

اما هوميروس فليس هناك رأي قاطع حول اشتقاق اسمه . فمنهم من يذهب الى ان كلمة Homeros تعني «رهينة» او «مرافق» (بمعنى من يقوده مرافق) ، ومنهم من يرى انها تعني «اعمى» . وكان بروكلس Proclus من انصار هذا الرأي الاخير ، فهو يرى ان كلمة Homermos تعني اعمى اكثر منها رهينة التي كانت تعتبر التفسير المتعارف عليه لإسمه ، ذلك ان الشعر كان موهبة طبيعية عند العميان ، اي ان العمى والالهام يقترنان سوية .

وجاء في الجزء الاولى من كتاب (اثينا السوداء) لمارتن برنال : «ان لقب هوميروس (الشاعر) يمكن ان يكون له صلة بالاشتقاق المعقول هـ م ي ر ، وتعني «تهجٍّ ، نطق» . وفي موضع آخر يقول مارتن برنال : «لا شك ان هوميروس كان ينظر اليه في القديم كشاعر شفوي ، وهذا العرف يعززه الاشتقاق المصري لاسمه الذي يبدو ارجح من غيره ، او الكلمة العامة التي تطلق على الشاعر ، (المشتقة) من فن النطق» . (ج١ ، ص٤٨٧) .

وفي ضوء الاشارة الى ورود اسم بابل كموطن محتمل لهوميروس ، حتى وان كان ضعيفا ، نرى ان هناك ما يشجعنا على طرح الاحتمال البابلي كجذر لاسمه ايضا . فالكمة البابلية التي تطلق على الاعمى هي خاميرو Khameru ، وهي من الجذر السامي (ع ور) الذي يفيد معنى العمى في جميع اللغات

السامية عدا العربية التي ذهبت الى معنى كريم العين ، اي الاعور ، لكنها اضافت ميما الى الجذر ، كالاكدية البابلية ، لتفيد معني العمى . فالاعمى بالارامية عويرا ، وبالعبرية عور ، وبالحبشية عر . ونحن نرى والحالة هذه ان الكلمة البابلية تصلح ان تكون صيغة مرشحة لاسم هوميروس ، وذلك في ضوء الغموض الذي يكتنف ليس فقط اسمه ، بل هويته ايضا .

كما تجدر الاشارة ايضا الى ان هوميروس كان متعاطفا في الياذته مع الطرواديين (غرب الاناضول) ، ونعتهم بكل النعوت الخيّرة . اما الآخيون او اليونانيون القادمون من البر اليوناني فلم يتردد في ان يلصق بهم نعوتا غير مشرفة ، ربما باستثناء آخيل الذي يعتبر حضوره في حرب طروادة اقحاما عليه ، لانه بطل اسطوري يمتّ الى مرحلة اقدم من المرحلة التي دارت فيها رحى الحرب الطروادية ، وله جذور شرقية (فينيقية) . . . وينبغي ان لا يغرب عن بالنا ايضا ان الاناضول - بما في ذلك طروادة - شهدت حضورا ساميا قبل تدفق الاقوام الهندية - الاوروبية اليها ، وربما في اثناء ذلك ايضا .

اما كلمة الياذة Iliad فمشتقة من Ilias اليونانية ، وهي اختصار لـ : Ilias poiesis « قصيدة عن ايلياس او ايليون Ilion او Iliom » ، والمقصود بها مدينة إيلوس Ilos ابن تروس Tros مؤسس طروادة Troia ، او Troad التي اطلق عليها الاسم الشاعري ايليوم Ilium . وهذه اللفظة الاخيرة ، وكذلك il-eum يفترض انهما منحوتتان من اللاتينية ، من كلمة ile المشتقة من كلمة ilia وتعني « خاصرة ، اربية = اصل الفخذ » . ولا شك انها تذكرنا بكلمة « إلية » السامية ، وتقال لذنب الخروف..هذا ما جاء في المعاجم الغربية ؛ والظاهر ان هذه المعاجم تحاول تجنب ذكر كلمة (إيل) التي تطلق على الاله في اللغات السامية . فالالياذة منحوتة من كلمة (إيل) على ما يبدو . وان هذا من شأنه ان يلقي مزيدا من الضوء على ماضي طروادة الاقدم ، الذي قد يكون ساميا هو الآخر .

---

73 - Robert Graves, The greek Myths, V.2 P.311.

بحثا عن هوية اوديسيوس الاغريقي

لابـد من الاشارة ، مرة اخرى ، الى ان الالياذة والاديسة ملحمتان يونانيتان لغة ونظما وموضوعا . ولا يرقى الشك بأي شكل من الاشكال الى عائديتهما اليونانية . وكلمتنا هذه ، في البحث عن هوية اوديسيوس ، لا تدخل الا في باب الجزئيات التفصيلية التي لا تغير من هذه الحقيقة شيئا . سوى انها قد تلقي بعض الضوء على المؤشرات الشرق اوسطية في هاتين الملحمتين ، وذلك بحكم احتكاك اليونان بحضارات المنطقة ، وتفاعلها معها ، اخذا وعطاء .

سبق لنا ان تطرقنا في كلمتنا « نحن وهوميروس » الى الجذور المصرية القديمة لرحلات البحر السابقة لرحلة اوديسيوس ، كرحلة وين آمون (في القرن الحادي عشر ق .م .) الى ميناء جبيل اللبناني ، وقصة « البحّار الذي غرقت سفينته » على شاطىء جزيرة سحرية في البحر الاحمر لكنه يعود الى وطنه بعد سلسلة من المغامرات ، وقصة سنوحي الذي سافر بحرا الى بلاد الشام ثم عاد الى وطنه بعد سنوات . اما الاوديسة فتروي قصة احد ابطال حرب طروادة ، هواوديسيوس الذي عاد منها بعد ان شارك في غزوها ، وتاه في الطريق ، ولقي الاهوال ، الى ان كتبت له النجاة اخيرا والعودة الى وطنه ايثاكا ، وهي جزيرة تقع الى الغرب من اليونان .

واديسيوس من الابطال الذين يكتنفهم شيء من الغموض كبطل اسطوري ، حتى في الالياذة ، قبل ان تكرس له ملحمة الاوديسة . ولعل البحث عن جذر اسمه يلقي بعض الضوء على هويته . وثمة ما قد يدعو للاعتقاد بأن اصل اسمه مصري او سامي .

من الجدير بالملاحظة ان هوميروس وصف غزوة عنيفة ودموية شنها الآخيون ـ اليونانيون ـ على مصر بعد حرب طروادة التي دارت رحاها بين ١٢٤٠ ـ ١٢٣٠ق .م . وتتفق افادة اوديسيوس بأن رفاقه الذين هزمهم المصريون «اقتيدوا الى مدينتهم ـ اي مدينة المصريين ـ احياء ليعملوا بالسخرة» ، مع ادعاء الفرعون المصري مرنبتاح بأنه سحق الغزاة . اما اوديسيوس نفسه فعومل بطريقة مختلفة تماما : «ثم عدوت نحو عربة الملك واحتضنت ركبتيه وقبلتهما . فأشفق عليّ وانقذ حياتي ، واجلسني بجانبه ، وهكذا مضى بأسيره المنتحب الى قصره . وبالطبع كان العديد من ابناء شعبه يتحرقون الى دمي ، فصوبوا اليّ رماحهم المنجورة من خشب الدردار ، لانهم كانوا في هياج تام ضدي ، لكنه ابعدهم عني ، خوفا من الاساءة لزيفس إله الغريب . . . ثم امضيت هناك سبع سنوات وجمعت ثروة كبيرة من المصريين» (الاوديسة ، الكتاب الرابع عشر : ٢٧٥ ـ ٢٨٦) .

ومن المعروف ان مصر في تلك الفترة تعرضت لتحرشات ممن اطلقت عليهم تسمية اقوام البحر الذين كان من بينهم يونانيون واتروسيكون وفلستينيون وغيرهم . يقول مارتن برنال بهذا الصدد : «ان كذبة اوديسيوس هنا عند روايته هذه القصة جديرة بالاهتمام ، لانها تعني ان هوميروس كان يؤمن على الاقل بان تجربة كهذه ممكنة» .(عن كتاب : اثينا السوداء ، ج٢ ص ٤٥٨) .

وفي ضوء ذلك يحاول مارتن برنال تفسير اسم اوديسيوس Odysseus على انه يعني «الرحالة» باشتقاقه من المصرية القديمة : وذ (ي ت) و ، المشتقة من كلمة (و ذ ي ت) . وتعني : حملة ، رحلة ، حملة عسكرية . لكننا سنطرح احتمالا اخر لاشتقاق اسمه ، بعد ان نتطرق الى الاسم الاخر الذي

عرف بـه اوديسيوس ، ونعني بـه اوليسيوس Olysseus ، وهو الاسم الذي اختاره جيمس جويس لروايته الشهيرة « يوليسيس » .

لدى عودة اوديسيوس الى منزله متنكرا بهيئة متسول ، تحرزا من خاطبي زوجته الذين اقاموا في منزله طوال مدة غيبته ، استقبلته مربيته العجوز يوريكليا . وعندما غسلت قدميه ، على جري عادة القدماء ، لمست الندبة القديمة التي ذكّرتها باوديسيوس ، فروت قصتها يوم كان اوديسيوس شابا يافعا وزاره جد لامه اوتوليكوس وشارك في عملية صيد خنزير بري على سفح جبل البرناس ، فانقض الخنزير على اوديسيوس وجرحه ، لكن اوديسيوس افلح في القضاء عليه .

يقول اوستن : «ان الندبة وسيلة للتطرق الى الموضوع الحقيقي ، الذي يحوم حول اسم اوديسيوس وهويته» . فالكلمة اليونانية التي تقال للندبة هي Oule . ومن بين اسماء اوديسيوس الاخرى (لم ترد عند هوميروس بل قبله) اوليسيوس Olysseus واوليتيوس Olytteus . . وهذا هو التفسير الذي يعطى لاسمه الاول .

لكننا نعود الى اسمه الوارد في ملحمتي هوميروس ، ونعني به اوديسيوس . يوم ولد اوديسيوس ، وجاء جده اوتوليكوس الى ايثاكا لتسمية الوليد ، وضعت مربيته يوريكليا الرضيع في حضن الجد وطلبت منه ان يختار اسما لحفيده ، فقال : « صهري وابنتي يختاران الاسم الذي اقترحه ، ولانني جئت الى هنا كلعنة (وباليونانية odyssamenos) لكثيرين من الرجال والنساء على الارض الوافرة الغذاء ، فليكن اسمه اوديسيوس» .

يفهم من هذا ان اسم اوديسيوس اشتق من الفعل odysasthai الذي يعني «ان يتخذ موقفا مناوئا لاحد» . وتتضمن الكلمة عددا من المعاني ، من بينها : غاضب ، كاره لاحد ، مناكد ، مكدّر ، مضايق» . يقول ستانفورد في «الاشتقاق الهوميري لاسم اوديسيوس» :«ان معنى الاسم ربما كان واسعا الى درجة انه يشمل اما الغضب او الكراهية» ، وتقول جيني شتراوس كلاي في

كتابها «غضب اثينا» : «في الاوديسة نجد ان odysasthai تفيد معنى السخط الالهي ، او على وجه التخصيص غضب الالهة على اوديسيوس» . وتستشهد بقول اثينا عندما خاطبت زيفس في دفاعها عن اوديسيوس : «لماذا انت غاضب عليه الى هذه الدرجة ؟» مستعملة كلمة odesao «حانق» .

وهذه تذكرنا بالكلمة المصرية القديمة «أد» ومثلها «أت» وكلاهما تفيدان معنى : حانق ، او مغتاظ ، او معتد . وتقابلها بالسامية كلمة (عدى) على ما نرى ، ومنها (اعتدى) ، ومنها العدو ، والعداء ، والعداوة .

ولا تسعفنا المعاجم الاوروبية كثيرا حول اصل اسم اوديسيوس . ففي قاموس ارنست كلاين الاشتقاقي جاء ان اوديسيوس من اصل غامض ، ولعله يرجع الى كلمة odessasoai اليونانية ، وتعني (مدعاة للحزن ، مدعاة للغضب) ، وتقترن بالكلمة اللاتينية odi ، ومثلها odisse (يكره) . وها نحن نعود الى الجذر السامي - الحامي : عدا ، او اعتدى .

واوديسيوس لا ينتمي الى طائفة الابطال الميثولوجيين اليونايين الاقحاح ، مع ان هوميروس كان يصنفه من بين ذوي الشعر الاشقر ، وان كانت الكلمة او الصفة التي استعملها ، وهي xanthos ، لا تعني «اصفر فاقع» او اشقر بالمعنى الضيق للكلمة ، بل ذهبي ، او اصخر (اسمر محمر) . او اسمر فاتح ، كما يقول Burn .

ووُصف اخرون في الالياذة بالشقرة ، مثل رادامانتيس ، وبوسيدون ، الخ ، مع انهم من جنس البحر المتوسط . وهناك اكثر من قرينة تومىء الى جذور ليست يونانية عريقة لاوديسيوس ، من بينها انه كان ابن سيزيف ، استنادا الى احدى الروايات . وقد تطرقنا في كلمة اخرى الى الجذور الكنعانية لاسم سيزيف وهويته . وفضلا عن ايثاكا الجزيرة التي ينتمي اليها اوديسيوس ، تذكر بلدة ايفيرا Ephyra التي تقترن بسيزيف ايضا ، واسمها سامي من مادة (عفر= تراب) . جاء في الاوديسة (١ : ٢٥٤ - ٢٥٩) : «ترك اوديسيوس ايفيرا بعد زيارته ايلوس بن مرمروس» . وفي هذه المدينة - الكنعانية الاسم -

كان يعيش سيزيف وابنه غلوكوس ، وحفيده بيلليروفون . وهؤلاء كلهم يحملون اسماء سامية ، وكذلك ايلوس ومرمرموس (ايلوس من ايل ، اللفظة التي تقال للاله عند الساميين ، ومرمر هو الاله القومي لمملكة خانا في اواسط الفرات ، لا سيما عاصمتها ماري قرب دير الزور) . وتتحدث الالياذة باستفاضة عن خوذة اوديسيوس وتأريخها والاشخاص الذين انتقلت منهم اليه ، حيث نعلم ان اوديسيوس سرق هذه الخوذة من امينتور والد فينقس . وفينقس هو ابو الفينيقيين حسب المأثورات اليونانية .

وفي الفصل المكرس للقاء اوديسيوس مع كيركة ، في الاوديسة ، نلمس مؤثرات رافدينية بوضوح ، مستوحاة من ملحمة جلجامش ، لاسيما اللوح السادس . وكيركة (يعني اسمها : طائر الكركي) ، هي الالاهة التي تمسخ البشر ، بمن فيهم احباؤها ، الى حيوانات . ولقاء اوديسيوس بها يذكرنا بلقاء جلجامش وانكيدو (رفيقه) بعشتار بعد ان قتلا الوحش خمبابا . ومثلما طلبت عشتار من جلجامش ان تصبح زوجته ، تقترح كيركة على اوديسيوس ان يصبح عشيرها . وقبل ذلك كانت كيركة قد مسخت رجاله الى خنازير ، وآخرين الى اسود وذئاب . واذا كان اوديسيوس استجاب لالتماس كيركة ، منفذا بذلك نصيحة هرمس ، فقد رفض جلجامش طلب عشتار وراح يذكرها بتصرفاتها الغادرة مع محبيها السابقين ، وهم تموز حبيب شبابها ، واحباؤها الثلاثة من الحيوانات : طير الالالو الذي كسرت جناحيه ، والاسد والحصان . واهم من ذلك انها احبت راعيا وبستانيا ثم مسختهما الى حيوانين . وانتقلت فكرة «سيدة الحيوانات» هذه الى الاناضول ، ومنها الى اليونان .

وبعد ان يبقى اوديسيوس سنة مع كيركة في جزيرتها ، يطلب الاذن منها للعودة الى وطنه في جزيرة ايثاكا ، فتنصحه بالذهاب الى العالم الاسفل - عالم الاموات - ليلقى هنا تيرسياس الحكيم ليرسم له طريق العودة . وهنا ايضا نجد متوازيات مع ملحمة جلجامش . في الاوديسة تصف كيركة لاوديسيوس طريقة الوصول الى العالم السفلي في قولها : «هناك نهر النار اللاهبة ونهر المناحة ،

وهو فرع من مياه الجحيم (ستكس) ، يلتقيان حول قمة صخرة ليصبا حممهما الراعدة في اخيرون (نهر الرعب) . هذه هي البقعة ، ياسيدي ، التي ادعوك للذهاب اليها . حتى اذا وصلت اليها ، احفر حفرة طولها ذراع وعرضها ذراع . . . » وتنصحه باراقة عسل ونبيذ وماء حول الحفرة ، وذر شعير ابيض فوق ذلك ، وذبح خروف تسيل دماؤه في الحفرة . وفي اللوح الثاني عشر من ملحمة جلجامش ، في نصها السومري ، يطلب جلجامش من نرغال زوج اريشكيغال الاهة العالم الاسفل ان يفتح ثقبا الى العالم الاسفل ليلتقي جلجامش برفيقه انكيدو الذي غيّبه الردى . قال جلجامش :

« نرغال ، ايها البطل المحارب ، يا ابن بيليت ـ ايلي .
افتح الان ثقبا في العالم الاسفل
تتسلل منه روح انكيدو من العالم الاسفل » .

ويرى الباحثون ان وجود ترجمة لاجزاء من ملحمة جلجامش السومرية ـ الاكدية ، باللغة الحثية ـ الاناضولية ـ يدعو للاعتقاد بان القصة وصلت الى الساحل الايوني لليونان قبل حرب طروادة .

وهكذا فان مثل هذه المتوازيات تقدم لنا ادلة لا يرقى اليها الشك على وجود روابط بين اليونان وجيرانها ، كما يقول غريغوري كرين . ويبقى اوديسيوس واخرون عديدون من الاسماء الميثولوجية الاغريقية ، بحاجة الى مزيد من الدراسة في ضوء هذه العلاقة بين اليونان وجيرانها .

اي طروادة بين طبقات المدن التسع هي طروادة هوميروس؟

عرف التأريخ تسع طروادات ، الواحدة فوق الاخرى ، في موقع واحد ، في اقصى الشمال الغربي من تركيا الاسيوية على مقربة من الدردنيل ، اندثرت كلها تحت التراب منذ زمن بعيد . سبع طبقات منها ترقى الى العصر البرونزي ، واثنتان ترقيان الى العصر الحديدي . استوطنت هذه الطروادات التسع اقوام من اجناس شتى ، ربما كان من بين طلائعهم ساميون (كنعانيون ؟) .

وكانت طروادة هوميروس الذي خلد ذكرها في الياذته الشهيرة هي السابعة من بين هذه الطروادات ، ولم تكتشف الا في الثلث الاخير من القرن الماضي ، وهو القرن الذي تحققت فيه انجازات مهمة في علم الآثار ، مثل فك رموز اللغتين الهيروغليفية والسومرية ، واكتشاف الآثار الآشورية واليونانية ، الخ . . . اما آثار اطروادة فاكتشفها حالم الماني لم تكن له دراية بعلم الاثار ، ، يدعى هاينريخ شليمان .

مارس شليمان منذ صباه اعمالا عدة بينها مساعد بقال ، ثم وجد عملا في باخرة تجارية تنقل البضائع بين هامبورغ وفنزويلا . لكن الباخرة غرقت على مسافة قصيرة من الشاطىء الهولندي . وبعد ان امضى تسع ساعات في زورق

مكشوف تحت رحمة العواصف ، قذفت به الامواج ، وبزملائه الثمانية ، الى مخاضة قرب جزيرة تيكسل . وبمعونة القنصل البروسي عثر على عمل لدى تاجر من امستردام . . . وسرعان ما ابتسم له الحظ واصبح تاجرا ناجحا . وفي الرابعة والعشرين تعلم اللغة الروسية ، وعمل في بطرسبورغ . وظل يكدس الاموال ويتنقل من عاصمة الى اخرى : بطرسبورغ ، برلين ، باريس ، لندن . وفي الثالثة والثلاثية اتقن خمس عشرة لغة ، بما فيها اليونانية ، واللاتينية . واصبح في وسعه قراءة ملحمتي هوميروس ، الالياذة والاوديسة ، باللغة الاصلية . ثم زار القاهرة في عام ١٨٥٨ ، وقطع الطريق الصحراوي الى القدس ، وزار البتراء في الاردن ، وتعلم اللغة العربية .

في عام ١٨٦٨ قام شليمان بزيارته الاولى لليونان ، وحط رحاله في جزيرة ايثاكا ، موطن اوديسيوس بطل الاوديسة . هناك زار ما يدعى بقلعة اوديسيوس ، واستأجر عمالا لينقبوا عن آثار «اوديسيوس» ؛ فعثروا على آنية تحتوي على رماد بشري مع بعض التماثيل الطينية الصغيرة . وظن شليمان انه عثر على رماد اوديسيوس وزوجته پنيلوپ . ومن ايثاكا انتقل الى البر اليوناني ، ومنه الى «موقع» طروادة التقريبي في اقصى الشمال الغربي من تركيا ، كما ذكرنا . ولم يكن موقع طروادة معروفا بالضبط يومذاك . كان هناك خلاف حول موقعين ذهبت الآراء الى اعتبارهما مستوطنة طروادة القديمة ، هما بونار باشي ، وهيسارلك . واستند المؤرخون في تحديد موقع طروادة التقريبي الى ما جاء في الكتاب الثاني والعشرين من الالياذة :

«بعد اجتياز نقطة المراقبة وشجرة التين القائمة في مهب الريح ، غذوا السير في محاذاة طريق العربات ، مبتعدين قليلا عن السور ، حتى وصلوا النبعين الآسرين اللذين يتزود منهما نهر سكاماندر . من احدهما يأتي الماء ساخنا ، يتصاعد البخار منه وينعقد فوقه مثل الدخان المتصاعد من نار متأججة . اما الاخر ، فيتدفق الى اعلى ، حتى في الصيف باردا كالبَرَد او الثلج المتجمد او الصقيع . . .» (الالياذة ١٤٧ ـ ١٥٦ من الكتاب الثاني والعشرين) .

هذان « النبعان الآسران » اللذان جاء وصفهما بهذه الدقة في الالياذة حيّرا زوار طروادة في القرن التاسع عشر قبل شليمان بسنين . بل ان سكان تلك المنطقة اعتادوا مشاهدة رجال علم اوروبيين يفدون الى هذا المكان منذ القرن الثامن عشر ، يغطسون محاريرهم في ينابيع التل بأمل العثور على النبعين اللذين ورد وصفهما في ملحمة هوميروس ، من دون ان يحظوا بطائل . والمكان الوحيد الذي يوجد فيه نبعان متفاوتان في درجتي حرارتهيما هو قرية بونار باشي ، وحتى هناك لم يكن الفرق بين حرارتيهما سوى بضع درجات . ومع هذا تواضع الناس يومذاك على اعتبار هذه القرية ، وتل بالي داغ الصخري خلفها موقع طروادة هوميروس .

وكان هناك موقع اخر مرشحا ايضا ، هو تل هيسارلك ، الاقرب الى شاطىء البحر . ومنذ عام ١٨٢٠ اصبح موضع اهتمام عدد من العلماء ، وان كان اقل جمالا بكثير من مشهد بالي داغ ، كما لم يكن ثمة اثر للنبعين ، البارد والحار فيه . لكن شليمان راهن على هيسارلك لانها كانت اقرب الى شاطى البحر من بونار باشي .

كانت هيسارلك تبعد اقل بقليل من ثلاثة اميال عن الشاطىء ، في حين تقع بونار باشيء على بعد ثمانية اميال على البحر .

عام ١٨٧١ شرع ثمانون عاملا تحت إمرة شليمان بحفر خندق عميق في المنحدر الشمالي لتلة هيسارلك . نزلوا الى عمق ٣٣ قدما ، ثم حل الشتاء ، فتوقف شليمان عن العمل ، ليعود اليه في الربيع بصحبة زوجته اليونانية التي تصغره كثيرا . وزاد عدد العمال الى ١٥٠ . وتنبغي الاشارة الى ان شليمان كان يفتقر الى خبرة علماء الآثار . فعندما عثر على بناء يعود الى مرحلة متأخرة نسبيا ، لم يتوقف ليصوره قبل ان يهدمه ليواصل حفرياته ، لكنه في مرحلة لاحقة استعان بمساعد موهوب يدعى دوربفيلد ، علّمه فن التنقيب ، ولعب دورا في توجيه العمل وفق اسس علمية .

هناك اكتشف شليمان ان ثمة اكثر من طروادة : اسوار مقامة فوق

اخرى ، وتحتها توجد اسوار اقدم ايضا . ولا بد ان طروادة هوميروس توجد في الاعماق ، كما كان يتصور . فكانت مهمته مواصلة الحفر ، كمن يقتطع شريحة طولية من طبقة كيك . وبدا ان العمل اشق مما كان يتصوره . ففي الصيف كانوا عرضة للغبار ، والذباب ، والحر . وكانت الافاعي تتسلل اليهم من سقف الكوخ الذي ابتناه لاقامته بصحبة زوجته صوفيا . واصيب هو بالملاريا . وفي الشتاء كانت تهب ريح قاسية من الشمال من شقوق الكهوف تبعث الزمهرير في الاوصال على رغم الحطب المشتعل .

ما ان حلّ موسم عمله الثالث حتى كانت آلاف الاطنان من التراب والحجارة ازيلت من موقع العمل . وميز شليمان من بين طبقات حفرياته سبع سويّات . فايها كانت طروادة الملك پريام التي دمرتها جيوش اغاممنون ومنيلاوس ؟

في اواسط آذار (مارس) ١٨٧٣ بدأ شليمان بأعمال حفر واسعة الى الغرب مما يدعى بالبرج الكبير . وبعد ان حفر العمال تحت بقايا منزل يوناني متأخر ، ثم خلال طبقة من الانقاض ، كشفوا النقاب عما يبدو شارعا مبلطا ، عرضه ١٧ قدما ، يمضي باتجاه جنوبي غربي شطر السهل ، فاستنتج المنقب ان هذا الشارع لا بد ان يفضي الى بناية كبيرة في المدينة :

«لاجل هذا كلفت مئة رجل بان يحفروا الارض التي امامه بذلك الاتجاه . واكتشفت ان الشارع كان مغطى الى علو يتروواح بين سبعة وعشرة اقدام برماد لونه اصفر او احمر ، او اسود ، تتخلله قطع محترقة من الآجر والحجر . وفوق هذه الطبقة السميكة من الانقاض وجدت بقايا بناية كبيرة مشيدة بالحجر والتراب . وعلى مقربة منها ، باتجاه الشمال الشرقي ، اكتشفت مدخلين كبيرين يبعدان عن بعضهما زهاء عشرين قدما» . فتسرع واعلن للعالم بانه عثر على بوابة قصر پريام ملك طروادة . ودفعت هذه التصريحات وامثالها الاكاديميين الى تسفيه عمله بالكامل . ووصفوه بانه تاجر اهوج متعطش للشهرة ليس الا . ونالت هذه الانتقادات من معنوية شليمان في واقع الحال ،

فكاد ان يتخلى عن العمل . ويحدثنا تاريخ التنقيبات الآثارية عن حوادث مماثلة لخيبة امل شليمان قبل ان يكتب لمهمته النجاح . فبعده باكثر من نصف قرن لم يفلح هوارد كارتر البريطاني الجنسية في العثور على قبر توت عنخ آمون الا بعد السنة السادسة من العمل الفاشل ، وهو محاولته الاخيرة . كذلك كانت الحال مع شليمان الذي تكللت جهوده بالنجاح بعد المحاولة الاخيرة . فقد اتخذ قرارا بان ينهي حفرياته الطروادية ويصرف عماله في الخامس عشر من حزيران (يونيو) . وفي اليوم السابق لهذا التاريخ كان واقفاً بصحبة عدد من عماله عند السور المحيط القريب من البناية القديمة التي توهمها قصر پريام ، فشاهد قطعة نحاسية كبيرة مطمورة تحت طبقة حمراء متكلسة من المخلفات ، وفوقها اقيم جدار تحصين . ولدى امعان النظر ، لمحت عينا المنقب الثاقبتان ، خلف القطعة النحاسية ، شيئا لماعا له بريق ، يبدو اشبه بالذهب .

عندما حوّل شليمان بصره نحو عماله ، لاحظ انهم لم ينتبهوا الى ما شاهده . عند ذلك اصطنع الهدوء ، ونادى زوجته صوفيا ، واخبرها باعلان وقت للاستراحة : «قولي لهم انه عيد ميلادي ، وانهم سيحصلون على اجورهم بلا عمل!» .

بعد ان تفرق العمال ، هم ومراقبهم ، عادت صوفيا ووقفت قرب زوجها الذي كان قد قرفص تحت السور يحفر الارض الصلبة ويخرج منها كتلة بعد اخرى من الذهب الابريز والفضة المصمتة .

لكن اثمن اللقى التي عثر عليها هاينريخ شليمان بصحبة زوجته ، بعيدا عن انظار الاخرين ، كانا اكليلين رائعين من الذهب ، اكبرهما كان ذا سلسلة ذهبية جميلة ، تُرتدى حول تاج الرأس ، وتتدلى منها اربع وسبعون حلقة صغيرة وست وعشرون اخرى طويلة ، كل منها مصنوعة من الرقائق الذهبية مصاغة على شكل قلب . وكان الاكليل الاكبر يحتوى على ١٦٣٥٣ قطعة ذهبية مؤلفة من حلقات صغيرة ، وحلقات مزدوجة ، واوراق على شكل مبضع .وكانت صياغة كل من الاكليلين تنم عن صنعة وذوق رفيعين . كما عثر على ست اساور

ذهبية ، وقنينة ذهبية ، وكأس ذهبية تزن ٦٠١ غرام ، وكأس من مادة الالكتروم (مزيج طبيعي من الذهب والفضة) ، واناء كبير من الفضة كان يحتوي ، فضلا عن الاكليلين ، على ستين قرطا ذهبيا ، و ٨٧٠٠ حلقة ذهبية صغيرة ، ومناشير مثقبة ، وازرار ذهبية ، وقضبان ذهبية صغيرة مثقبة ، وحلي اخرى ، بالاضافة الى آنية فضية ونحاسية ، واسلحة برونزية .

فهل كانت هذه كنز پريام ملك طروادة ؟ ثم كيف يهرّب هذا الكنز عبر الحدود التركية ، في حين يتعين عليه ان يسلم نصف مكتشفاته للسلطات التركية ، حسب الاتفاق ؟ لكن الاجراءات الجمركية في تلك الايام كانت اقل تشددا ، فاستطاع ان ينفذ بكل الكنوز التي عثر عليها الى اثينا .

ثم واجهته مشكلة عندما اعلن للملأ عن اكتشافه في اثينا ، وسمح لعدد من المعنيين بالاطلاع على مقتنياته لكي يبدد الشكوك حول مهمته ويضع حدا للتقولات والطعون . وكان اتخذ كافة التدابير عندما تعرض منزله الى التفتيش من قبل السفارة التركية التي لم تعثر على شيء . كان اخفى الكنوز عند اقارب زوجته صوفيا . بيد ان هذه الحيطة لم تتركه في مأمن من ملاحقات السلطات التركية ، كما ان الحكومة اليونانية اخذت تضايقه ، هي الاخرى ، تحت ضغط الاتراك . بل ان مسؤول مكتبة الجامعة اعتبره مهربا ، وذهب ابعد من ذلك في التشهير به ، حين زعم انه لم يعثر على هذه اللقى من مطمورات طروادة ، بل من تجار الآثار القديمة . وآل هذا الى التشكيك بمصداقية عمله . وعندما قدم طلبا الى الحكومة اليونانية للسماح له بالتنقيب في ميسينيا (او موكينيا ، كما تدعى باليونانية) ، في البر اليوناني ، وهي موطن الملك اغاممنون الذي شن الحرب على طروادة بالتحالف مع شقيقه منيلاوس ملك اسبارطة ، وزوج هيلن التي اختطفها باريس ابن پريام ملك طروادة ، وضعت العقبات في وجهه . وافهم بان التعليمات في اليونان تقضي بإلا يسمح بالاحتفاظ بالآثار اليونانية حتى اثناء فترة حياة مكتشفها . ولم تستجب الحكومة اليونانية حتى عندما عرض عليها ان يسلمها كل مقتنياته الآثارية ، بما في ذلك لقى طروادة ،على ان تبقى

بحوزته حتى مماته . لكنه توصل في عام ١٨٧٤ الى حل وسط ، هو ان يسلم كل ما في حوزته الى اليونان بعد مماته ، على ان يحتفظ بجزء منها ما دام على قيد الحياة .

في ميسينيا كان شليمان يحلم بالعثور على قبر اغاممنون الذي تروي الاسطورة انه قُتل بعد عودته من طروادة بتدبير من زوجته كليتمنيسترا وعشيقها ايجستوس . وهناك نص للمؤرخ اليوناني پوزانيوس (من ابناء القرن الثاني الميلادي) فيه اشارة الى قبر اغاممنون في هذه البلدة ، اغرى شليمان على التنقيب فيها . وان كان نص هذا المؤرخ اليوناني متأخرا عن مرحلة اغاممنون باربعة عشر قرنا . ولعل بريق الذهب ايضا ، الذي جاء ذكره في الياذة هوميروس عند حديثه عن ميسينيا التي كان يطنب في وصفها بانها « غنية بالذهب » ، و « الذهبية » و « الموسرة » شجعه على ركوب المغامرة . وهكذا شد شليمان رحاله في صيف ١٨٧٦ الى هذا الوادي المنعزل الذي يطل على مدينة ارغوس ، اشهر واقدم المدن الاغريقية . وجهز جيشه من العمال وبدأ التنقيب .

بدأ شليمان حفرياته في منطقة ما يدعى ببوابة الاسود . وكانت صوفيا برفقته ايضا ، وستة وثلاثون عاملا فقط ، التزاما بتعليمات السلطات اليونانية ، لكي تسهل عليها مراقبتهم . وعثر اول الامر على غرفة صغيرة ظنها مقر الحاجب ، كان ارتفاعها اربعة اقدام ونصف القدم ، وهو لا يتناسب مع مقاييسنا الخاصة في كافة الاحوال . لكن راحة المستخدمين لم تكن متوافرة في العصر البطولي (عصر طروادة) ، لانهم كانوا من طبقة العبيد ، كما يرى شليمان . ثم واصل حفرياته خلف بوابة الاسود ، فوجد جدراناً ، بعضها يرقى الى مراحل متأخرة ، لم يتردد في ازالتها ، لكي يصل الى الاقدم . . . وبعد ان عثر العمال على شواهد قبور عليها نحوت بارزة لمقاتلين ، وعلى ساحة دائرية ، توصلوا الى اول قبر من القبور النفقية التي تميزت بها آثار ميسينيا في ما بعد . واستمروا في عملهم تحت رقابة شليمان وزوجته صوفيا ، والرقيب اليوناني . . . وهنا لمحت عينا صوفيا الثاقبتان التماعة في التربة . فالتقطت

شيئا صغيرا ومسحت الطين عنه . كان خاتما ذهبيا . اذن ينبغي ان يتوقف العمال عند هذا الحد! فتراجعوا وهم يثرثرون في ما بينهم عما يمكن ان يعنيه توقفهم عن العمل . وواصل الثلاثة : شليمان وصوفيا والرقيب اليوناني ، عملية الحفر بسكاكينهم ، يزيلون بحذر طبقات التربة .

عثر شليمان وزوجته على خمسة قبور ، اما الرقيب اليوناني ستاماتاكس فعثر على السادس . ويتروواح عمق هذه القبور بين ٣ و ١٥ قدما ، وطولها ٩ الى عشرين قدما ، كانت فيها جثث لرجال ونساء واطفال مزينة بالذهب : « كانت وجوه الرجال مغطاة باقنعة من الذهب ، وعلى صدورهم صفائح من ذهب ، وكانت امرأتان ترتديان عصابة جبين ذهبية ، وعلى رأس احداهما اكليل فاخر من الذهب . اما الطفلان فكان كل منهما ملفوفا بصفيحة من ذهب . والى جانب كل رجل سيفه ، وخنجره ، وكأس الشراب من ذهب وفضة . وكان لدى كل امرأة صندوق زينة من ذهب ودبابيس ملابس وحلي ثمينة . وكانت ملابسهم مرصعة باقراص ذهبية مزركشة بمصوغات على شاكلة النحل ، وسمك الحبّار ، وطرر وردية الشكل ، ولوالب . . . تلك كانت في الواقع واحدة من اغنى اللقى الآثارية التي تم العثور عليها » كما يقول ويس في كتابه (ميسينيا) .

هل كان سيزيف كنعانيا؟

كل ما يحيط بسيزيف يحمل بصمات سامية ، وكنعانية على وجه التخصيص : اسمه ، وشجرة نسبه ، ومسقط رأسه . اذا تركنا اسم ابيه ايولوس Aeolos الذي يقترن بالحكمة (وهو يأتي معززا ، ايضا ، لمعنى اسم سيزيف ، كما سنرى) ، فان شقيقيه كريثيوس Cretheus وسالمونيوس Sal-moneus يحملان اسمين ساميين . اما شقيقه الثالث اثاماس Athamas فقد اختلف اللغويون حول اصل اسمه . بعضهم يرى انه مشتق من تموز السومري البابلي (وهو رأي ضعيف على اية حال) ، لكن زوجته اينو Ino ذات ارومة سامية .

اما سيزيف ، وباليونانية Sisyphos فهو اسم له صلة بكلمة «سوفوز ، Sophos (حكيم) اليونانية ، التي تذكرنا بمادة (اشيفو) Ashipu الاكدية . وعلى رغم ان اسمه استعصى على اللغويين ، الا انه يبقى في اطار هذا الجذر . بعضهم - هزيخيوس Hesychios على سبيل المثال - يعطي تهجئة اخرى له ، مثل Sesephos . اما يوستاثيوس Eustathios فيرجع باسم Sisyphos الى Theo- sophos «الحكيم المقدس» . لكن اللغويين المعاصرين يرون في اسمه تكرارا لكلمة «سوفوز» Sophos بما يعني «الحكيم جدا جدا» . وهذا كله انما

يؤكد على ان جذر الاسم هو مادة (أشيفو) ashipu البابلية ، التي تقابل «شفى» العربية . ثم ان الجذر السامي Washabu «يجلس» (ويقابله وثب بالعربية ، الذي قلب المعنى الى الوثوب) يعطينا كلمة شيشوب Sheshub بالبابلية ، وتقابلها Sheshup بالآشورية ، وتعني : «من يصنع التعاويذ او السحر» . وهذا يتطابق تماما مع سيزيفوس (اي سيزيف) شكلا ومضمونا .

اذا انتقلنا الان الى الاسطورة فانها تذكرنا ايضا بان سيزيف كان شافيا او مبرئا من الطراز الاول ، وان لم يمارس مهنة الطب ، بل جاء ذلك عن طريق السحر فقط . على سبيل المثال انه وضع الاصفاد في معصمي «الموت» (الذي أُرسل اليه لينتزع روحه) بعد ان لجأ الى الحيلة . لكن اريس Ares ، الذي تعرضت مصالحه للخطر ، باعتباره مسؤولا عن الحروب ، وهو المقابل لمارس عند الرومان ، تمكن من تحرير «الموت» ووضع الاصفاد في يدي سيزيف . ان الانتصار على الموت ، او اطالة حياة الانسان ، كان اقصى ما هو منتظر من «الشافي» . وهذا الجانب من سيرة سيزيف الاسطورية يرجع الى اصول سامية .

اما قصة الصخرة التي كتب عليه ان يحملها الى اعلى التل ثم لا تلبث ان تتدحرج من جديد ، عقابا له على احابيله ، فهي متأخرة ، اي اغريقية . وهذه الاسطورة تنطوي على مغزى رمزي للدلالة على دوران الشمس الذي يتكرر على الدوام ، كالصخرة التي تحمل الى اعلى التل ثم تتدحرج من جديد على كر الايام . لكن سيرة سيزيف الاصلية لم تقترن بالاجرام السماوية مطلقا بل كان ، هو ، رمزا اسطوريا ارضيا ، الامر الذي يدعو الى الاعتقاد بان قصة الصخرة حكاية مقحمة ولا تستند الى جذور تاريخية في الميثولوجيا الاغريقية .

في حين تؤكد الدلائل الاخرى على اقترانه بالعالم الاسفل ، عالم الاموات ، بلغة الاساطير القديمة . فثمة اشارة في الاوديسة ،وفي اقدم الاخبار عنه الى نزوله الى العالم الاسفل هاديس Hades (الجحيم في الديانات الوثنية القديمة) ، وعودته الى عالم الاحياء . واسم مسقط رأسه (ايفيرا) Ephyra

يومىء بذلك ايضا ، وهي بلدة من اعمال كورنث باليونان . وكلمة Ephyra تذكرنا بالجذر السامي «عفر» ويعني «تراب . غبار ، ترابي» . والعلاقة بين العالم الاسفل (عالم الاموات) والغبار والتراب معروفة في الاداب القديمة . جاء في قصة نزول عشتار الى العالم الاسفل : «كان الباب والرتاج يعلوهما الغبار» . وفي ملحمة جلجامش يوصف العالم الاسفل بـ «منزل الغبار» ، وبالاكدية Bit epri . وحتى في التوراة تستعمل كلمة «عفار» كمرادف لعالم الاموات . جاء في المزمور (٢٢ : ٣٠) «قدامه يجثو كل من ينحدر الى التراب = عفار» .

من كل هذا يتضح ان سيزيف كان حكيما ، يبرىء او يشفي المرضى ، مثل الاشيفو البابلي الذي سنتطرق اليه في حديثنا عن اصل كلمة (الفلسفة) . وحتى اسم زوجته ميروبه Merope يفيد هذا المعنى ، وهو الاخر مشتق من جذر سامي ، يذكرنا بكلمة Merappa الكنعانية ، التي تعني «شافية» من الامراض ، وهي من الجذر «رفا» .

ثم ان العلاقة الغامضة بين سيزيف واوديسيوس (عولس) بطل الاوديسة ، قد تلقى ظلا من الشك حول اصل اوديسيوس ايضا . لكن الذي يهمنا هنا هو سيرة سيزيف من خلال علاقته الغامضة باوديسيوس . . . .

كان اوتوليكوس (جد اوديسيوس من جهة امه) يسكن في الجوار من سيزيف . وكان استاذا في فن اللصوصية . وقد الهمه هيرمس القدرة على تغيير مظهر الحيوانات (الماشية) التي كان يسرقها ، من سوداء الى بيضاء ، ومن ذوات القرون الى عديمتها ، وبالعكس . ومع ان سيزيف لاحظ ان قطيعه اخذ يتناقص على مر الايام ، بينما يزداد قطيع اوتوليكوس ، الا انه لم يملك الحجة على ادانته . فلجأ الى الحيلة الآتية : نقش على باطن اظلاف قطيعه العلامة SS . وفي تلك الليلة ايضا واصل اوتوليكوس - جد اوديسيوس - سيرته في سرقة عدد من افراد قطيع سيزيف . وعند الفجر استدعى سيزيف جيرانه واصطحبهم معه الى منزل اوتولويكوس مستندا الى وقع حوافر الحيوانات التي

سرقها منه ، ودخل حظيرة اوتـوليكوس ، وتعرف على افراد القطيع المسروقة ، من اخفافها . ثم تـرك شهوده يوجهون التهمة لاوتوليكوس ، في حين هـرع هو الى خلف الدار ، واغوى انتيكليا ابنة اوتوليكوس وزوجة ليرتس ، فولدت له اوديسيوس (وهي احدى الروايات التي ينتسب من خلالها هذا الاخير ، صاحب الاوديسة ، الى سيزيف) .

ان محاولة الاساءة الى سمعة سيزيف ، واعتباره اسوأ وغد محتال ظهر على وجه البسيطة ، تلك التهمة التي الصقها به كتاب الميثولوجيا اليونانيون القدماء ، تعكس تحيز الهلينيين ضد انشاء مستوطنات غير هلينية - اي كنعانية - على البرزخ الضيق الذي يفصل بين شبه جزيرة البيلوبونيز واتيكا في البر اليوناني ، كم يقول روبرت غريفز . لكنهم - اي الهلينيين - يعترفون بان هؤلاء المستوطنين - الفينيقيين - هم الذين طوروا الملاحة والتجارة في كورنث التي كان اسمها فينيقياً (ايفيرا) ، كما يؤكد غريفز ايضا .

المصادر :

- M.C. Astour Hellenosemitica.
- R. Craves, Greek Myths
- New Larousse Encyclopedia of Mythology.

مأساة اوديب

بين تحليلات فرويد و فرس الماء

تعتبر مأساة اوديب ، بشهادة ارسطو ، اكمل عمل تراجيدي يوناني . وحَسْبُ اليونان ان طورت فن التمثيل ليبلغ تلك الدرجة من الكمال التي بلغتها مسرحيات اسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيداس واريستوفان ، وان كان التمثيل معروفا قبل ذلك في سومر وبابل ومصر . لكن الفارق الكبير بين الحالتين يكمن في ان التمثيل او المسرح في وادي الرافدين ومصر كان له طابع محدود ومقصور على الاحتفالات والطقوس الدينية فقط (عيد رأس السنة الجديدة وموت تموز وبعثه في وادي الرافدين ، واسطورة اوزيريس في مصر) . اما التمثيل في اليونان فقد اصبح فنا له حضوره في المجتمع اليوناني منذ القرن السادس ق .م . لكن اليونان لم تأت بهذا الفن من العدم ، ولم تكن جزيرة منعزلة عن العالم ، الذي سبقها في حضاراته العظيمة ، بل تفاعلت اخذا وعطاء مع الحضارات الاخرى . ويوما بعد اخر تظهر ادلة جديدة على هذا التفاعل . وينسحب هذا على فن المسرح ايضا . فهناك العديد من المواضيع التي عالجتها المسرحيات اليونانية تحمل بصمات شرقية . بل ان من المحتمل ان يكون تصميم المسرح الاغريقي مقتبسا من وادي الرافدين .

وقبل ان نناقش الابعاد التاريخية والاجتماعية لمأساة اوديب ، ورموزها الاخرى التي استمد منها سيغموند فرويد نظريته حول عقدة اوديب ، نقدم عرضا موجزا لهذه الاسطورة : رزق الملك لايوس ، ملك طيبة ، وزوجته ايوكاستا ، ولدا . وقبل ان يطلق عليه اسم جاءت نبوءة ابولو تقول ان هذا الطفل سيقتل اباه ويتزوج امه . فكان السبيل الوحيد لدرء هذا المصير الشنيع ، هو ان يُقضى على الطفل . لكن قلب الوالدين لم يطاوعهما على قتله فسلماه الى راع من خدمهما وآمراه بترك الطفل على سفح جبل ، ووخز قدميه بشدة بمسمار حديد لكي لا يكون قادرا على ان يحبو وتكتب له النجاة . ثم ان الراعي لم يطاوعه قلبه ، هو الاخر ، بترك الطفل يهلك في العراء ، فعهد به الى راع اخر من مدينة كورنث بعيدا عن طيبة ، ليربيه ويتبناه . وكان الراعي الكورنثي خادما عند پوليبوس ملك كورنث ، فحمل الطفل الى سيده الذي كان بلا اطفال ، فتبناه واطلق عليه اسم اوديپوس ، اي (ذو القدم المتورمة) بعد ان عالج قدميه .

عندما بلغ اوديب مبلغ الرجال وصلت الى سمعه نبوءة ابولو ، فترك كورنث وهام على وجهه بعيدا عن والديه اللذين تبنياه ظنا منه بانهما والداه الحقيقيان . وقادته قدماه الى طيبة ، التي حلت بها المحن الان . وكان الملك لايوس ، ملكها ، في طريقه ليستشير وسيط الوحي لانقاذ طيبة من السفنكس ، وهي هولة لها رأس امرأة ، وجسد اسد ، وذنب افعى ، وجناحا نسر (كانت قادمة من اثيوبيا ، وارسلتها هيرا لتعاقب اهالي طيبة لان ملكها لايوس اختطف ولدا يدعى خريسبوس من پيزا) . وجثمت على جبل فيسيوم ، قرب المدينة ، وطرحت احجيتها التي لقنتها اياها الموزيات الثلاث (الاهات الفن) : «ما هو الكائن ، لذي له صوت واحد وله احيانا قدمان ، وفي احيان اخرى ثلاث ، وفي احيان ثالثة اربع ، وهو اضعف حالات عندما يكون لديه العدد الاكبر من الاقدام ؟» وكانت تخنق كل من يفشل في حل الاحجية ، وتزدرده في الحال . وصادف ان مرت عربة الملك لايوس باوديب الهائم على

وجهه ، وداست عجلتها على قدمه ، فثارت ثائرته ، ورمى سائقها برمحه فأصاب منه مقتلا ، ثم هوى على الملك وقتله (من دون ان يدري انه ابوه الحقيقي) . وعلى مشارف طيبة حزر اوديب الاحجية : «الانسان» قال للسفنكس «لانه يزحف على الاربع في طفولته ، ويقف على اثنتين في شبيبته ، ويتكىء على عصا في شيخوخته» . فاسقط في يد السفنكس والقت بنفسها من جبل فيسيوم لتتمزق اربا في اسفل الوادي . وردا للجميل ، نادى اهالي طيبة باوديب ملكا عليهم ، وتزوج ايوكاستا ، من دون ان يعلم انها امه .

نتيجة لذلك حل بطيبة الطاعون . وعندما استشير وسيط الوحي مرة اخرى ، اجاب : «أبعدوا قاتل لايوس!» . . . وحين اكتشف اوديب انه قتل اباه وتزوج امه ، اعمى عينيه بدبوس اخذه من ملابس امه ، وشنقت امه نفسها .

يتضح لنا ان هذه الاسطورة ، ليست يونانية خالصة في رموزها واسمائها . فاحداثها جرت في طيبة ، وهي مدينة تقع في شرقي اليونان ، وتتواتر الاخبار اليونانية على ان مؤسسها او بانيها هو قدموس الكنعاني . واسمها بحد ذاته يعود الى جذر سامي ، من مادة (طاب) . وابوابها السبعة التي تشير اليها هذه الاسطورة وغيرها تحمل بعدا ساميا ايضا بعدده (السبعة) . واثبتت الحفريات الحديثة ان لهذه المدينة ابوابا سبعة بالفعل . وحتى الهولة (السفنكس) ترجع الى جذور شرقية . فمن المعروف ان اقدم الاشكال لهذا الحيوان الخرافي ظهرت في وادي الرافدين (الثور الاشوري المجنح ، والكيروب) ، وفي مصر (ابو الهول) ، منذ النصف الاول للالف الثالث ق .م . ثم اشتهرت سورية في نقش صور هذا الكائن ، ومنها انتقلت الى بقية البلدان .

وكانت للسفينكس اهمية خاصة عند الهكسوس (وهم ساميون ، او كنعانيون بالذات حكموا مصر ما بين ١٦٧٥ ـ ١٥٨٠ق .م .) .

ويعتقد عدد من الباحثين ان الهكسوس هاجروا الى اليونان بعد ان اجلوا من مصر . ولعلهم نقلوا معهم صورة السفينكس الى هذا البلد ، أو انتقلت اليه

عن طريق سورية . وعثر على نقش في بويوتيا (اليونان الشرقية) ، يرقى الى القرن الثالث عشر ق .م . تظهر فيه صورة ملك امام سفينكس ،لابد انه يرمز الى اوديب ، ويؤكد على ان قصة اوديب والسفينكس كانت معروفة في القرن الرابع عشر او الثالث عشر ق .م . على الاقل . وبما ان اللغة الرسمية في مدينة طيبة كانت في القرن الثالث عشر ق .م . يونانية ، فلا بد ان اوديب نفسه كان يونانيا . وهو ما يدل عليه اسمه ايضا . ويعني «القدم المتورمة» كما مر بنا . لكن اجداده كانوا كنعانيين على ما يبدو . فلابداكوس ، جده المباشر ، يذكرنا اسمه بالحرف الابجدي الفينيقي (لابدا) . اي حرف اللام . وجد لابداكوس هو قدموس الكنعاني باني مدينة طيبة . فاوديب يمثل الجيل الثاني ، بعد افول نجم الكنعانيين في اليونان . ومن مدلول قصة اوديب ايضا يفهم ان هناك تغيرا حصل في طبيعة النظام الاجتماعي في مدينة طيبة ، من مرحلة سيادة الام الى مرحلة سيادة الاب ، لعله تم نتيجة لغزو هندي - اوروربي ، أو زحف تدريجي . لكن اليونان الهندية الاوروبية احتفظت بالعديد من مظاهر العبادة والتقاليد الاجتماعية الاصلية في المنطقة ، نظرا الى رسوخها بين السكان ، فتزوج زيفس اليوناني الاهات المنطقة او اصبح بعضهن بناته .

ولعل ابرز الاساطير اليونانية التي عالجت موضوع الانتقال من سيادة الام الى سيادة الاب ، مأساة اوديب وقتل كليتمنيسترا زوجة اغاممنون على يد ابنها اوريست . كلتا القصتين تشيران الى ان الملكة كانت هي صاحبة الكلمة في الحكم ، وان كان مركزها او موقعها الظاهر خلف الملك ، لانها كانت هي التي تعين الملك الوريث . وكلتا القصتين ترمزان لانتهاء هذه المرحلة ، من خلال انتحار الام في «مأساة اوديب» ، ومقتلهاعلى يد ابنها في قصة كليتمنيسترا زوجة اغاممنون الذي - اي هذا الاخير - عاد من حرب طروادة ليلقى مصرعه على يد عشيق زوجته الذي كان كالعبد عند كليتمنيسترا الحاكمة الحقيقة لميسينيا . وفيما بعد سينتقم اوريست الابن لمقتل ابيه ، ويقتل كلا من العشيق وامه .

لاشك في ان هذه القصص شبه الاسطورية مؤلفة من وجهة نظر واخلاقيات

المنتصرين (على النظام الامومي) ، فقد تكون محرفة ، ومكتوبة بصورة تشوه سمعة المرأة ، لا سيما في قصة كليتمنيسترا . لكن الرمز فيها واضح : افول مجد المرأة ، وتراجع سلطانها امام الرجل الذي كان لاكتشاف المعادن (البرونز ثم الحديد) دور كبير في تعزيز مركزه وقوته .

اما سيغموند فرويد فقد فسر مأساة اوديب على انها ترمز الى توق الرجل الى امه . وعنده ان هذه «النزعة» غريزة عند الانسان ، وقد تكون كامنة ، وان اوديب ، بتكفيره عن خطيئته يمثل المرحلة الاجتماعية التي قضت على هذه الشرعة او النزعة . وهو تفسير لا يقوم على سند علمي ، بل على سوء تفسير للاسطورة .

ان ظاهرة الزواج بأمراة الاب كانت معروفة في المجتمعات القديمة ، بما فيها العربية قبل ان يبطلها الاسلام (سورة النساء ، الآية ٢٢) . وفي تاريخ اليهود ان (ادونيا) التمس من اخيه سليمان (الحكيم) ان يعطيه (ابيشج) زوجة ابيهما المتوفى (داود) ، لكن سليمان لم يستجب لطلبه . وفي التوراة ايضا اشارة الى اعتداء رأوبين ، ابن يعقوب ، على (بلهة) زوجة ابيه يعقوب يوم كان ابوه ما يزال على قيد الحياة ، وفي بيته . لكن هذه الامثلة وغيرها ، وكذلك مأساة اوديب بالذات ، لا تقدم ادلة على «تأصل» نزعة التوق الى الام ، كما يزعم فرويد .

ويتساءل روبرت غريفز في كتابه «الاساطير اليونانية» : «هل كان اوديب غازيا لطيبة في القرن الثالث عشر ق .م . والغى عبادتها القديمة القائمة على النظام الامومي ؟ ففي ظل النظام القديم ، يعتبر الملك الجديد ، وان كان غريبا ، ابنا من الناحية النظرية للملك القديم الذي يقتله - الابن - ويتزوج ارملته ، وهو تقليد اساء تفسيره الغزاة الباترياركيون (اتباع النظام الابوي) واعتبروه قتلا للاب وغشيانا للمحارم . ان نظرية فرويد التي تقول ان «عقدة اوديب» هي غريزة عند جميع الرجال مستوحاة من هذه الحادثة المحرفة .

وعندما اشار بلوتاريك (٤٦ - ١٢٠م) في كتابه عن ايزيس واوزيريس الى ان

فرس الماء «قتل اباه واجبر امه» ، لم يرد في حسبانه ان الرجال عندهم عقدة فرس الماء!» . ولا شك ان روبرت غريفز يسخر بهذا من نظرية فرويد حول «عقدة اوديب» .

اصل كلمة «اوروبا» تحت المجهر اللغوي...

يذهب معظم المعاجم الاوروبية الى ان كلمة « اوروبا » Europe يونانية الاصل . ويذهب بعض واضعي هذه المعاجم في اشتقاقها مذاهب شتى ، بادية التكلف ، كأن يقال ان اصلها هو Eur - 0pe(صاحبة العين الوسيعة) او (صاحبة الوجه العريض ، اي البدر) . او هناك حتى من يرى ان اصلها قد يكون Eu - rope (صاحبة الصفصاف النامي) ، بمعنى انها (صالحة لنمو الصفصاف) ، او بعبارة اخرى « مروية جيدا » . وذلك انطلاقا من العلاقة بين اوروبا ـ الالهة اليونانية ـ والقمر ، والصفصاف . ففي القديم كان القمر يقترن بالماء وبالاشجار التي تنمو عند شواطىء الانهار ، كالصفصاف . وهناك من يذهب ايضا الى ان المقطع Eu يعني (جيد) ، او حسن . . . . لكن هذه الاشتقاقات تفتقر الى قوة الاقناع ، ولعلها منطلقة من النظرة العنصرية الضيقة عند هؤلاء اللغويين ، الذين قد لا يسرهم ان يكون اسم قارتهم غريبا عنهم ، اي ليس اوروبيا ، كما سنرى بعد قليل .

لكن فلنعد الى هذه القواميس الاوروبية اياها ، ونتابع ما جاء فيها حول تاريخ استعمال هذه اللفظة . جاء في قاموس اوكسفورد لاشتقاق المفردات الانكليزية . «اطلقت لفظة اوروبا في بادىء الامر على وسط اليونان ، ثم شمل

المعنى فيما بعد البر اليوناني برمته ، وبعد ذلك اطلقت التسمية على الارض التي تقع غرب البر اليوناني » . وهذا انما يؤكد على المعنى الجغرافي للكلمة . ويستفاد منه ان هناك قوما كانوايقيمون في بادىء الامر في شرقي اليونان ، واطلقوا على وسط اليونان ، الذي يعتبر حدودا غربية مباشرة لهم ، لفظة اوروبا ، بما يفيد معنى الغرب . ويبدو ان تطلعات هؤلاء القوم امتدت من ثم الى ابعد من وسط اليونان ، فسموا كل البر اليوناني غربا . وفي مرحلة لاحقة ، ربما بعد ان احتل او استوطن هؤلاء الاقوام البر اليوناني ، اطلقوا على الاراضي التي تقع الى الغرب من اليونان اسم اوروبا ، اي الغرب .

ولسوف نرى ان هؤلاء القوم لم يكونوا يونانيين بل ساميين كنعانيين استنادا الى عدد من الادلة والبينات اللغوية والآثارية . وسنكتشف ان كلمة « اوروبا » سامية الاصل : مثلها مثل كلمة « آسيا » التي تفيد معنى الشرق .

ولابد ان القوم الذين اطلقوا كلمة « اوروبا » للدلالة على الغرب هم انفسهم الذين اطلقوا كلمة « آسيا » للدلالة على الشرق ، وسيكون لهذا الموضوع مناسبة اخرى .

وتأكيدا لما جاء في قاموس اوكسفورد لاشتقاق المفردات نقول ان لفظة اوروبا Europeوردت في الترتيلة الهوميرية (نسبة الى هوميروس) لاپولو ، للدلالة فقط على وسط اليونان ، وذلك لتمييزها عن الجزر ، جزر ايجة ، وحتى عن شبه جزيرة الپيلوپونيز (كانت الپيلوپونيز تعتبر جزيرة ، لانها محاطة من جميع جهاتها بالماء ، باستثناء برزخ ضيق يصلها بالبر اليوناني) . ولم تكن جزر بحر ايجة ، حتى في ايام المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوتس (٤٨٤ ؟ - ٤٢٥ ؟قم) تعتبر جزءا من اوروبا .

يقول هيرودوتس : « لكن من المعروف ان اوروبا هذه كانت مواطنة من آسيا . ولم تأت قط الى البر الرئيسي الذي يطلق عليه الهلينيون (اليونانيون) الان اوروبا ، لكنها من فينيقيا جاءت الى كريت ، ومن كريت انتقلت الى ليسيا Lycia » (تاريخ هيرودوتس ، ج٤ ، ص ٤٥) .

ولعل المعنى الذي اعطاه هسيخيوس لكلمة Europe وهو «بلاد الغرب» ، او «المظلمة» ، ولكلمة Europon ، «مظلم» يعتبر خير تفسير لاسم اوروبا ، في مفهومه الجغرافي ، ويقدم لنا دليلاعلى ان كلمة «اوروبا» لا يمكن ان تشتق بأي حال من الاحوال ، من اللغة اليونانية ، كما يقول مايكل استور في كتابه (هيلينوساميتيكا) .

ويقول «ان الفرضية القديمة وحدها ، التي كانت تقابل بالرفض باستمرار ، عن الرجوع بهذه الكلمة الى الجذر السامي (عرب) ، هي التي من شأنها ان تقدم تفسيرا صحيحا لاشتقاقها» .

ومادة «عرب» تعني «دخل ، غَرَبَ» عندما تقال للشمس (من هنا الكلمات التي تفيد معنى «المساء» و «الغروب») ، وكذلك «اظلم ، اسود» . وهذا هو التفسير المعقول لكلمة «اوروبا» والذي يتفق مع معانيها في اقدم اشارة لها .

اذا دخلنا في التفاصيل اللغوية وجدنا ان الاستعارة الحرفية لكلمة Europe من «عرب» ممكنة . اولا ، ان غياب حرف «العين» من كلمة «عرب» قياسي ودارج . فاليونانيون يسقطون حرف العين السامي - المصري ، ويبقون عليه اذا كان «غينا» . ولما كان الجذر يلفظ «عرب» حتى في الاوغاريتية الكنعانية التي تحتفظ بحرف «الغين» فان كلمة «غرب» العربية ينبغي ان تعتبر انزياحا او انحرافا عن الجذرالسامي المشترك .

اما اللغات العربية الجنوبية (اليمنية القديمة) فقد احتفظت بالعين جزئيا : فهناك «غرب» بمعنى «دخل» ، لكن «معرب» ، و «معربي» تعنيان : «غرب . غربي» على التوالي . اما تحول حرف الباء السامي الى حرف P باليونانية ، فيحدث حتى في الاكدية ، وكذلك في اللغات السامية الغربية ، مثل الكنعانية والعبرية ، الخ . ومثل هذا الابدال بين حرفي الباء والـ p يحصل في اليونانية نفسها ايضا مثل Ambrakia = Amprakia الخ . كما ان هناك امثلة اخرى يتحول فيها حرف الباء في اللغات السامية الى P في اليونانية ، مثل كلمة

« حَلَبَ » السامية التي استعيرت منها الكلمتان اليونانيتان القبرصيتان Elphos « زبدة » و elpos « دهن ، شحم » ، وكذلك « حربة » السامية ومقابلها Harpe اليونانية التي تعني « سيف منجلي »(ينظر بهذا كتاب مايكل استور المشار اليه سابقا) .

ولا يعتقد استور ان لفظة Europe اشتقت من صيغة ereb العبرية التي تعني « مساء » ، ولا من صيغة erebu او ereb Shamshi ، الاكديتين . لان هذا لن يقدم تفسيرا لتحول حرف الـ e في اللفظة السامية الى o في اليونانية . صحيح ان كلمة erebos اليونانية التي تقال لمملكة الموتى في اقصى الغرب ، في الاسطورة اليونانية مشتقة من erebu الاكدية . لكن هذا لا ينسحب على كلمة Europe . ان النموذج الاصلي لهذه الكلمة الاخيرة ينبغي ان ينظر اليه في صيغة غراماطيقية اخرى . وهذه الصيغة يجب ان تكون المصدر . ومصدر « عرب » باللغة الاوغاريتية الكنعانية هو « عرابو » . لكن الكلمة السامية الغربية التي تقال للغروب لم تصل الى اليونانيين عن طريق الاوغاريتية (الكنعانية) بالمعنى الضيق للكلمة ، بل من الكنعانيين الجنوبيين ، اي الفينيقيين ، الذين تم التحول في لغتهم من الالف الى الواو في مرحلة مبكرة نوعا ما (منذ القرن السادس عشر ق .م . او ربما منذ القرن الثامن عشر ق .م) وبذلك اصبح المصدر بهذه اللغة (arob (Shamshi « غروب الشمس » . وهذا اللفظ انما يتفق اكثر مع نطق كلمة Europe . اما ادغام حرفي العلة eu في الكلمة اليونانية مقابل حرف العين في اللفظة السامية ، فهو امر مألوف في بعض الاستعارات اليونانية ، مثل كلمة Euphrates (الفرات) التي اخذها اليونانيون عن طريق الفارسية القديمة Ufratu .

والان ، لنتلبث قليلا عند مادة « عرب » السامية . يبدو ان المعنى الاصلي لها هو « يدخل » ، وعند استعمالها مع الشمس تعني « تغرب » ، وهو مأخوذ من الدخول ، اذ كان يعتقد ان الشمس عند الغروب تدخل العالم الاسفل . ثم تفرعت من هذا الجذر معان كثيرة في اللغات السامية ، لا نريد الدخول في

تفاصيلها ، سوى ان نذكر من بينها : الجفاف ، والبداوة . وهنا تحضر في الذهن لفظة «العرب» المشتقة من هذا الجذر . يقال ان المقصود بالكلمة : البداة ، او سكان البادية . لكن المعنى الاصلي لابد ان يذهب الى مفهوم «الغرب» ، لان الغرب في اللغات السامية ـ عدا العربية ـ يلفظ بالعين . ولدفع الالتباس أبقى العرب العين في اسمهم ، واستبدلوه بغين في الكلمة الدالة على الغرب . . . .

ونحن نرى ايضا ان كلمة «غريب» مشتقة من الجذر نفسه . والغريب هو الذي يغرب . وليس يُعرف ان كان الغراب من المادة نفسهاام لا . لعل من المرجح انه سمي كذلك لسواده . ذلك ان مادة «عرب» او «غرب» تفيد معنى السواد ايضا ، من خلال معنى الغروب والمساء .

واقدم ذكر لاسم العرب ورد في نقش للملك الاشوري شلمنصر الثالث (٨٥٩ ـ ٨٢٤ق .م) جاء فيه ان دويلة عربية ملكها (جندبو) العربي جهزت الف جمل لدعم مملكة حماة التي اتحدت مع مملكة دمشق ودويلات اخرى ضد حملة الملك الآشوري شلمنصر الثالث . واختلف اللغويون في كيفية نطق الكلمة ، فقرئت : عروب ، وعريبي ، وعريبو ، وعَرْبي ، وعَرَبي ، الخ . وفي التوراة تدل لفظة «عرب» على البداوة ، او سكان البادية . كما ان كلمة «عربة» وردت في التوراة بما يعني الصحراء او القفر . وفي نص بابلي وردت عبارة «ماتو ـ اربي» ، اي ارض العرب . ووردت كلمة «ارباية» (عرباية) في نص فارسي باللغة الاخمينية يعود الى عهد دارا الكبير (٥٢١ ـ ٤٨٦ق .م) . واول ذكر للعرب عند اليونان جاء على لسان اسخيلوس (٥٢٥ ـ ٤٥٦ق .م) . عند الاشارة الى ضابط عربي اشتهر في جيش احشويرش الاول (٤٨٦ ـ ٤٦٥ق .م) ثم عند هيرودوتس الذي اطلق كلمة Arabae على جزيرة العرب .

وبعد ، او ليس من غريب المصادفة ان ترجع لفظتا «اوروبا» و «العرب» الى اصل واحد ، هو الجذر «عرب» ؟

قدموس الباحث عن «اوروبا»

لن يلتقيها ابدا

من الاساطير اليونانية الشيقة التي تنطوي على مغزى جغرافي وتاريخي في وقت معا ، قصة اختطاف الاميرة الكنعانية «اوروبا» . من بين رواياتها المتعددة ، سنعمد الى اختيار احدث صيغة لها ، لانها تقرن اوروبا بآسيا ، مع ان الجوهر في هذه الروايات واحد . تقول الاسطورة : كانت اوروبا اميرة صيدا ، ابوها كنعان (او جينور الكنعاني) ملك صيدا ، وامها آسيا . شاهدت في الحلم ، وهي بعد في حمى امها وابيها ، ان قارتين اتخذتا هيئتي امرأتين حاولتا امتلاكها ، احداهما تدعى آسيا التي جاءت تطالب بها انطلاقا من امومتها لها ، والاخرى كانت ما تزال بلا اسم (هذا في واقع الحال ما كانت عليه قارة اوروبا قبل وصول الاميرة «اوروبا» اليها لتعطيها اسمها فيما بعد) وزعمت هذه المرأة التي لا اسم لها ان زيفس كبير آلهة اليونان ، وهبها لها ، وهو ما تحقق فيما بعد .

بعد ان افاقت من حلمها الغريب هذا ، خرجت اوروبا مع اتراب لها من علية القوم ، الى المرج عند شاطىء البحر ، ملتقاهن المفضل ، ليلهين فيه ويتراقصن بين زهوره البرية ، ثم يستحممن عند مصب النهر . . . واذ هن

كذلك ، وقع بصر زيفس ـ من عليائه ـ على اوروبا الفاتنة فطاش عقله . وارسل ابنه هيرمس ليستدرج قطيع الملك كنعان الى شاطىء البحر في صيدا . . . ثم التحق زيفس بهذا القطيع بعد ان تنكر بهيئة ثور ناصع البياض كالثلج ، ليتميز عن افراد بقية القطيع . وكان له غبب طويل آسر بجماله ، وقرنان صغيران كجوهرتين ، تتوسطهما غرة سوداء ، ففتنت اوروبا بجماله ، واخذت تلاطفه وتلاعبه بعد ان اطمأنت اليه ووجدته وديعا كالحمل ، واطعمته زهورا ، وقلدته الاكاليل على قرنيه ، ثم ما لبثت ان امتطته ماضية به الى شاطىء البحر .

لكنه سرعان ما توغل بها بعيدا في عرض اليم ، فيما استبد الهلع باوروبا وهي تتطلع الى الشاطىء بفزع . وعندما بلغ زيفس الشاطىء الكريتي ، على مقربة من كورتينا ، اتخذ هيئة نسر ، واغتصب اوروبا ، فانجبت له ثلاثة ابناء هم مينوس ، ورادامنتس ، وساربيدون .

ولما افتقد الملك كنعان ابنته اوروبا ، ارسل ابناءه في اثرها ليبحثو عنها ، واوصاهم بالا يعودوا بدونها ، فابحروا على الفور . كل في اتجاه لجهلهم الوجهة التي اتخذها الثور . مضى فينقس غربا الى ما وراء ليبيا ، الى قرطاجة . وهناك اعطى اسمه للقرطاجيين ، بيد انه عاد الى كنعان بعد موت ابيه ، ثم سميت فينيقيا باسمه تكريما له ، وهناك انجب ادونيس . ومضى كاليكس الى كيليكيا (او قيليقيا) ، في الاناضول وسميت هذه البلاد باسمه . (وسوف نرى ان كيليكيا مشتقة من الجذر السامي «خلق») . أما قدموس ، شقيق اوروبا الاخر واسمه يعني «الشرق» ، كما سنرى ، فقد ابحر الى جزيرة رودس ، ثم الى جزيرة ثيرا Thera التي تحمل هي ورودس اسما ساميا . ثم انتقل الى البر اليوناني . وعندما سأل عن مصير اوروبا نصحه الافعوان Pythoness بالعدول عن مهته ، وتأسيس مُلك في اليونان . وهو ما فعله قدموس اذ انشأ هناك مدينة طيبة التي اقام فيها القدمونيون ردحا من الزمن ، وامتد نفوذهم الى شبه جزيرة البيلوبونيز اليونانية وجزر ايجة ، بما فيها كريت .

جرت هذه الحوادث كلها ، كما تقول الاخبار شبه الاسطورية قبل مولد

هرقل (ابن امفتريون) في اليونان بخمسة اجيال . ثم ان صراعا عنيفا نشب بين مدينتي ارغوس وطيبة اسفر عن النهاية المفجعة للسلالة القدمونية ، كما جاء في الموسوعة البريطانية .

بعد ذلك اندلعت الحرب الطروادية ، وطمس تاريخ القدمونيين الكنعانيين ، حتى ان إلياذة هوميروس لم تكن تأتي على ذكرهم الا وتقرنهم بالهزائم المنكرة . لكننا نقف على شذرات هنا وهناك ، بين سطورها ، تعترف بفضلهم الحضاري على اليونان يوم كانت هذه الاخيرة متخلفة .

تأتي وقائع هذه الاسطورة معززة للتحليل اللغوي لاسم اوروبا الذي يؤكد هويتها السامية ، فهي ابنة كنعان ، وكان موطنها الاصلي في صيدا ، ثم ارتحلت الى الغرب . الى كريت . ومن هناك ، كما جاء في اخبار اخرى ، انتقلت الى البر اليوناني ، بعد ذلك سميت القارة الاوروبية باسمها .

وحتى صُور هذه «الاميرة» كانت تظهرها بزي شرقي ، في لباسها ، بما في ذلك لباس الرأس . وجاء ذكر اوروبا في الياذة هوميروس وعند هزيود ايضا ، وهما اقدم مرجعين يونانيين ، كشقيقة لقدموس او تمتّ له بصلة قربى حميمة ، وابنة فينقس . وفينقس يرمز عند هوميروس للفينيقيين . اما عند هزيود فهو ابو ادونيس . واسم هذا الاخير سوري ، مشتق من (ادون) الكنعانية ،وتعني «سيد» . وورد اقدم ذكر للجذر ADANA في الواح ايبلا (قرب حلب) ، ويذكرنا بمادة IDN (W) المصرية القديمة ، وتعني مندوب ، حاكم ، كما يقول مارتن برنال في كتابه «اثينا السوداء» .

والان ، لنتفحص صدقية هذا التفسير للدور الميثولوجي لاوروبا واسميائها (جمع سمي) : كان لاوروبا مركز عبادة في مدينة غورتين على مقربة من الساحل الجنوبي لكريت .

وخارج كريت كانت تقترن بمدينة تيوميسوس على البر اليوناني ، وهي الوطن الاسطوري لشقيقها قدموس . ويشار الى كهف هناك قيل ان زيفس اخفى فيه اوروبا . وهناك شخصيتان اخريان تحملان اسم اوروبا ، هما من نفس

المنطقة الاخيرة . احداهما تدعى اوروبا ابنة تيتيوس Tityos . واستنادا الى الاوديسة كان تيتيوس ابن الارض . وهذا يؤكد لنا ان اسمه مشتق من الجذر الاكدي « طيط » ، ويعني « طين » . وهناك إله سامي غربي ، يدعى « ط ط » ، بالاوغاريتية الكنعانية .

لكن هل توجد رموز عند الساميين الغربيين تحمل اسما مماثلا لاوروبا ؟ هناك نص اوغاريتي جاء فيه ان تقدمة قدمت لعرب شفش التي تجسد الشمس الغاربة . كما ان كلمة « عرب » السامية الغربية استعيض عنها ايضا بلفظة « ليلو » (ليلة الاكدية في نص اوغاريتي اخر :« و ل ل ل . ش ف ش . ف غ ر» .

وجاء في النص الاوغاريتي الرقم ١٠٤ (من الواح رأس الشمرا قرب اللاذقية) ، ما ترجمته :

« اغني لسيدتنا ، إلاهة
المساء ، المساء ، العروس المحجبة
في المساء تدلف الى الغروب (. . .)
عندما تألقت ، يا ليلة ، عروسة(. . .)
الليل ، العروس المحجبة (. . . .)
دلفت الى المغيب .
هل لي ان اغني لك (. . .)
انهم يتضرعون اليك ، دهماء الـ . . . .( )
وقطيع الـ . . . . ( )
لكي لا تنسي
(. . . .آ) نو ، سيد الآ ( )
(. . . . سيد)
الحكمة . . . . ( ) » .

هذا النص الاوغاريتي يقدم لنا جوهر اسطورة اوروبا : إلاهة المساء ،

العروس المحجبة ، التي تدلف الى عالم الغروب ، على نحو ما حُملت اوروبا (= الغروب/ المساء) غربا ، الى كريت ، وهناك اصبحت زوجة زيفس . واهم ما في هذا النص «المحجبة» وبالاكدية : كتّمتم ، من الجذر كتم) . وفي النص البابلي القديم المقابل لهذا النص ترد عبارة «محجبة هي الليلة» . وكانت تقال ايضا عن عشتار في ترتيلة بابلية قديمة : «انها مظفرة ، الحجب ملقاة على رأسها» . والحجاب ظاهرةتلازم صورة اوروبا على قطع النقود المكتشفة في غورتين بكريت ، وفي صيدا ، وعلى تماثيلها الصغيرة .

ومما له دلالة ايضا ان الكلمة السامية التي تقال للحجاب هي «كتمو» ؛ واشتق الكنعانيون من هذا الجذر اسما مثل (أ ك ت م ي) ، و (ك ت م ن) . وفي كريت يظهر هذا الاسم بصيغة TEKTAMOS وهو بالاصل TIKTAM وهو اسم علم ايضا . ويعني «محجبة» .

ويقول مايكل استور : «لسنا نعرف من اين اخذ ديودورس الصقلي هذا الاسم (يقصد TEKTAMOS) ، بيد ان اندورن كاتب الاساطير يكتبه بصورة اخرى TEKTAPHOS . . . . وهذا ، على اية حال ، لقب سامي آخر لاوروبا ، يقابل كلمة «تخطف» من الجذر «خطف» . وهذا ما حصل لاوروبا بالفعل عندما خطفها زيفس» .

هناك اسم اخر لاوروبا في غورتين Gortyn الكريتية ، وهو هيللوتس Hellotis . كما كان هناك عيد سنوي يدعى هيللوتيا Hellotia تكريما لاوروبا في كريت ، وفي كورنث في البر اليوناني . لكن كلمة «هيللوتس» تذكرنا بمادة «هلّ» السامية ، ومنها «الهلال» العربية ، وبالاكدية Elletu «المشعة» ، وغالبا ما تقال لعشتار . كما ان «هيلل» هو ابن «شحر» (سَحَر) ، في الاسطورة الكنعانية ، رمز الفجر الذي يقترن بنجمة الصبح .

اما قدموس ، شقيق اوروبا ، فاسمه مشتق من (ق د م) ، ويعني بالحرف الواحد : «امام» ، وفي السياق الزمني : «سابقا ، قبل» . ولعل المعنى يذهب ايضا الى «القديم» . اما في السياق المكاني فيعني «شرق» . وكان الساميون

يقفون بمواجهة الشرق لتحديد الجهات الاربع (من هنا جاءت كلمة Orienta- tion الاوروبية المشتقة من Orient ، اي الشرق) .

والان ، اذا كانت اوروبا هي الغرب ، اي نجمة المساء ، فان شقيقها قدموس ، وكما يفيد اسمه هو الشرق ، اي نجمة الصباح . وكما جاء على لسان فيكتور بيرارVictor Berard في كتابه «الفينيقيون والاوديسة» ان قدموس واوروبا هما مظهرا كوكب الزهرة : نجمتا الصبح والمساء اللتان كان يُظن انهما نيّرتان مختلفتان وكان لهما اسمان مختلفان في اليونانية . كانت نجمة الصبح تدعى باليونانية ايو سفوروس Heosphoros (وتعني مثل كلمة عرب السامية «مساء» و «غرب» في الوقت نفسه) . وحسب العرف البابلي كان كوكب الزهرة كنجمة صباح مذكرا ، وكنجمة مساء مؤنثا . وهذا هو الحال تماما مع قدموس واوروبا في الاطار الجنسي : نجمة المساء تمضي الى الغرب (كما جاء في الترتيلة الاكدية - الاوغارتية) ، وتختفي وراء البحر وينطلق شقيقها ، نجم الصباح بحثا عنها ، لكن الاثنين لن يلتقيا ابدا .

المصادر كلها (بالانكليزية) :

١ - ايلينوساميتيكا ، مايكل استور

٢ - اثينا السوداء ، مارتن برنال .

٣ - الاساطير اليونانية ، روبرت غريفز .

٤ - الميثولوجيا ، ايدت هاملتون .

«آسيا» تحت المجهر اللغوي

اذا كانت « اوروبا » تعني الغرب ، فهل تعني « اسيا » الشرق ؟ وفي هذه الحالة ، هل اطلقت هذه التسمية من قبل الجماعة نفسها التي استعملت كلمة « اوروبا » للدلالة على الغرب ؟

قبل ان نحاول الاجابة على هذا السؤال ، نرى ان نستعرض بعض الآراء ـ الاخرى ـ حول كلمة « آسيا » ، التي يبدو انها اكثر غموضا من اسم « اوروبا » .

« ان الاسم الجغرافي (آسيا) ، Asia ، هو على نحو اكيد تقريبا تلاعب لفظي على كلمة (أسا) السامية ، التي تفيد معنى العلاج والمداواة ، ومنها الآسي ، اي الطبيب » هذا ما يقوله جون الليغرو في كتابه (الفطر المقدس والصليب ، ص ١٦٨ ، بالانكليزية) . وهو رأي قد لا يشاركه فيه الكثيرون ، اما اريك پارتريج Eric Partridge فيشير في قاموسه Originsالى ان الكلمة ـ آسيا Asia ـ من اصل غامض . لكنه يضيف : « ولكن لعلها من الآشورية آسو (الادق : آصو) ، وتعني (الشرق) ، وذلك كمقابل لكلمة Erebالغرب (Eu- rope) » . ثم يستدرك مستشهدا برسالة لأرل ولسون Erle Wilsonجاء فيها قوله : « لاحظ ان الپولينيزيين قدموا من آتيا Atia الاسطورية ، التي هي ربما

آسيا Asia إياها » . مع هذا يرى اريك پارتريج ان كلمة آسيا تعود ، على اغلب الظن الى اللفظة الايونية (اليونانية) Asie ، من الجذر - As الذي يبدو انه مشتق من الصينية Yueh - Chi ، وهو اسم شعب بدوي يقطن في آسيا الوسطى ، وذلك استنادا الى W.W.Tarn في كتابه (اليونانيون في باكتيريا والهند) الصادر عام ١٩٣٨ .

وفي عام ١٩٤٦ اشار بوسرت H. T. Bossert المختص بتاريخ الاناضول الى العلاقة بين Assuwa, Isy الاسم الحثي لمملكة تقع غربي الاناضول التي اشتق منها الاسم اليوناني Asia . ومنذ عام ١٨٨٦ اشتق المؤرخ والمختص بعلم المصرويات Gaston Maspero اسم آسيا Asia من مادة isy التي يذهب الى انها كانت تطلق على Alasia (الاسم القديم لقبرص) . وفي حين تبدو العلاقة بين اسويا وآسيا واضحة ، فان اصلهما ليس كذلك ، كما يقول مارتن برنال في كتابه (اثينا السوداء ، ج٢) . وكذلك ، في حين يبدو من المرجح ان iisy كانت صيغة قديمة لـ Alasia (قبرص) ، فمن الممكن ان تكون هي اصل isy ومن ثم Assuwa ، وبالتالي Asia ، كما يقول برنال . بمعنى ان الاسم الاغريقي Asia مشتق من اسم محلي قديم في مملكة Assuwa ، ورد ذكره في النصوص الحثية ، ويقع غربي الاناضول ، ويذكّر بأسوس Assos اسم مدينة في المنطقة المتاخمة لطروادة . وعندما كانت المملكة الليدية في غربي الاناضول ملحقة بالامبراطورية الفارسية في القرن السادس ق .م . توسع الجغرافيون اليونانيون في معنى « Asia » . واعطوها مفهومين : اولهما يشمل كل منطقة الاناضول ، والثاني يطلق على احدى القارات الثلاث ، مع اوروبا وليبيا (اي افريقيا) .

وقد سار هيرودوتس على نهج سابقيه في استعمال المعنى الثاني ، ولان كتاباته لاتتطرق الى ذكر الاناضول ، فيبدو من المرجح انه ، على غرار الجغرافيين السابقين واللاحقين ، اطلق اسم « Asia » على ما سمي فيما بعد باسم « آسيا الصغرى » .

وفي النصوص المصرية القديمة ظهر اسم « آسيا » للمرة الاولى بصيغة Asy كاسم لبلاد قصية - في اطار المدارك الجغرافية المصرية المتواضعة يومذاك - وورد ذكرها مع الكفتيو Keftiu (ربما يقصد بهم سكان كريت او جزر ايجه) في نقش يمجد انتصار الفرعون تحوتمس الثالث . وورد هذا الاسم ايضا في الياذة هوميروس (الكتاب الثاني ، البيت ٦٤١) في سياق الكلام على اسراب من طيور برية مائية تطير فوق غياض آسيوية . اما هزيود الشاعر اليوناني المعروف (القرن الثامن ق .م .) فكان اول من صور آسيا كحورية . ثم اشار المؤرخ اليوناني هيرودوتس الى اسطورة متداولة ، تتحدث عن آسيا كزوجة لپروميثيوس ، ابن الجبار اياپيتوس ، وفي رواية اخرى انها كانت زوجة ايا پيتوس نفسه وام پروميثيوس . واياپيتوس هو يافث في التوراة ، وهو احد ابناء نوح ، وفي الاسطورة ايضا ان آسيا ام اطلس .

وهناك اكثر من شخص يحمل اسم آسيوس Asios في الالياذة ؛ احدهم قتله هيكتور البطل الطروادي ابن پريام ملك طروادة . وآسيوس آخر ، طروادي ، هو ابن هيرتاكوس (لفظ من اصل غير يوناني) ، وثالث هو آسيوس ابن اداماس (آدم) ، طروادي ، ايضا ، ورابع ، وخامس . . . .

وهناك اسم مؤنث مشتق من آسيا ، هو اسيونة Hesione ويعني ، كما يقول روبرت غريفز ، سيدة آسيا . واسيونة هذه هي ابنة لوميدون في الاساطير اليونانية . شاهدها هرقل عندما كان بصحبة تيلامون ، في طريق عودتهما من بلاد الامازونيات . (في رواية اخرى في طريقهما مع بحارة الارغونوت الباحثين عن الجزّة الذهبية) موثقة الى صخرة وهي عارية ، الا من حليّها ، على ساحل طروادة .ففك هرقل قيودها . وتقول الاسطورة ان اباها لوميدون غش هرقل ، عندما اعطاه جيادا فانيةبدلا من الجياد الخالدة التي وعده بها مقابل الجميل الذي طوقه به باطلاق سراح ابنته آسيا التي عُرضت لهولة البحر لتفدي طروادة . فقرر هرقل اقتحام طروادة وتدميرها (وذلك قبل حرب طروادة الشهيرة التي كانت موضوع الياذة هوميروس) .

وقتل هرقل لوميدون ابا آسيا ، وجميع اخوتها باستثناء فودارسس الذي نصح اباه بعدم غش هرقل . وبعد ان سلب طروادةاعطيت اسيونة لتيلامون وسمح لها بفدية اي شخص من جماعتها من الاسرى ، فوقع اختيارها على اخيها فودارسس . وعند ذاك غُيِّر اسمه الى پريام Priam الذي يعني (المستَرَد ، او المفتدى) . وهو الذي اصبح ملكا على طروادة التي غزاها الآخيون اليونانيون . وكانت هذه الغزوة موضوع الياذة هوميروس .

من كل ما تقدم يبدو انه ليس هناك رأي قاطع حول اصل كلمة آسيا . وهذا يشجعنا على تأييد الرأي القائل باصلها السامي من الجذر «اصو» بالاكدية او الاشورية ؛ وبالعبرية «ياصاء» ويعني : خرج ، طلع ، اشرق (ويقال في الشمس) ؛ وبالارامية «يعا» ، حسب القاعدة ، حيث تقابل العين الآرامية صادا او ضادا في اللغات السامية الاخرى ، وتعني الكلمة : انطلق ، اندفع ، ازهر . وبالحبشية «وضأ» : طلع . وبالعربية «وضُوَ» : حسن وازدهى ونظف . فالوضاءة : الحسن والنظافة والبهجة . والوضوء للصلاة : التطهر . لكن المعنى الاكدي هو الاصل على ما يبدو . فآسيا يمكن ان تعني منطقة الشمس المشرقة ، او شروق الشمس . وهذا يدعونا للاعتقاد بان الجماعات السامية التي كانت تقيم شرقي اليونان ، اي الدانيين ، او الكنعانيين ، اطلقت اسم آسيا على المنطقة التي تقع الى الشرق منهم ، وهي آسيا الصغرى او الاناضول ، مثلما اطلقت اسم اوروبا على وسط اليونان اول الامر ، فغربيها فيما بعد .

عشتار، افروديت، النخلة، واشياء اخرى

لعشتار حضور متميز في الاساطير القديمة ربما بصفتها إمتدادا للام الكبرى التي كانت لها الصدارة في عبادات العصور الحجرية ، قديمها ، ووسيطها ، وحديثها . فهي ـ اي عشتار ـ تظهر في التماثيل امرأة حسنة الوجه ممتلئة الفخذين بافراط ، وقد امسكت ثدييها بيديها ، على نحو ما كانت في الام ـ الرمز تصور في التماثيل لدى الشعوب القديمة في مرحلة سيطرة المرأة . ولا يدخل في نطاق هذه الكلمة الحديث عن الجذور التاريخية لعشتار والصور المتعددة لها عند الاقوام التي كانت تقدسها . ومن شاء الاطلاع على هذه التفاصيل نحيله الى كتاب فراس سواح القيّم «لغز عشتار» الذي يعالج الموضوع باسهاب وشمولية . اما كلمتنا هذه فسنكرسها للحديث عن العلاقة اللغوية بين اسمي «عشتار» البابلية و «افروديت» اليونانية ، مع شيء من الاستطراد .

في البدء نقول ان من عادة اي شعب عند استعارة كلمة من لغة اخرى ان ينحتها ـ ان امكن ـ بالصورة التي تلائم لغته القومية ، لتتخذ لها دلالة في تلك اللغة ، ولترتدي طابعاً قوميا ، او ليسهل حفظها . على سبيل المثال ان الاغريق

اغرقوا (نحتنا الفعل من كلمة «اغريق») اسم (كنعان) وسموه (اجينور) -Ag-enor الذي يعني عندهم (رجولي) ، وفصلوا قصته على مقاييسهم الاغريقية ، فاعتبروه ابن پوسيدون من زوجته ليبيا ، وتوأما لبيلوس (بعل) ، وزعموا انه غادر مصر ليستقر في ارض كنعان ، وهناك ولد له قدموس ، وفينقس ، واوروبا ،الخ . ومثالنا الاخر اسم (فينيقيا) الذي يقال له باليونانية -Phoe-nikes ، التي تشتق تقليديا (عند اليونانيين والاوروبيين) من phonos «سفاح ، متعطش للدم ، احمر بلون الدم» ، والاولى ان يعود اشتقاقها الى جذر فينيقي ، هو «الفوة» كمايلفظ بالعربية ، وهو نبات معروف بصبغته الحمراء ، وكان معروفا في بلاد الشام ، واشتهر به الفينيقيون . ومن مفارقات قواميسنا ان «المنجد» يعتبر كلمة «الفوة» يونانية(!) مع انها سامية قديمة ، قدم الكنعانيين .

واسم افروديت Aphrodite مثال اخر على ذلك . فهو يلفظ باليونانية Aphroditi ، ويعني عندهم «وليدة الرغوة او الزبد» . ونسجت قصة لمولد افروديت تنسجم مع هذه التسمية . لكننا قبل ان نروي هذه القصة نود ان نؤكد ان اقدم اشارة يونانية الى افروديت وردت عند هوميروس (القرن التاسع او الثامن ق .م .) ، حيث ذكر انها ابنة زيفس (اكبر الهة اليونان) من احدى زوجاته المدعوة (ديونة) . لكن ديونة ، هذه ، نكرة لا يكاد يكون لها حضور اخر في الاساطير اليونانية . ودليل تهافت هذه الاسطورة ان اسمها ـ اي ديونة ـ نفسها مشتق من (زيفس) . وبدلا من ذلك نسج اليونانيون قصة اخرى عن مولد افروديت ، اكثر تماسكا من هذه ، وتنسجم مع اشتقاق اسمها ، بلفظه اليوناني . ومفاد هذه القصة ان كرونوس ، بتحريض من امه Gaea ، قطع الاعضاء التناسلية لابيه اورانواس ، ورماها في البحر ، فطفت فوق سطح الماء ، مخلفة زبداً ابيض ، ومن هذا الزبد ظهرت افروديت .

لكن الباحثين يجمعون على ان هذه القصة مفتعلة لاجل ان تضفي صدقية على اسم افروديت الذي يعني باليونانية «وليدة الزبد» كما اسلفنا . جاء في

موسوعة «لاروس» الميثولوجية بهذا الصدد ما يلي : «يجب الا تضللنا الخرافة التي نُسجت في مرحلة متأخرة لتبرر اشتقاق الاسم من الزبد ، في حين يبدو ان اسم افروديت ذو اصول شرقية ، ومن المرجح فينيقية ، كالالإهة نفسها (يقصد افروديت) ، صنو عشتار البابلية - الآشورية ، وعشتارت الفينيقية - السورية» ، وجاء في هذه الموسوعة ايضا : «ومن فينيقيا انتقلت عبادة افروديت الى كيثيرا (جزيرة تقع بين كريت ولاكونيا) ، وهي مركز تجاري فينيقي ، ثم الى قبرص (من هنا جاء لقبا افروديت الكيثيرية والقبرصية اللذان يرد ذكرهما عند هوميروس) ، ثم انتقل الى اليونان ووصل حتى صقلية .

وتنبغي الاشارة الى ان جزيرة كيثيرا كانت فينيقية ، واسمها مشتق من الجذر السامي (كتر) ، ويعني «تاج ، عمامة» ،والكتر بالعربية : السنام المرتفع . وحتى اسطورة ولادتها في البحر من زبد اعضاء اورانواس تقول ان انفاس زفيروس (الريح الغربية) حملتها الى شاطىء جزيرة كيثيرا ، وهناك ولدت ، ثم انتهى بها الطواف في قبرص . ومن الاشارات - اليونانية - على جذورها الفينيقية ، او الشرقية ، انها كانت ام هارمونيا التي تزوجت قدموس (الفينيقي) .

ويرجح الدكتور ارنست كلاين في معجمه لاشتقاق المفردات الانكليزية ان اصل اسم Aphroditi هو Apthorithiاو Aftorithi ، وحصل التغير في اللفظ بتأثير صيغة الكلمة Afros (زبد) ، انسجاما مع قصة ولادتها المزعومة من الزبد . وتذكرنا Aftorithi بكلمة «عثتر» او «عشتر» او «اشتوريث» ، وهي اصل كلمة «افروديت» ، كما جاء في قاموس الدكتور ارنست كلاين ، لكن ما هو اصل اسم «عشتار» .

في الموسوعة البريطانية ان اقدم نص مدون لاسم عشتار هو «اشدار» Ash - dar الإلاهة الاكدية المقابلة للسومرية الاقدم انيني Innini (سيدة السماء) . وكل الدلائل تشير الى ان الاسم سامي الاصل . اما اين نشأ هذا الاسم فغير معروف بصورة قاطعة ، انما يرجح في اريك Erech حيث نجد فيها

عبادة الرمز ـ الام السومرية لا تقترن بعشير مذكر . واريك هي اوروك Urukالسومرية ، او الوركاء الحالية ، جنوب العراق .

وكان «آشارو» Asharu إلها للحصاد في بابل في ايام الملك السومري غوديا Gudea (حوالي ٢٤٠٠ق .م .) ولعله كان اسما آخر لننغرسو Nin-girsu (كما جاء في كتاب G.A.Barton : جذور الساميين والحاميين ، طبعة جامعة بنسلفانيا ، ١٩٣٤) .

وهناك كلمات أخَر ، لها دلالاتها ، قريبة في مبناها اللفظي من مادة (عشتر) ، نذكر من بينها : العثر (وزن درب) وهي النخيل التي تشرب بعروقها من المطر يجتمع في حفيرة ، والعشير ، اي القريب والصديق والزوج ، والعشيرة كذلك ، والاثر ، واشور (الاله الاشوري) ، واوزيرس (الاله المصري) ، وربما الثور ايضا ، والثرى (التراب) ، وغير ذلك ، مثل العدد عشرة .

وكانت الاشيرة (لاحظ الاشارة) بالاساس عمودا خشبيا يوضع عند حدود البيوت المقدسة (الحرم) لدى الساميين ، ثم صارت في ما بعد إلاهة ويقول بارتون إن النخلة كانت إلاهة عربية ، وكانت تلقب بـ «عثتر» او ربما (عثير) ، وكانت رمزا دينيا في الجزيرة العربية وشمال افريقيا حتى قبل تدجينها ، وكانت روحها تسمى عشيرة (اي صديقة) . ويرى بارتون ايضا ان الاسماء التالية : اوزيرس ، وآشور ، واشيرتا ، واثيرتا ، واشيرة ، اقدم من عثتر وعشتار والاسماء المقابلة لهما في بقية اللغات السامية ، وان هذه الحقيقة تجعلنا نميل الى الاعتقاد بان المجموعة الاولى من الاسماء نشأت عندما كانت النخلة ما تزال غير مدجنة عند الساميين .

لكن عبد الحق فاضل يرى ان اصل هذه الاسماء كلها يعود الى مادة (الثور) . ويدعم رأيه بقوله : «كانت للثور اهمية عظمى عند الاقدمين . فأما الفرعونيون فقد عبدوه وعبدوا انثاه . واما الهنود فما زالوا يعبدونها ـ البقرة . واما الآشوريون فقد اتخذوا الثور شعارا لدولتهم كرمز للقوة ، وجعلوا له في

تماثيلهم رأس انسان وجناحي طائر كناية عن الحكمة والتحليق بالاضافة للقوة . . . . . (عن كتابه : «تاريخهم عن لغاتهم» ، ص ١٠٩) . والثور ، على ما يرى الاستاذ عبد الحق فاضل ، من الثرى ، اي التراب ، لان الثور من طبعه الهيجان ، وبهيجانه يثير الثرى .

ولعل هذا الرأي ، اعني اشتقاق اسم الثور من الثرى او الثوران ، لا يبدو غريبا جدا ، فهو يذكرنا باشتقاق الكلمة الهندية ـ الاوروبية OX من اصل مماثل . فهذه الكلمة ترجع الى الجذر الهندي ـ الاوروبي uks (ينثر ، يرش) تماما كالعلاقة بين (ثار) و (اثار) و (الثور) . لكن البت في هذا الامر صعب . وقد ابتعدنا عن الموضوع بعض الشيء .

من جهة اخرى نرى ان عشتار (البابلية) او عشتروت (بالفينيقية) ، او اشتوريت (بالعبرية) او عثتر (بالعربية الجنوبية) ، كانت ابنة سين (الإله القمر السامي) وشقيقة شمس . وهي نجمة الصباح تارة ، ونجمة المساء تارة اخرى ، اي نجمة الزهرة .

وكان يرمز لها عند البابليين بنجمة ذات ثمانية اشعة او ستة عشر شعاعا ، منقوشة داخل دائرة ، اما عند السومريين فكان رمزها حزمة قصب مضفورة من الاعلى ، ويتدلى منها علم (وذلك من بيئة الاهوار السومرية التي يكثر فيها القصب ، ومنه تبنى بيوتهم) . ومن اسم عشتار جاء اسم النجمة في اللغات الهندية ـ الاوروبية اذ يظن ان لأوسترو Austro إله الربيع عند الشعوب التيوتونية (الجرمانية) علاقة بعشتار ، ولا يزال اسم Stella ، ومثلها Stara ، وكذلك Astra ، باقيا في لفظة Easter اي عيد الفصح ، عيد الربيع (ينظر بهذا كتاب الدكتور انيس فريحة : «ملاحم واساطير في اوغاريت» ، وكتاب ساباتينو موسكاتي : «الحضارات السامية القديمة» ، الترجمة العربية) . ومن هذه المادة جاءت كلمة Star الانكليزية ، ومثلها Aster اليونانية ، وكلمة Star الهندية القديمة ، وكلمة Shittar الحثية وكلمة Stella اللاتينية ، الخ . ويرجح الدكتور ارنست كلاين في قاموسه ان هذه الكلمات ترجع الى صيغة Astero

الهندية ـ الاوروبية ، التي يظن انها ترجع الى كلمة (عشتار) السامية . ولا ننسى ان «عشتار» كانت «نجمة» الزهرة .

ومن هذه المادة جاءت كلمة Astronomy (علم الفلك) ، وكلمة Astrol-ogy (علم التنجيم) ، وكلمة Astrolabon (الاسطرلاب) .

ووقفنا ايضا على رأي آخر حول اشتقاق اسم افروديت : يرجح مارتن برنال ان اسم Aphrodite مشتق من الكلمتين المصريتين القديمتين (ف ر . و ء ء د ي ت) اللتين تعنيان «بيت و ء ء د ي ت» . وكان هذا الاسم يطلق في مصر على مدينتين ـ احداهما على دلتا النيل ، عُرفت عند اليونانيين بأسم Bout/os ، والاخرى في مصر العليا ، وتدعي باليونانية Aphroditopolis ، اي مدينة افروديت ـ ويوضح علاقة (و ء ء د ي ت) بأفروديت . ويرى برنال ان اشتقاق اسم افروديت من (ف ر . و ء ء د ي ت) تدعمه الحجة الآتية : كانت (و ء ء د ي ت) إلاهة الخصب ، وكانت تُقرن بالنمو غبَّ الفيضان ، مثلما كانت تقرن افروديت بالربيع والحب الفتي . وكانت وءءد ي ت تقرن ايضا بالحيّات التي يكثر وجودها في ذلك الفصل (الفيضان) . ومما له دلالة ان هناك لُقية مصرية عُثر عليها في كريت ترقى الى المرحلة المينوية الوسيطة (في حدود ٢٠٠٠ق .م .) لقاعدة تمثال لكاهن و ء ء د ي ت . وتوحي الكتابة الهيروغليفية غير المتقنة المنقوشة عليه بانه نُحت محليا (في كريت) . وفي كافة الاحوال ، ان هذه اللقية تشير الى ان هذه العبادة كانت معروفة في كريت في ذلك الزمن . ومن المدهش ايضا ، ان نجد العديد من التماثيل والصور من هذه المرحلة لإلاهة جميلة وجذابة ممسكة بحيتين ، ينسبها بعض الباحثين الى افروديت . يبدو ، اذن ، من المرجح ان يعود تأريخ وجود هذه الإلاهة في كريت الى التأثير المينوي (= الكريتي) ـ الشامي ـ المصري في فترة الاحتلال «الهكسوسي» لمصر بين نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن السابع عشر ق .م .

عملية قيصرية ام عملية سومرية؟

من المعروف ان الجنين اذا تعذرت ولادته بصورة طبيعية ، تُجرى عملية لاخراجه من بطن امه . وتسمى هذه العملية ، عملية شق البطن ، قيصرية . ونحن نستغرب لماذا تكرست هذه التسمية مع ان مثل هذه العملية كانت معروفة منذ ايام سومر المبكرة في وادي الرافدين ، اي قبل ان تعرف عند الرومان بزهاء الفي سنة . وقد تحدر الينا اكثر من نص سومري وبابلي حول الولادة الطبيعية ، وغير الطبيعية التي تقتضي استعمال العملية الجراحية عند اخراج الجنين من الرحم .

جاء في ملحمة (اينوما ايليش = حينما في الاعالي) المعروفة بملحمة الخليقة البابلية ما يلي :

« شابزو ، (. . .) التي « فحصت الرحم » (رحم تعامت)
التي رفضت تسليم فاعلي الشر
التي تمارس عملية توليد طبيعي لانجاب اطفال الخير ، اخرجت
الطفل الشرير
جهيضا (اي مولودا ميتا)

التي فصلت كل جنس على حدة ، طفل الكذب ، وطفل الصدق ،

التي اخرجت جهيض كل عدوّ ، بآلة الكاكّو . . .الخ » .

ها هنا اشارة واضحة الى « فحص الرحم » والولادة الطبيعية ، والولادة بشق البطن باستعمال آلة الكاكّو . انما يفهم من النص ان هذه العملية الاخيرة تُجرى عندما يكون الجنين ميتا في بطن امه .

وفي قصة (ايتانا) وزوجته (مودام) التي ترقى الى ما بعد الطوفان مباشرة ، نقف على معلومات اخرى حول عملية اخراج الطفل من بطن امه . وإيتانا هو احد اقدم ملوك سومر . كانت زوجته مودام عقيما . ولكي لا ينقطع نسله ، حاول العثور على « عشبة الانجاب » لزوجته . وتروي لنا قصة إيتانا ان افعوانا ونسرا عاشا على شجرة واحدة جارين طيبين يعين احدهما الآخر . لكن النسر نكث هذا العهد ذات يوم فالتهم صغير الافعوان . فتظلّم ابوه عند إله الشمس « شماش » الذي نصحه بأن يختفي في احشاء ثور نافق ليترصد النسر وينتقم منه . وعندما حط النسر على جثة الثور النافق ليلتهمها ، انتقم منه الافعوان على النحو الآتي : امسك بالطير الكبير وكسر مخلبه ، ورماه في حفرة . . . وكان هناك رجل يدعى ايتانا ، ليس له اطفال ، يبحث عن « عشبة الولادة » التي لا تنمو الا في السماء . تضرع ايضا الى شماش ، فنصحه بانقاذ النسر ، ليكسب وده ويتخذه واسطة للطيران الى السماء . وهذا ما فعله إيتانا . « ثم وضع صدره على صدر النسر ، ووضع يديه على ريش جناحيه ، ووضع ذراعيه على جنبيه » . وبهذا الوضع غير المريح انطلق ايتانا في رحلة محفوفة بالخطر . وشيئا فشيئا صار يرى الارض تتقلص الى قطعة صغيرة كالحقل ، والبحر بحجم سلة الخبز . حتى اذا اختفى منظر الارض والبحر استبد الرعب بإيتانا وقال : « يا صديقي ، لن اواصل العروج الى السماء! » ثم ارخى قبضته ، وسقط الى الارض ، يتبعه النسر . وعند هذه النقطة الحرجة يتوقف

النص الذي عثر عليه مخروما . لكننا نستطيع الاستنتاج بأن إيتانا حقق غرضه ، فقد اصبح له في نصوص اخرى ولد وريث يدعى بالخ ، وعاش هو ١٥٦٠ سنة .

وورد ذكر إيتانا في سلالة اور الثانية (لما بعد الطوفان) . كما ورد اسمه في ملحمة جلجامش :

في منزل الغبار ، الذي دخلت ،
يقيم رئيس الكهنة ومساعده ،
يقيم المعزّم والمعزوم
يقيم إيتانا ، ويقيم سومو قيم

ويحدثنا نص آخر عن عملية الولادة «القيصرية» لزوجة إيتانا ، المدعوة مودام . جاء في هذا النص :

(١) (السطر الاول مشوه تتعذر قراءته)
(٢) (اجريت) (لابد ان المقصود بذلك عملية جراحية)
(٣) المسالك (المفضية الى رحمها) تقلصت .
(٤) لذلك ، (حين تلمّ) برحمها نوبة مرضية ، فانها تعاني من عجز (في امدادات الدم) .
(٥) (ثم) أزال الاشيفو (الشافي او العرّاف او الطبيب) العظام بآلة .
(٦) لكن الآلات التي (خرقت جدار الرحم لسوء الحظ ، سببت نزيفا)
(٧) ولصيانة الدم حرصت على ان لا تذهب الى المياه الراكدة .
(٨) لكن الجسد لم (يتعرض للتلوث) .
(٩) وعندما توقف النزف الذي تعرضت له ، تحسنت حالتها .

ان السطرين الخامس والسادس ينطويان على اهمية كبيرة لانهما يلقيان ضوءا على ممارسة القبالة (التوليد) في الازمنة القديمة . وقد تطرق الى ذكرهما برذويل وسانديسون مؤلفا كتاب (الامراض في العصور القديمة) الصادر في العام ١٩٦٧ ، في الفصل المعنون (ولادة الطفل واضطرابات الرحم) . جاء في كتابهما هذا : «اذا حصل مكروه ، ومات الطفل في الرحم ، فثمة دليل واضح من نصين ادبيين هما ملحمة الخليقة ، ونص جديد حول اسطورة إيتانا ، يشير الى ان عملية اخراج (بالاكدية : نشاخو) الجنين تم اجراؤها باستعمال آلة الكاكّو KAKKU ، او نوع من الآلات الجراحية ، هي اغلب الظن على غرار ما وصفه سيلسوس Celsus الروماني بدقة متناهية في كتابه (دي مديسنا : الطب) ،

وهذا ما يقوله سيلسوس :

« والان ، عندما يأتي المرأة المخاض ، ويموت الجنين في الداخل... لا بد من اجراء عملية ، وان كانت تعتبر من اكثر العمليات صعوبة ، لانها تتطلب اقصى الحذر والدقة والنظافة ، ولا تخلو من مجازفة... عندما تصل اليد الى الجنين الميت فانها تحس به فورا... فاذا كان الرأس في الامام ، يجب ادخال خطّاف ناعم ذي رأس قصير... لكن ينبغي الاخذ بنظر الاعتبار ان اخراج الجنين ليس ملائما في كل لحظة ، لانه اذا تمت هذه المحاولة عندما يكون فم الرحم في حالة تقلص ، فان الجنين سيفلت من الخطاف ، وسيدخل رأس الخطاف في فم الرحم نفسه ، وسيترتب على ذلك تشنج في العصب واحتمال الموت» .

من جهة اخرى يعكس النص السومري حسا صحيا سليما لدى سكان وادي الرافدين الاقدمين في ما يتعلق بالتلوث ، ومفهوم العدوى المرضية ،

يذكرنا بما جاء في رسالة زمري - ليم ، ملك ماري (قرب دير الزور) الى زوجته شيبتو ، في حدود عام ١٧٨٠ق .م . يقول فيها :

« بلغني ان السيدة نانّامة (ألمّ بها مرض . وعلمت انها تختلط بالعديد من افراد القصر . وتستقبل كثيرا من السيدات في منزلها . والان ، اصدري اوامر صارمة تقضي بأن لا يشرب احد في الكوب الذي تستعمله ، ولا يجلس أحد على المقعد الذي تستعمله ، ولا ينام احد في السرير الذي تستعمله . وينبغي من الآن ان لا تختلط بأحد في منزلها . ان هذا المرض مُعدٍ (بالحرف الواحد : صابتو ، اي يصيب) » .

الجذور السومرية للافعيين الملتفتين

كرمز للعلاج الطبي

يقال للطبيب بالسومرية آزو A - ZU ، وهي كلمة مركبة من مقطعين يعنيان « خبير بالماء » ، وبالحرف الواحد «العارف بالماء» . ولعل ذلك نتيجة ايمان السومريين بأن الماء اصل الحياة . ومن هذه اللفظة السومرية جاءت كلمة (آسو) الاكدية ، وآسيا الآرامية ، وآسا العبرية ، والآسي العربية ، وكلها تقال للطبيب . كما يمكن ذكر ياسون Jason ، بطل اسطورة الجزة الذهبية الاغريقي ، واسمه يعني (الآسي) . ولعل اسم نبته (الآس) له علاقة بهذه المادة ايضا . والآس بالاكدية البابلية آسو ، وبالسريانية آسا ، وبالعبرية هدس . وهدسة ، اي آسة ، كانت اسم العذراء اليهودية التي اطلق عليها فيما بعد اسم استير . وكان لنبتة الآس اهمية طبية ودينية عند البابليين ، اذ كان دهنها وعطرها يستعملان في التقدمات الدينية ولأغراض علاجية كمادة فواحة ، ولوقف الاسهال ، واستعملوا نقيع حبها لعلاج تدلي الرحم ، ومسحوق اوراقها لاغراض طبية اخرى . وفي مهرجان الفاكهة في فلسطين القديمة ، وهو طقس يرقى الى ايام الكنعانيين ، كان المحتفلون يحملون بأيديهم الآس من بين اغصان اخرى . وجاء في التلمود ان المحتفلين في الاعراس كانوا يرقصون امام

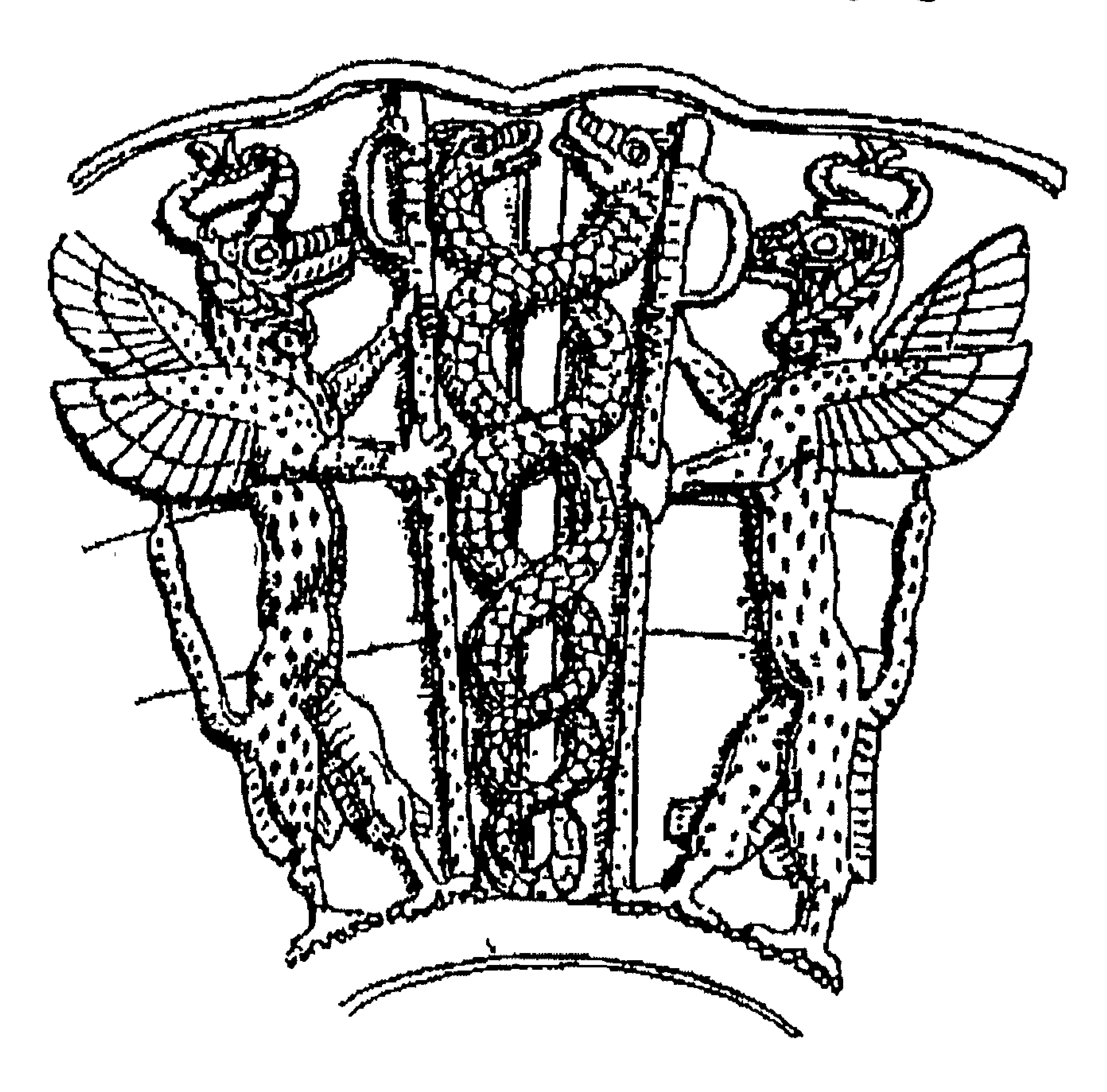
موكب العروس وهم يحملون بأيديهم اغصان الآس . ويكلل بعض المسملين توابيت موتاهم بأغصان الآس ، ويزرعه بعضهم حول القبور . ولا تزال الحدائق في عالمنا العربي تسيج بأحراج الآس . وكان الآس عنوان النصر عند قدماء اليونان ، واقتران الآس بالموت ناجم عن كونه نباتا دائم الخضرة ، فهو والحال هذه رمز للحياة (وبالتالي الحياة في الموت) . وكان الآس في الاساطير اليونانية يقترن بموت الملوك ، كما في قصة ميرتيلوس Myrtilus (ويعني اسمه : الآس) ، الذي كان سائق عربة الملك اونوماوس (في الاسطورة) ، وسحب مسامير - الموت من عجلات عربة سيده ، فسبب هلاكه .

واذا عدنا الى كلمة (آزو) السومرية ، نرى انها تعني ايضا : «نبي ، راءٍ» . وكان المجوس ، وهم «الحكماء ، او السحرة» ، يمارسون الطب ، ولهم معرفة بطب الاعشاب ايضا ، تماما كالسومريين . وكان ديوسقوريدس اليوناني ، صاحب المصنف الشهير حول العلاج بالاعشاب والادوية (ترجم الى العربية في ايام العباسيين) يقتبس منهم اسماء بعض اعشابه ، ويدعوهم «بالانبياء» Prophetai ، وهذا يذكرنا تماما بالدور الذي كان يمارسه الآزو السومري الذي يعني اسمه «نبيا ، او رائيا» .

وكان ننازو Ninazu إله الطب عند السومريين ، واسمه مشتق من Azu كما هو بيّن . وكان رمزه حية او حيتين مضفورتين على بعضهما . وفيما بعد اقتبس اليونانيون هذا الرمز للدلالة على العلاج الطبي ، ولا يزال هذا الرمز يدل حتى الان على العلاج في عالم الصيدلة .

ثم ان الكلمة السومرية التي تطلق على الحية هي موش Mush ، وتطلق ايضا على «الاله الافعى . ويرى مايكل استور ان اسم موسى ، وبالعبرية موشيه ، قد يرجع الى هذه الكلمة السومرية موش ، وذلك من اقتران موسى بالحية . (هناك آراء اخرى حول اشتقاق اسم موسى ، لانرى ضرورة للتطرق اليها الآن ، لأنها خارج نطاق كلمتنا هذه) . ويرى جون الليغرو ايضا ان اسم موسى (موشيه) مشتق من المقطعين السومريين Mush - e ، ويعنيان «حية ظاهرة

للعيان » . وهذه التسمية تذكرنا بعصا موسى والحية . جاء في التوراة : « فقال له الرب ما هذه في يدك ؟ فقال عصا ، فقال اطرحها الى الارض ، فطرحها الى الارض ، فصارت حية . فهرب موسى منها . ثم قال الرب لموسى مد يدك وامسك بذنبها . فمد يده وامسك به . فصارت عصا في يده » (سفر الخروج : الاصحاح الرابع) .



صورة الأفعيين السومريتين اللتين ترمزان للعلاج الطبي

ويدعم استور رأيه بشأن العلاقة بين اسم (موشيه) و (موش) السومرية التي تعني حية بالاستناد ايضا الى دلالة اسم (لاوي) ، الجد الذي ينحدر منه موسى ، ويعني (حية) ايضا ، من الجذر «لوى ، يلوي» ، اي الملتوية او المتلوية . ومن المعروف ان الكهنة اليهود الذين كانوا يمارسون مهنة الطب وتفسير النبوءات يدّعون ان نسبهم يرجع الى لاوي بن يعقوب . ويربط مايكل استور بين (موش) السومرية ومثيلتها (م ش) الاوغاريتية الكنعانية ، الاسم الذي اطلق على ابن بعل من عناة (الالاهة ـ العِجْلة) ، التي حبلت به في العالم السفلي . وقبل مايكل استور كان سايروس غوردن تطرق الى العلاقة بين (موسى) و (م ش) الاوغاريتية . . . . ويمكننا تلمس العلاقة بين الثعبان والثور ، في قول كليمنت الاسكندراني : «الثعبان الذي هو ابو الثور ، الثور الذي هو ابو الثعبان» .

وهكذا ، كانت الحية رمزا للشفاء في وادي الرافدين ، وعند العبريين (حية النحاس ، كما سنرى بعد قليل) ، وفي فينيقيا (اشمون) ، وفي تدمر (شد ـ رفأ) ، وفي اليونان (اسكلبيوس ، دايونيسوس) . ويمكن ذكر إله المعينيين في جنوب الجزيرة العربية : نحاس ـ طاب (نحاس الطيب او الصالح) .

وهناك جناس لفظي في اللغة العبرية بين كلمة (ناحاش) التي تقال للحية ، وكلمة (نحشت) اي النحاس . جاء في سفر العدد في التوراة : «فقال الرب لموسى اصنع لك حية محرقة وضعها على راية ، فكل من لُدغ ونظر اليها يحيا . فصنع موسى حية (بالعبرية ناحاش) من نحاس (نحشت) ووضعها على الراية ، فكان متى لدغت حية انسانا ونظر الى حية النحاس يحيا»(٢١ :٨ ـ ٩) .

كما ان (ناحش) العبرية تعني : يفحّ ، يهس ، يطلق صوتا شبيها بصوت الافعى ، وتستعمل الكلمة على وجه الخصوص عندما يهس العراف او قارىء التعاويذ (وبالتالي : الطبيب) كما تهس او تفح الحية . كما ترد (ناحش) بمعنى ممارسة السحر ، والتنبؤ بالمستقبل . وهناك معنى آخر لها : يصقل ، ومن ثم فان (نحشت) : نحاس . اما (ناحاش) فهي الحية . ويقول غزينيوس انها

سميت كذلك من هسيسها ، لان ناحش تعني : يهس . ولعل العكس هو الصحيح .

ومن المعروف ان (ن ح س) في المصرية القديمة تعني : النوبي (من بلاد النوبة) او (اسود) . وهناك نحسي ، وهو اسم ملك او موظف في ايام الهكسوس في مصر . ثم ان (بنحاس) هو اسم حفيد هارون شقيق موسى ، ويعني : النوبي ، اسود .

وفي العربية ان كلمة (نُحاس) تعني دخان ، اما نَحاس (بالفتح ، او الضم) فهو المعدن الاحمر . ويرى جون الليغرو في كتابه «الفطر المقدس والصليب» ان كلمة (نحشت) العبرية التي تقال للنحاس مأخوذة من السومرية : نا (= حجر) + خوش (= احمر) اي الحجر الاحمر . لكن هذا الاشتقاق قد يفقد قوته اذا اخذنا بعين الاعتبار ان السومريين انفسهم لم ينحتوا اللفظة الدالة على النحاس من هذين المقطعين ، لا هم ولا الاكديون .

وكان يُعتقد ان القدماء انما رمزوا للعلاج او الشفاء بالحية ، لانها تجدد جلدها ، اي انها دائمةالحياة (من هنا التسمية العربية : حيّة) . لكن هذا التفسير يفقد قوته ـ كما يقول مايكل استور ـ اذا علمنا ان العقرب كانت تعتبر ايضا رمزا للشفاء . وهنا لابد ان يكون السم وراء هذا الاعتقاد . اي ان ما له القدرة على سلب الحياة (عن طريق السم) يملك القدرة على منحها ايضا ، اي الشفاء . ويذكرنا جون الليغرو بهذا الصدد بالكلمة السومرية TIN التي تعني (يحيا مثلما تعني (يسمم) .

وهذا يقدم تفسيرا ايضا لاعتقاد القدماء بان آلهة الشفاء هي من آلهة العالم السفلي (تحت الارض ، عالم الاموات) . والحية والعقرب هما من الحيوانات المقترنة بالتراب . ثم ان الاعتقاد باقتران الشفاء بالعالم السفلي متأتٍ ايضا من ان التربة التي يرقد تحتها الموتى تعطي غلة جيدة ، وهي ظاهرة طبيعية معروفة . من هنا جاء في الادب الاوغاريتي ان «الرفائيم» (اشباح الموتى في العالم السفلي) كانوا يُدعَوْن لركوب عرباتهم لزيارة اماكن درس الحنطة والمزارع .

ولم يقتصر الامر على الحية والعقرب ، بل كانت الطيور الجوارح ، كالنسر والصقر والبوم ، تعتبر رمزا للشفاء ايضا . ولان النسور تقتات على جثث الموتى المطروحة في العراء ، فقد كان القدماء يعتقدون ان ارواح هذه الجثث تحل فيها . وهناك علاقة ميثولوجية بين النسر والحية . وفي الكثير من الاعمال الفنية يُدمج بين الحية والنسر في هيئة تنين مجنح . وكان مثل هذه النقوش موجودا بكثرة في صحراء سيناء . وقد تطرق الى ذكرها اشعياء في التوراة ، وهيرودوتس في تأريخه .

العجلة، الجولان، الجالية، الجيل...

من جذر لغوي واحد

اهي مجرد مصادفة ان تكون الكلمات الدالة على العجلة او العربة ، في ثلاث مجموعات لغوية الى جانب اللغة السومرية ، متشابهة او متقاربة في لفظها ، مع ان هذه المجموعات اللغوية مستقلة عن بعضها ؟ فقد لاحظ العالمان السوفياتيان (قبل انفراط الاتحاد السوفييتي) توماس غامكر يلدزة وفياتشلاف ايفانوف ان العربة ذات العجلات كانت تسمى باللغة الهندية ـ الاوروبية الام Keklo ، وباللغات الكارتفيلية (القفقاسية) Grgr ، وباللغات السامية Gal-gal ، وباللغة السومرية Girgir . فهل اخترع العربة احد الاقوام الناطقة باحدى هذه اللغات ثم استعارها الآخرون اسما وصناعة ؟

لكن الامر المحير هنا هو ان اسماء العربة في مجموعتين لغويتين على الاقل (السامية ، والهندية ـ الاوروبية) مشتقة من افعال اصيلة في كل من هاتين المجموعتين ، سنتطرق الى ذكرها بعد قليل . فما السبيل الى حل هذا اللغز اللغوي (نعني به التشابه اللفظي مع احتمال ان الاستعارة قد تكون مستبعدة) .

من المعروف ان الكلمة الهندية ـ الاوروبية الدالة على العربة Keklo مشتقة من الجذر الهندي ـ الاوروبي Kel ـ (يدور ، يفتل ، يثني ، يلوي ، يدور

حول) . وهناك اشتقاقات عدة في اللغات الهندية ـ الاوروبية من هذا الجذر ، مما يؤكد على انه ـ اي الجذر ـ لا يحتمل ان يكون مستعارا (اللهم الا اذا كان مشتركا مع بقية اللغات او بعضها ، في مرحلة ضاربة في القدم) . اما جذر كلمة Galgal السامية فهو (جل) ، او (جال) ، او (جلل) . ومن التكرار نحصل على الكلمة الدالة على العربة . وهذا التكرار اللفظي للجذر هو نحت لغوي منطقي لتسمية العجلة (في كل من هذه المجموعات اللغوية) ، لانه ينطوي على دلالة صوتية للفظة ، تتأتى من حركة العجلة (وكانت دواليبها مصمتة وثقيلة في بادىء الامر ، وتتحرك بجلجة) . من هنا جاء معنى الجلجلة ايضا في اللغة العربية ، وهي كلمة صوتية .

وفي هذه المقالة سنكرس الحديث للجذور اللغوية لهذه المادة واشتقاقاتها في عدد من اللغات ، لننتقل بعد ذلك (في مقالة اخرى) الى تأريخ العجلة ومواطن ابتكارها الاولى .

ان مادة جلل (تلفظ الجيم هنا على الطريقة المصرية في معظم اللغات السامية ، عدا العربية) تعني : يدور ، يتدحرج ، مدوّر ، ومنها اشتقت كلمة gullatu الاكدية ، وتعني : انتفاخ ، كرة . ولابد ان الكلمة العراقية الدارجة gulla منحدرة منها . وكلمة ... galgal العبرية تعني (عجلة) ، و gall السريانية (مدور) ، وكلمة (G1) الاوغاريتية الكنعانية : اناء مدور . وكلمة gll الامهرية الحبشية : مدور . ثم ان كلمة (عجلة) العربية ، والعبرية ، والآرامية (عجلتا) ، مشتقة من الفعل (عجل) الذي يعني في اللغتين الاخيرتين : يدور ، يتدحرج ، لكنه يعني في العربية : يسرع . وهذا الجذر (عجل) يرجع الى مادة (جلل) . فاذا عدنا الى الجذر الاصلي (جلل) نجده يذهب اولاً الى معنى التدوير والتكور والدحرجة ، كما هي الحال في كلمة (جلجل) التي تفيد معنى العجلة ، وكذلك يعني (دُوّامة) في العبرية . كما تعني كلمة Galalu باللغات السامية الغربية ، واستعارتها منها الاكدية ايضا : حصاة . اما (جليل) العبرية فتعني : حلقة ،

وكذلك : دحرجة ، استدارة ، وتعني ايضا : محيط بقعة ما او البقعة الواقعة ضمنه . وهناك منطقة الجليل التي كانت موطنا للفينيقيين في فلسطين . وتعني (جلجلت) العبرية : جمجمة . سميت كذلك لاستدارتها ، وتستعمل هذه الكلمة ايضا عند احصاء الافراد ، بما يعني كذا رأس ، وذلك على غرار اللاتينية Caput ، والالمانية Kopf ، والانكليزية Heads . اما في العربية فستعمل كلمة (رأس) في احصاء الماشية .

ثانيا ، يرد استعمال مادة (جلل) في الاشياء الثقيلة ، والكبيرة ، كالتي تدحرج ولا تحمل . من هنا فان (جل) العبرية : كومة احجار . و (جوليم) : جذوع . سميت كذلك لانها تدحرج . و(جلال) : حجر كبير (بالعبرية) . وتستعمل ، ثالثا ، في ما يدل على امواج المياه التي تندفع الى امام ، كما الدحرجة ، مثل كلمة (جل) العبرية .

اما مادة (جلّ) العربية فمن معانيها : كبر في الحجم ، وهو قريب من المعاني السابقة . والجُلّ : الضخم ، والجلل : العظيم . والجُلّة : قُفّة كبيرة . ومن هذا الجذر جاءت معاني التجلّة والإجلال ، الخ . واذا انتقلنا الى كلمة (جال) نجد انها تعني : طاف ، دار . والجوّال ، والجوّالة : الكثير الجولان . والمجال : محل الجولان . وانجال الغبار : ارتفع وانتشر . والجَولان والجُولان : التراب الذي تجول به الريح على وجه الارض .

وهناك الفعل جلا ، بمعنى خرج (عن بلده ومنه) . والجالية ، مؤنث الجالي : الغرباء هاجروا اوطانهم وتوطنوا البلاد التي نزلوا فيها .

وكلمة (جولاه) العبرية تعني : جلا ، افرغ الارض من سكانها . وتعني : منفى ، او عصبة من المنفيين . وتقابلها في العربية جالة ، وجالية : منفيون . وربما اشتق اسم هضبة الجولان السورية من هذا المعنى ، او من معنى جولان التراب . والجيل : الصنف من الناس ، او اهل الزمان الواحد ، او القرن ، كما تعني بالعربية والعبرية . ولا بد ان المعنى الاصلي للكلمة يرجع الى التدوير .

اما العجلة في اللغات الهندية الاوروبية فهي باليونانية Khuklos ، وبالسنسكريتية Cakrah ، وبالايرانية القديمة Caxra ، وبالسلافية القديمة Kolo ، وبالانكليزية Wheel ، وترجع الى الاسكندنافية Hvel او hjol .

ويلاحظ ان العجلة تقال للدولاب وللمركبة ، وهي بالاصل تعني الدولاب . واستعمل منير البعلبكي في قاموسه (المورد) كلمة (المعجّلة) في مقابل Chariot الانكليزية ، وهي العربة الخفيفة السريعة ، وقد تشتمل على اربع عجلات او اثنتين . وكانت تستعمل للقتال والسباق والصيد والابهة قديما . اما كلمة (مركبة) العربية فمن الفعل (ركب) ، وهي ساميّة ، واستعارتها المصرية القديمة من السامية . لكن كلمة (عربة) ليست عربية ، بل يونانية ، كانت تعني بالاصل سفينة . فالعربات سفن رواكد كانت في بغداد ، واستعملت الآن بمعنى المركبات .

تأريخ العربة

يرى بعض علماء الآثار ان اختراع العجلة او العربة ربما تم في سوريا منذ حضارة تل حلف (٥٢٠٠ - ٤٥٠٠ق .م .) ، وهو رأي ضعيف لانه لا يستند على بيّنات آثارية واضحة ، بل اناء فخاري قد يعطي انطباعا بأنه منحوت على هيئة عربة .

ان اقدم بيّنات على العربات ذوات العجلات ، خارج نطاق وادي الرافدين وما وراء القفقاس ، يمكن ترسمها في عدد من حضارات الالف الرابع ق .م . في اوروبا . وهذه تشمل حضارة الكؤوس القمعية في شمال اوروبا التي ترقى معرفتها بالعربات الى منتصف الالف الرابع ق .م . وحضارة بادن في العصر البرونزي الاخير في حوض الكربات ومثلها في شمال ايطاليا ، اللتين ترقيان الى النصف الاخير من الالف الرابع ق .م . ومنطقة ما بين بحري قزوين - الاسود حيث اخذت تظهر بقايا العديد من العربات التي ترقى الى اواخر الالف الرابع ق .م . ويقول مالوري في كتابه « في البحث عن الاقوام الهندية الاوروبية » الصادر في العام ١٩٩١ : « ونحن نعرف ان العربات ذوات العجلات كانت تستخدم في وادي الرافدين منذ ٣٠٠٠ ق .م . في سومر ، وان وجودها في جنوب وادي الرافدين ليس له صلة واضحة بالهنود الاوروبيين » .

ومن المنحوتات والنقوش السومرية والنماذج الحقيقية التي عثر عليها في قبور ترقى الى الالف الثالث ق .م . يمكن معرفة تفاصيل صناعتها ، حيث تتألف الدواليب أو العجلات من ثلاث قطع من الخشب المصمت ملصقة مع بعضها وملفوفة باطارات جلدية مثبتة بمسامير نحاسية ، وكانت العجلات تدور كتلة واحدة هي والمحور . ولا تزال عربات من هذا الصنف تستعمل في ساردينيا وتركيا ومنطقة السند . وفي حدود العام ٢٠٠٠ق .م . استعملت العجلات في مناطق تمتد بين الهند وسوريا ، لكن مصر لم تستعمل العربات ذوات العجلات قبل ١٦٠٠ق .م . وقبل نهاية الالف الثاني ق .م . اي قبل العام ١٠٠٠ق .م . ، كانت العربات معروفة من الصين حتى السويد .

على ان هذه الطفرة النوعية في المواصلات لم تتم الا بعد ان فطن الانسان الى اهمية الدائرة في تعجيل الحركة وتسريع وتحسين انتاج بعض الادوات . ولعل العجلة ، او الحركة الدائرية التي استعملت للمرة الاولى في ثقب بعض المواد كالعظام والعاج وما الى ذلك منذ العصر الحجري الحديث ، كانت من بواكير هذا الاختراع .

وفي البدء كانت العربات تجرها الثيران او الحمر الوحشية المدجنة ، كالأخدر الذي كان يستعمل في وادي الرافدين ، وكذلك الحمار . وقبل ذلك بمراحل كان كتف الرجل (وربما المرأة في اغلب الاحيان) اقدم وسيلة للنقل (حمل المتاع) . ثم استخدمت ظهور الحيوانات الاليفة ، ولعل الحمار كان اقدمها في القيام بهذه المهمة . فقبل ٣٠٠٠ق .م . كان الحمار المدجن معروفا في مصر ، ولابد انه استعمل للنقل من ذلك التاريخ . وكانت الحمر الوحشية تستعمل ايضا لهذا الغرض في سوريا ووادي الرافدين منذ اوائل الالف الثالث ق .م . ولعل الثور كان اول حيوان وضع على كاهله النير وطاقم العربة ، كما يتضح من النقوش السومرية ، لان هذا الحيوان اصلح لجر العربات من غيره من حيوانات النقل ، بحكم كون كتفه عريضة بالقياس الى الفصيلة الحصانية . اما حيوانات الجر او الحمل الحصانية (كالحمار ، وحمار الوحش ، والحصان ، الخ)

فكانت تعاني كثيرا عند شد حزام الصدر الى صدورها ، لانها ليست عريضة بما فيه الكفاية ، فكان الحزام يمرر ايضا عبر حنجرة الحيوان حتى ليكاد يخنقه . ولم يتم اصلاح وضع الحزام الا بعد استعمال طوق الحصان في اوروبا في القرون الوسطى في حدود القرن التاسع الميلادي .

ولابد ان الدواليب ذوات البرمق (شعاع الدولاب) استعملت بعد تحسين ادوات النجارة (اختراع المنشار بصفة خاصة) . وتم ذلك في وادي الرافدين . وللمنشار حضور في اساطير السومريين والمصريين (تموز النجار ، واوزيرس النشار الكبير) . واستعملت العربات الخفيفة هذه ، لا سيما ذوات العجلتين في الحروب . وكان لمثل هذه المعجلات دور كبير في تعزيز القدرة الحربية لحكم حمورابي وتيسير المواصلات في زمانه في امبراطوريته . واستعملت الخيول لهذا الغرض قبل ذلك الاوان ، منذ القرن العشرين قبل الميلاد . ومن المعروف ان الحصان وصل الى الشرق الاوسط من سهوب اوراسيا . لكن استعمال العربات الخفيفة ذوات العجلتين للاغراض الحربية ربما تم في الشرق الاوسط قبل اوروبا ، مع ان الحصان كان معروفا عند الاقوام الهندية ـ الاوروبية قبل الساميين . ففي احدث كتاب عن هذا الموضوع اكدت ماري ليتاور وجوست كراول ان تطور العربة ذات العجلات الاربع الى معجلة ذات دولابين خفيفين (غير مصمتين) تم في (الشرق الاوسط) قبل وجود اي اثر للهنود الاوروبيين في المنطقة . كما ناقش اللغوي والمؤرخ دياكانوف هذا الموضوع في اطار الحجة الآتية : لما كان حضور الاقوام الهندية ـ الاوروبية في الشرق الاوسط تم بعد ١٦٠٠ق .م ، ولما كان هذا التاريخ متأخرا كثيرا عن استعمال العربات القتالية (المعجلات) في المنطقة ، فلا ينبغي اعتبار المعجلات التي تجرها خيول بينات على حضور الاقوام الهندية ـ الاوروبية هناك .

ويدعم مالوري هذا الرأي في كتابه «في البحث عن الاقوام الهندية الاوروبية» ، وكذلك مارتن برنال في كتابه «اثينا السوداء» (ج٢) . لكن هذا

الاخير لا ينفي احتمال تطور هذه التقنية (نعني بها صناعة العربة الحربية الخفيفة المتطورة عن العربة الرباعية العجلات) على يد الاقوام الهندية ـ الاوروبية ، استنادا الى اقتران الحصان بهم ، واستعمال المعجلات الحربية من آسيا الوسطى حتى ايرلندا . لكنه لا يلبث ان يلجأ الى رأي وسط بهذا الشأن في قوله : «ان السيناريو الاكثر معقولية هو ما طرحته عالمة الآثار الالمانية غيرترود هيرمس في الثلاثينات : ان المعجلة الخفيفة تطورت في اطار الجمع بين الحصان والعربة ، من خلال الجمع بين الناطقين بلغة هندية ـ اوروبية والتقنية الشرق اوسطية» . لكننا نرى ان ارتباط الحصان بالعربة كدليل مرجح على استعمال العربة الحربية السريعة للمرة الاولى على يد قوم عرفوا الحصان قبل غيرهم ، ونعني بهم الاقوام الهندية ـ الاوروبية ، لا ينبغي ان يعتبر حجة دامغة في نسبة اختراع العربة الخفيفة اليهم ، لان الحصان وصل الى منطقة وادي الرافدين في حدود ٢١٠٠ق .م ، وورد اسمه في الالواح السومرية على النحو الآتي Anshe Kur - ra بمعنى (الحمار الاجنبي) او (حمار الجبل) .

ومن المعروف ان الحصان ، وبالتالي العربة التي يجرها هذا الحيوان ، دخلا مصر في عهد الهكسوس (حكموا مصر بين ١٦٧٥ ؟ ـ ١٥٨٠ق .م .) وكان الحصان يدعى في مصر (ح ت ر) ، والعربة (ت ء . ن ت . ح ت ر ي) . ويزعم ديودورس الصقلي (في عصر الامبراطور الروماني اغسطوس) ان المصريين كانوا يستعملون المعجلات منذ ايام الفرعون سيسوستريس (القرن العشرين ق .م .) في سياق اشارته الى ان هذا الفرعون كان عندما يزور معبدا او مدينة ، يفك وثاق خيله الاربعة من العربة ليستبدلها بملوك أو وجهاء من اسراه . لكن هذا الرأي لا تعززه المعطيات التاريخية الاخرى .

وظهر قتال العربات في اور السومرية منذ عصر السلالة الاولى (حوالي ٢٥٠٠ق .م .) . ومن اوضح الامثلة على ذلك منظر معركة العربات في احد المدافن النفقية من المقبرة الملكية في اور . ثم اختفى ليظهر بعد ذلك بألف عام عند الحوريين والميتانيين في سوريا وشمال وادي الرافدين . وانعكس قتال

العربات عند الآشوريين في اجلى صوره . كما كان لقتال المعجلات في اليونان وطروادة سمة متميزة .

ويتحدث عالم الآثار الشهير غوردن تشايلد عن العوامل التي كان لها دور اساسي في نشوء المبارزة بين قادة المتحاربين بالنيابة عن جيوشهم ، لاسيما في مجتمعات يحكمها ملوك صغار او امراء او عسكريون في ما يسمى بمجتمعات الدول ـ المدن ، كما كانت الحال في ميسينيا اليونانية وطروادة ، ويقول : « كانت قوة الامراء تكمن في احتكار وسائل وادوات قتال جديدة ، كالمغول (سيف مستقيم مستدق الرأس ذو حدين) ، وكان هذا باهظ التكاليف يصنع من البرونز ، والدروع الكبيرة ، وعربات او معجلات القتال الخفيفة . وحدثنا هوميروس باسهاب عن هذه الاسلحة في ملحمتي الالياذة والاوديسة ، حيث كانت المعارك تحسم بمبارزات فردية بين المقاتلين الذين يملكون سلاحا باهظ الثمن ويتوجهون الى المعركة بعربات . ان هؤلاء المقاتلين هم الذين يحددون مصير المعركة . اما المشاة فهم مجرد متفرجين ، لان قلة قليلة من المتحاربين كانت قادرة على تحمل تكاليف السيوف البرونزية الطويلة ، والعربات ـ تلك المركبات الباهظة الثمن ـ والخيل الحسنة التدريب ، اما الجماهير فكانت بلا وزن عسكري ، ومن ثم لا اهمية لها سياسيا » .

البحث عن اصل كلمة «الفلسفة»

كلما فكرت في كلمة «فلسفة» اليونانية تملكني احساس بانها قد تكون بمثابة بضاعتنا وقد رُدّت الينا . اما كيف ، فلم اهتد الى ذلك الا اخيراً ، وبمحض المصادفة .

لدى الاحتكام الى القواميس في البحث عن اصل كلمة Philosophy نجد ما يلي : الكلمة مؤلفة من مقطعين يونانيين ، Philo (حب ، اعجاب) ، و so-phia (الحكمة) . فالكلمة تعني باليونانية (حب الحكمة) . ويضيف احد القواميس قائلا : «وكان فيثاغورس اول من اطلق على نفسه Philosophos اي (محب الحكمة) ، بدلا من كلمة Sophos(حكيم) التي لقب بها ، لان هذه الكلمة الاخيرة تفتقر الى التواضع» . وهي التفاتة جديرة بالعظماء ، امثال هذا الحكيم المتواضع .

ولا نريد ان ندخل في تفاصيل المقطع Philos ، فهو لايهمنا . اما المقطع الثاني Sophia ، بيت القصيد ، فالقواميس تفيد بأنه من اصل غير مؤكد . وبهذا اوصدت الباب بوجهنا ، او بعبارة ادق تركته مواربا .

هذه الثغرة شجعتنا على ان نفكر على النحو الآتي : اليونانيون ينتمون الى الاقوام الهندية ـ الاوروبية . معنى هذا ان الكلمة لا وجود لها ـ على الارجح ـ في

لغات هؤلاء الاقوام ، وإلا لاشارات المعاجم الى ذلك . وعند ذاك ، لابد ان تكون الكلمة مستعارة من جيران اليونانيين ، او من قوم آخرين ذوي حضارة متقدمة (لان الكلمة التي نحن بصددها ذات مدلول حضاري متقدم) . فالمناطق المرشحة هي : آسيا الصغرى ، كريت (التي كانت لها حضارة متقدمة قبل مجيء اليونانيين الهنود الاوروبيين اليها) ، مصر ، فينيقيا ، بابل . فأي منها كان الموطن المرجح للحكمة ؟

ربما بابل ومصر ، على وجه التخصيص ، وهذا ما يقره اليونانيون انفسهم ، بعد ان استثنينا الاناضول التي وان كانت مهدا لحضارات مبكرة متقدمة الا انها لم تكن بمستوى ما كانت عليه بابل ومصر . وهذا يصح في كريت ايضا ، فقد كان تقدمها او رخاؤها ماديا اكثر منه روحيا . ومما يبرر انصراف ذهننا الى بابل ومصر ان سيرة حياة فيثاغورس تشير الى انه امضى ردحا من عمره في هذين البلدين . فما هي الكلمة المقابلة لكلمة (صوفيا) Sohia في البابلية والمصرية القديمة ؟ لم اجد سوى مادة (ح ك م) السامية ، التي جاءت منها كلمة «الحكمة» . وهذه الكلمة لا يجمعها جامع - في اطار بنائها الصوتي - مع لفظة (صوفيا) اليونانية .

فلنعد اذن الى حكيمنا فيثاغورس ، فقد يكون مفتاح الحل بيده . لكن ما وقع تحت متناول يدي من مصادر عنه لم يشر الى اكثر من انه امضى سنوات من عمره في مصر وبابل ، وان نظريته الهندسية المقترنة باسمه كانت معروفة في نطاقها او اطارها التطبيقي وليس النظري ، في بابل ومصر . ولم يكن في ذلك ما يشفي الغليل ، او يسلط ضوءا كافيا على ما نحن بصدده .

ثم جاء الغوث - على ما يبدو - عرضا وعن طريق المصادفة . وكما يعثر الآثاري على لقية محددة الهوية ، مقترنة بلقية اخرى يكتنفها الغموض ، عثرت على مرادي . كنت اقرأ قبل ايام في تأريخ اوكسفورد الموسيقى اسهامة للعلامة هنري جورج فارمر عن موسيقى وادي الرافدين القديمة ، فاذا بي اقف على هذه الشهادة : «لعل اكبر مثال صارخ على البصمات الرافدينية (في الموسيقى

اليونانية) هو التراث الفيثاغوري . وقد اشار كتّاب من اليونان وفارس الى ان فيثاغورس نفسه كان سوري المولد ، بعضهم يقول من صور ، والبعض الاخر من صيدا . ثم ذهب الى مصر واقام هناك احدى وعشرين سنة ، ثم اسره قمبيز . وجيء به الى بابل ، وهناك تلقى علومه على يد الكهنة . وبعد بابل اقام في ساموس (جزيرة يونانية تقع على مقربة من الساحل التركي الغربي) . حيث أُنعم عليه بلقب «سوفوز» Sophos ، وبالاكدية «اشيفو» Ashipu» .

توقفت هنا مذهولا امام هذه الشهادة . واعدت قراءة المقطع من جديد . ثم استوقفتني من جديد الكلمات الآتية : الكهنة (كهنة بابل) ، وكلمة «سوفوز» اليونانية ، وقرينتها الاكدية ، كلمة «اشيفو» Ashipu ، وهو المطلوب .

الظاهر ان اللفظة اليونانية مأخوذة من هذه الكلمة البابلية . وهكذا عادت بضاعتنا الينا بثوب اخر . فالفلسفة كلمة نصفها يوناني (فيلو) ، ونصفها الاخر بابلي (سوفيا) ، وهي مساهمة عادلة والحق يقال!

لكن ، ما هو معنى كلمة (أشيفو) الاكدية او البابلية على وجه الدقة ؟ وهل لها قرائن في العربية وبقية اللغات السامية ؟

كلمة «اشيفو» تعني العرّاف ، او المعزّم ، او التمائمي . ويرد استعمالها في سياق قراءة الطالع ، وعند تشخيص المرض . وكان الكاهن البابلي من طائفة (الاشيفو) طبيبا وعرّافا في وقت معا . وهذا يذكرنا ايضا بمهنة العرّاف عند العرب قديما ، كما في قول الشاعر : «فقلت لعرّاف اليمامة داوني» . وترد الكلمة ايضا بالاكدية ، بالصيغة الآتية (W)a Shipu ، وتقابلها بالسريانية Ashopa (أشوفا) ، وبالآرامية (اشافا) . ونحن نميل الى الاعتقاد بأن الكلمة العربية المقابلة لها هي (شفى) ، لان هذه الاخيرة تقترن بالطبيب والعراف . وقد بدأ الطب بالعرافة والسحر . واما اخترام حرف الالف في اول الكلمة العربية فثمة ما يماثله في بعض الكلمات العربية المقابلة للاكدية ، مثل (صخر) العربية مقابل (اسخر) الاكدية ، وهي من اصل غير سامي ، ومثل (دنيا) مقابل

(ادناتو) الاكدية ، و (بريّة) (بتشديد الياء فقط دون الراء . وجمعها برايا ، وتعني الخلق ، البشر) مقبال (أبراتو) الاكدية .

وكما سنرى فان الاشيفو كان حكيما ايضا مثل سوفوز Sophos المستعارة منها . يقول ايبلنغ Ebling ، وهو احد العلماء البارزين في الآشوريات : «كان الاشيفو ، وهو المعزّم هو كاهن الاعتراف في المجتمع الآشوري ـ البابلي» . وكانت العرافة اهم فن من فنون المعرفة عند البابليين ، حتى انهم كانوا يصنفونها من بين المعارف «العلمية» ، لانها كانت وثيقة الصلة بالحياة اليومية في بابل . وكان المبرزون من ممارسيها ذوي حظوة في المجتمع ، ويشغل بعضهم أرفع المناصب ، ويستشارون في كل الامور والمناسبات ، سواء على صعيد شخصي او رسمي . وفي المرحلة البابلية القديمة ـ ايام حمورابي ـ كان العرّاف يرافق الجيش ، وتوكل اليه مهمة قيادته احيانا . وعلى العموم كانت العرافة في بابل تعتبر عملا ثقافيا له شأنه ، لان العرّاف كان يتعين عليه ان يمر بمرحلة دراسية طويلة وشاقة يتلقى في اثنائها سائر فنون المعرفة في (بيت الالواح) الذي هو بمثابة مدرسة وجامعة .

وليس من المستبعد والحالة هذه ان يكون الاشيفو البابلي سلف الفيلسوف اليوناني! اما مارتن برنال فيرى ان اشتقاق كلمة صوفيا Sophia اليونانية يرجع الى مادة (س ب أ) المصرية القديمة ، التي تعني (تعليم ، تعلّم) .

البحث عن اصل كلمة School

لاشك ان لليونان في عصرها الذهبي فضلا حضاريا كبيرا على العالم ، بما في ذلك عالمنا العربي الذي نهل الكثير من العلم والفلسفة اليونانيين ، واقتبس عددا كبيرا من المفردات الحضارية اليونانية . لكننا اذ نحاول تسليط الضوء على الوجه الاخر من العملة ، فبدافع الرد على المزاعم الذي تذهب الى القول بالجذور الهندية - الاوروبية فقط للمعجزة اليونانية . وحسبنا ان نشير الى اسم اقدم كيان سياسي يوناني ظهر الى الوجود ، ونعني به « ميسينا » التي تلفظ باليونانية « ميكيناي » Mykenai يعود الى اصل سامي : (مكان) ، وان كان مارتن برنال يقترح بديلا آخر كاحتمال ثان ، هو اللفظة الكنعانية (م خ ن ت) وتقابلها بالعبرية (محانيه) ، وبالعربية (مخيّم) . وستكون لنا عودة الى هذا الموضوع في مناسبة اخرى .

من المفارقات العجيبة ان كلمة School الاوروبية ، المتحدرة من اليونانية ، تعني بالاصل : الكسل والبطالة . وهناك ما يدعونا للاعتقاد بان اصلها سامي . والكسل مرتبط بنظام الطبقة المنغلقة (على نفسها) ، كطبقة الكهنة ، او الفلاسفة ، المصريين في مصر الفرعونية . واذا استشهدنا بعبارة ارسطو بهذا الصدد ، سنقف على المعنى الاصلي الذي تذهب اليه كلمة (سكوله

Schole) اليونانية . يقول ارسطو : « كانت مصر موطن الرياضيات لان الكهنة الذين كانوا ينتمون الى طبقة منغلقة مُنحوا فراغا (تفرغاً) كبيرا ، اي Schole باليونانية » . والظاهر ان نظام الطبقة المنغلقة (المتفرغة) في مصر هو الذي كان وراء نشوء الفلسفة والمدارس ، لان هذا النظام هو الذي اوجد (الرجل المتأمل) الذي استخدم حكمته المتفوقة لصالح طبقته ، على حد تعبير ايسوكراتيس الخطيب والمعلم اليوناني وتلميذ سقراط .

ان تقسيم العمل ، كما يقول مارتن برنال ، هو الذي اوجد « التفرغ » Schole ، الذي اوجد بدوره «التعليم» Schole ايضا . يتضح من هذا ان نظام التعليم الذي نشأ من التفرغ ، اي من طبقة المتفرغين (الكهنة المصريين) استعارته اليونان من مصر . لكن من اين جاءت او اشتقت كلمة Schole اليونانية ، التي تحدرت منها كلمة School الانكليزية ونظائرها في اللغات الاوروبية ؟

تجدر الاشارة الى ان هذه الكلمة اليونانية ، نعني بها Schole ، لا وجود لها في اللغات الهندية - الاوروبية اصلاً فمن اين هبطت على اليونان ؟ يقول مارتن برنال في كتابه (اثينا السوداء) : « . . . . توصلت الى قناعة بان ما يناهز ربع المفردات اليونانية يمكن الرجوع به الى اصول سامية . » وهذه الشهادة شجعتنا على البحث عن اصل الكلمة اليونانية المشار اليها اعلاه ، في اللغات السامية ، فوجدنا ان الكلمة تذكرنا بمادة (س ك ل) الساميّة ، وتعني : احمق ، غبي ، مهمل ، غافل . فهناك ساكلو Saklu الاكدية وتعني : احمق ، و (سكل) العبرية والآرامية وتفيد المعنى نفسه . اما في العربية فيبدو ان الكلمة المقابلة لها هل كسل (بابدال الحروف) ، وترد هذه ايضا في العبرية بمعنى : مكتنز ، سمين ، ثبات ، بسالة ، كسل ، بطالة ، حماقة . اما كسل العربية فتعني : فتر وتثاقل وتوانى عما لا ينبغي ان يتوانى عنه . والكسل : البطالة . والكسول : نعت للجارية المنعمة التي لا تكاد تبرح من مجلسها (عن المنجد) .

وليس من المستغرب ان يستعير اليونانيون الكلمة الدالة على المدرسة من شرقي البحر المتوسط (من الساميين والحاميين) . فهم اقتبسوا كلمة (خارتيس) الدالة على (القرطاسية) او (الورق) ، من مصر . (ومن المفارقة ان اليونان اخذت هذه الكلمة من مصر ثم استعدناها نحن من اليونان باسم قرطاسية) . وحتى الكلمة الدالة على (الكتاب) مستعارة من الفينيقية . يذكر جورج سارتون في كتابه الموسوعي (تأريخ العلم) المترجم بعض اجزائه الى العربية انه لم تكن في اللغة اليونانية قبل زمن الشاعر اليوناني بندار Pindar (حوالي ٥٢٢ - ٤٤٢ق .م) كلمة تفيد معنى القراءة . فكان بندار يستعمل كلمة an-agignosco اي (المعرفة الجيدة) ، بمعنى القراءة . ثم استعمل المؤرخ هيرودوتس (٤٨٥ ؟ - ٤٢٥ ؟ق .م) الكلمةالسورية (الفينيقية) biblion لتدل على الورق او الخطاب ، ثم استعملها ارسطو في معنى (كتاب) . وكلمة (بيبلون) مشتقة من بيبلوس byblos التي تقابل كلمة (البردي) عند اليونانيين . «ومن المحتمل غير المؤكد ان كلمة بيبلوس نفسها مشتقة من اسم ميناء بيبلوس (جبيل) ، الواقعة شمالي بيروت الحالية ، وكانت سوقا كبيرة يسيطر عليها الفينيقيون للتجارة الدولية في ورق البردي» ، كما جاء في كتاب (تأريخ العلم) ، ج١ ص ٨٢ لجورج سارتون (الترجمة العربية) . ومن هذه المادة جاءت كلمة Bible (الكتاب المقدس) .

وفي سومر وجدت اولى المدارس ، وذلك بعد ابتكار فن الكتابة (على الواح الطين) ، وكانت المدرسة تسمى باللغة السومرية ادوبّا edubba ، وتعني بالحرف الواحد «بيت الالواح» . ولعل كلمة «ادب» العربية مشتقة منها ، لاننا لم نجد قرائن لها في اللغات السامية في حدود اطلاعنا . وكان الغرض الرئيسي لانشاء بيوت الالواح تدريب الكتبة على ممارسة اعمال ادارية ، لكنها حققت انجازات اكبر وابعد من هذه المهمة المباشرة ، فقد حفظت لنا التراث الثقافي لسومر وبابل ، فضلا عن انها نشرت فن الكتابة وفنون المعرفة الى بقية مناطق آسيا الغربية ، وبالتالي الى بقية انحاء العالم .

وكان التلميذ يطلق عليه في سومر «ابن منزل الالواح» ، اما استاذه «فأبوه» . وكان تلاميذ المراحل المتقدمة يطلق عليهم «الاخوة الكبار» . ومنذ نشوء المدارس كان التعليم يقترن بالعقوبة الجسدية للتلاميذ الكسالى . جاء في لوح سومري :

اذا لم يؤدِّ ابن بيت الالواح
واجباته على نحو صحيح
فسوف يضربه «اخوه الاكبر» او «ابوه» .

وكان التلميذ في سومر يداوم في المدرسة من شروق الشمس حتى غروبها . جاء في احد الالواح ان التلميذ حين يأوي الى النوم كان يلتمس من امه ان توقظه في ساعة مبكرة لئلا يتأخر عن دوامه في المدرسة .

وكان في وادي الرافدين مركزان متقدمان لتعليم مهمة الكتابة : «جامعة» نيبور Nippur ، و «جامعة» بابل . وكان طلاب العلم يؤمونهما من بقية اصقاع البلاد .

وكان التعليم في وادي الرافدين ووادي النيل يشتمل على كل فنون المعرفة : القراءة ، والكتابة ، والرياضيات ، والدين ، والتاريخ ، والموسيقى ، الخ . وكان الكهنة المصريون مثقفين متفرغين ، يشكلون فئة اجتماعية منعزلة ، كما سبقت الاشارة الى ذلك . وبفضل تفرغهم استطاعوا ان ينصرفوا الى فنون المعرفة النظرية كالفلسفة والرياضيات . ويقول ديودورس الصقلي : «كان ابناء الكهنة يعلَّمون صنفين من الكتابة : ما يدعى بالكتابة المقدسة ، والكتابة العامة . وكانوا يبدون اهتماما كبيرا بالهندسة والحساب . ذلك ان النهر ، الذي يغير منظر البلاد طبيعيا كل عام ، يسبب خلافات ونقاشات بين المالكين المتجاورين ؛ وكان من الصعوبة ان يُبتَّ في حل مشاكلهم بدون براهين هندسية ، مبنية على الملاحظات الفعلية» . ويقول ايضا «وكانوا بحاجة الى معرفة بالحساب ، في اقتصادهم المنزلي ، وفي تطبيق النظريات الهندسية ، فضلا عن فائدتها في الدراسات الفلكية . . .» .

لكن بقية افراد الشعب كانوا يتعلمون من ذويهم ، او اقاربهم . وكان قلة فقط يُدرَّسون الادب .

ويعترف الفلاسفة اليونانيون بانهم تعلموا الفلسفة من الكهنة المصريين . ومما له دلالة ان الاسكندرية كانت في عهد البطالسة اكبر مركز ثقافي في العالم ، وقد تقدمت حتى على اثينا . وفي مدارس مصر تعلم ونبغ المع العلماء ، من امثال اقليدس ، وابولونيوس ، وبطليموس ، الخ .

وكانت مادة الكتابة في مصر لحاء نبات البردي . كان ساق نبات البردي (بين ثلاث واربع اقدام) يُقطع طولا ، وبعد ذلك ينزع عنه اللحاء الخارجي ، ثم تقطع الطبقات المتبقية ، وعددها زهاء العشرين ، بدبوس ، بعناية ، وبعد ذلك تُضفر الشرائط بصورة متصالبة (تقاطعية) ؛ وبعد الكبس والتثقيب بماء الكلس ، يتم صنع الورق المطلوب . ومن المعروف ان الطبقات السفلى من اللحاء كانت تعطي ورقا جيدا للكتابة ، اما الطبقات الخارجية فكانت تستعمل لورق التغليف ، وتستعمل الطبقات الاكثر خشونة لفتل الحبال .

وكانت هناك اصناف شتى من الورق تدعى : المصرية ، والنيلية ، وورق سايس ، وغير ذلك . وكانت هذه الصناعة الورقية حتى ايام الرومان السوق الرئيسي للورق في حوض البحر المتوسط . وكان الرق (جلد الغزال ونحوه) يستعمل ايضا في الكتابة ، ويسمى باليونانية diphtherai ، وتذكرنا بكلمة (دفتر) التي استعارها العرب من الفرس . ومن مزايا الكتابة على الرق ان هذه المادة تصلح للكتابة على وجهيها ، في حين لا تصلح الكتابة الا على وجه واحد من ورقة البردي .

البحث عن اصل كلمة «اللغة»

مما يلفت الانتباه ان كلمة « اللغة » العربية لا قرين لها في اللغات السامية الاخرى . فهل اندثرت في هذه اللغات وبقيت في العربية وحدها ، ام ان العربية اجترحتها في مرحلة متأخرة ، او استعارتها من لغة اخرى ؟ مع هذا فقد لاحظ اللغويون ان الكلمات التي تدل على معنى (تكلم) هي من اكثر المفردات التي تتغير وتبلى بسرعة . لهذا لن نتوقع ان نجد كلمة مشتركة تفيد معنى الكلام في معظم المجموعات اللغوية الا نادرا ، ولكثرة تغيّر هذه الكلمات ، ربما بات من الصعب تحديد عمر بعضها . وتنهض هنا مشكلتنا مع كلمة « اللغة » العربية على سبيل المثال . ما مدى عراقتها ؟ وهل لها صلة بقرينتها اليونانية (lego) التي تفيد معنى (تكلم) ؟

يرى الاستاذ عبد الحق فاضل ان كلمة (لغو) العربية بمعناها الكلامي صارت في الاغريقية (logos) بمعنى (الكلمة) ، ومن (اللغة) صاغ اللاتين كلمة (lingua) بمعنى اللغة واللسان (١) . فهل ندّ رأيه هذا عن عصبية قومية ، ام ماذا ؟

---

١ ـ عبد الحق فاضل : مغامرات لغوية ، ص ١٩٦ ، دار العلم للملايين ،بيروت .

لكن فلنستشر القواميس العربية اولا . جاء في (تاج العروس) للزبيدي : قال ابن سيده : « اللغة اللسن » . وقال غيره : « هو الكلام المصطلح عليه بين كل قبيل » . ولغا لغوا ، تكلم . ومنه الحديث : « من قال في الجمعة صه فقد لغا » اي تكلم . ولغا لغواً : خاب . وبه فسر ابن شميل حديث الجمعة . واللغة واللغى ، كالفتى ، السقط وما لا يعتد به من كلام . وقال القالي : « اللغا واللغو صوت الطائر ، وكذلك كل صوت مختلط » .

اما اللغة بالاكدية فهي لشانو (وتعني لسان ايضا) ، وبالعبرية لشون ، وبالآرامية ليشونو ، وبالحبشية لسن . وهي كلمات تفيد ، كلها ، بالاصل معنى اللسان . ثم ان اللسان بالقبطية لاس ، وبالسنسكريتية (rasana) وباليونانية (gloss) . اما (llais) بلغة ويلز (السلتية) في بريطانيا فتعني صوت . ويرى غزينيوس في معجمه لمفردات الكلمات العبرية في التوراة ان الفكرة الاساسية لتسمية اللسان جاءت من اللعق . ويمكن تلمسها في المقطع (Las) ، ويقابله بالعربية لحس ، لسَّ . كما ان « لسم » تعني : ذاق . واللقلق بالعربية لسان ايضا . وكلمة (lakiel) الارمنية تعني : يلعق .

والان ، فلنعد الى كلمة (لغة) . يقول الدكتور حسن ظاظا : « والغريب في لفظة (لغة) انها لم ترد مستعملة في كلام عربي يعتد به ، وانما كانت العرب تسمى مجرد الضوضاء التي لا طائل من ورائها لغوا ، وجاء من ذلك الفعل ألغى ، يلغي ، بمعنى ابطل ، اي اعتبر ذلك لغواً ، ولذلك فقد اختلف في اشتقاقها ، وحار بعض الاعراب في جمعها »[٢] . ويقول ايضا « . . فالعرب الخلص لم يكونوا يستعملون كلمة لغة في كلامهم . وانما كغيرهم من الامم السامية ، بل كأكثر امم الدنيا ، يستعملون كلمة لسان للدلالة على اللغة ، وهكذا يضطرد الامر في القرآن الكريم »[٣] . ثم يخلص من هذا قائلا : « واننا

---

٢ ـ الدكتور حسن ظاظا ، اللسان والانسان ، ص ١٣٢ . دار المعارف ، سنة ١٩٧١ .

٣ ـ نفسه ، ص ١٣٠ .

ونحن لا نجد شاهدا واحدا على استعمال العرب لكلمة لغة بهذا المعنى الذي نعنيه ، ونظرا لما بدا من اضطراب اللغويين في اشتقاقها ، وتردد الاعراب في ضبط جمعها ، لنميل الى القول بانها من اصل يوناني هو كلمة لوغوس (lo-gos) التي معناها الاصلي (كلمة) و (كلام) . وذكر المختصون من استعمالاتها في اليونانية : الوحي ، والحكم ، او الحكمة ، او المثل ، او المثال ، او القصة ، او المقالة ، او القضية المنطقية ، او التعريف ، او التفكير . . . .الخ وكل هذا كما نرى يحوم حول التعبير اللفظي عن الفكر »(٤) .

لكن الفعل الذي يفيد معنى « تكلم » باليونانية لم يكن عريقا بهذه اللغة . ففي اغريقية هوميروس كان الفعل (agorevein) يستعمل بمثابة (تكلم) . وهذه المادة تستعمل اليوم بمعنى يخطب (بصيغة agorevo) ، وهي من مادة (قرأ) التي سنتطرق اليها في مناسبة اخرى . وكانت كلمة (loqui) اللاتينية تعني (تكلم) . ويقول ڤندريس ان هذا الفعل قد مات ايضا ، فهو قديم . لكنه ، هو نفسه ، كان تجديدا في اللاتينية (او الايطالية السلتية) في معنى « يتكلم » . اما اللغة باللاتينية فيقال لها (lingua) ، والكلمة بعبارة ادق تعني « لسان ، لغة » . ومنها جاءت كلمة (langue) الفرنسية وكلمة language الانكليزية . واما اللغة باليونانية فيقال لها (glossa) ، ومنها جاءت كلمة (gloss) الانكليزية ، وتعني (تعليق ، تفسير خاطىء ، شرح او تفسير لنص كتاب) ، ومثلها كلمة (glossary) . اما كلمة (logos) اليونانية فتعني (كلمة ، كلام ، وحي ، فكرة ، حكاية ، قصة ، مثل ، حكمة ، نثر ، سبب ، علاقة ، نسبة ، حساب ، نقاش ، حوار ،الخ) . وهي من الفعل (legere)(يجمع ، يجني ، يختار ، يقرأ ، يتلو) .

وها نحن اخيرا ، نقف على سر هذه المادة ، على ما يبدو . فالمعنى الاول للفعل اليوناني (legein) هو (يختار) ، والمعنى الاول لمقابله اللاتيني (legere)

---

٤ ـ نفسه ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

هو (يجمع) . وهذان المعنيان يذكراننا بكلمة (لقط) العربية ، ومثلها بالعبرية ، والآرامية ، وبالاكدية (لاقاتو) . فهل يمتّ هذان الفعلان الاوروبيان ومادة (لقط) السامية الى اصل واحد ؟ وهناك كلمة (لغط) العربية ايضا ، وهي : الصوت والجلبة . يقال سمعت لغط القوم . واللغط : اصوات مبهمة لا تفهم . وهي قريبة هنا من اللغو . كما ان (لقع) ، و (لاقع) فلانا بالكلام :غالبه به . واللقعة واللقاع ، واللقاعة ، والتلقّاع ، والتلقاعة : الكثير الكلام . و (اللق) : الكثير الكلام ايضا . و(اللقلقة) : صوت اللقلق ، وهي من الفاظ المحاكاة الصوتية .

فبماذا نخلص من هذا ؟ ها نحن ندخل في متاهة . لكننا لا نريد ان نتحزب للغتنا من دون ان نملك الحجة الدامغة لدعم تحزبنا ، ونزعم ان كلمة (logos) يونانية مستعارة من كلمة (لغة) العربية ، لان حضارتنا ولغتنا لم يكن لهما ذلك النفوذ او التأثير وقت كانت الكلمة اليونانية تستعمل في المعاني المشار اليها (منذ القرن الخامس ق .م على الاقل) ، بل ان الاحتمال الاخر هو المرجح . ومع هذا ، ما هو وجه الصلة بين مادة (leigein) اليونانية و(لقط) السامية ؟ وتنهض في الذهن ايضا كلمة (لغز) العربية ، هل هي اصيلة ام مستعارة من (logos) اليونانية ؟ تفيد المعاجم العربية ان الجذر (لغز) يعني عمّى مراده واضمره على خلاف ما اظهر . واللغز : الكلام الملبّس . واللغز : حفرة يحفرها اليربوع او الفأر او الضب للتعمية على ما يعترض سبيله ، ليخفي مكانه بهذا الالغاز . ويقول ابن الاعرابي : «اللغز : الحفر الملتوي» ، وعلى وجه الدقة ان هذه الحيوانات تحفر الى الاسفل باستقامة اول الامر ، ثم تعدل عن يمين الحفرة وشمالها للتعمية والاختفاء . وترد الكلمة بالعين بدل الغين - اي لعز - في العبرية والسريانية في معنى قريب من هذا المعنى العربي ، اي التعمية عن المراد ، واللاوضوح . وهذا يدعونا الى الاعتقاد بعدم وجود صلة بين هذه اللفظة السامية وكلمة (logos) اليونانية . ولا يبدو ايضا ان هناك صلة بين كلمة (لغز) وكلمة (لغة) . ولعل اصل مادة (اللغة) العربية يبقى غامضا والحالة هذه .

هل افترق الساميون عن الهنود-الاوروبيين
عند الرقم (سبعة)؟

قال الشاعر العربي :

لعمرك ما ادري وان كنت داريا
بسبع رمين الجمر ام بثمان

وجاء في مسرحية (الملك لير) :

المهرج : لعمري ان السبب وراء كون النجوم السبع
سبعا فقط ينطوي على سر عظيم .
لير : ألانها ليست ثماني!
المهرج :نعم ، بالفعل .انت وأيم الحق تصلح ان تكون مهرجا عظيما .

جاء في ترتيلة سومرية :

أيا الهي ، خطيئاتي سبع سبعات ؛ ارفع خطيئاتي .
أيا الهي ، خطيئاتي سبع سبعات ؛ ارفع خطيئاتي
أيها الاله الذي اعرفه او لا اعرفه ،خطيئاتي سبع سبعات ؛ارفع خطيئاتي .

ايتها الإلاهة التي اعرفها او لا اعرفها ، خطيئاتي سبع سبعات ؛
ارفعي خطيئاتي .

وجاء في رقْية بابلية لتجنب اذى العفاريت : «انهم سبعة ، انهم سبعة . اكرر مرتين هم سبعة . ولدوا في جبال الغرب ، ونشأوا في جبال الشرق . انهم يسكنون في شقوق الارض ، ويظهرون في الصحارى . ويتركون آثارهم في السماء والارض . لكنهم غير معروفين بين الآلهة الحكماء ، واسماؤهم لا وجود لها في السماء وعلى الارض» .

وفي قصة طوفان زيوسودرا السومرية ان الطوفان جرف البلاد طوال سبعة ايام وسبع ليالٍ . وفي قصة اتراحاس السومرية الاخرى عن الطوفان جاء ايضا :

وبعد ان أتمت تلاوة التعويذة
اقتطعت اربع عشرة قطعة من الطين
ووضعت سبعا منها الى اليمين ، وسبعا اخرى الى اليسار
. . . . .
وتجمعت سبع وسبع إلاهات من إلاهات الولادة
وخلقت سبع منهن من الذكور
وسبع منهن خلقن من الاناث(١)

وعند البابليين ايضا يتخذ العدد سبعة مفهوم الكثرة والاطلاق . جاء في ملحمة الخليقة : ثم اطلق الرياح التي احضرها معه ، الرياح السبع جميعا .

وفي ادب وادي الرافدين شاعت اسطورة الحكماء السبعة الذين وضعوا اسس مدينة الوركاء (اوروك) ، وعلّموا البشر فن العمران في اقدم سبع مدن

---

١ ـ ملحمة جلجامش ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ، ترجمة طه باقر . الطبعة الرابعة ، بغداد ١٩٨٠ .

في البلاد . وقد ورد ذكرهم في لوح طيني عثر عليه في مدينة الوركاء ، جاء فيه انهم بمثل عدد الملوك السبعة الذين حكموا قبل الطوفان . وهناك اشارات في نصوص سومرية اخرى الى ان الحكماء السبعة عاشوا قبل الطوفان(٢) .

وتتحدث ملحمة جلجامش عن السنوات السبع العجاف ، في المقطع الآتي :

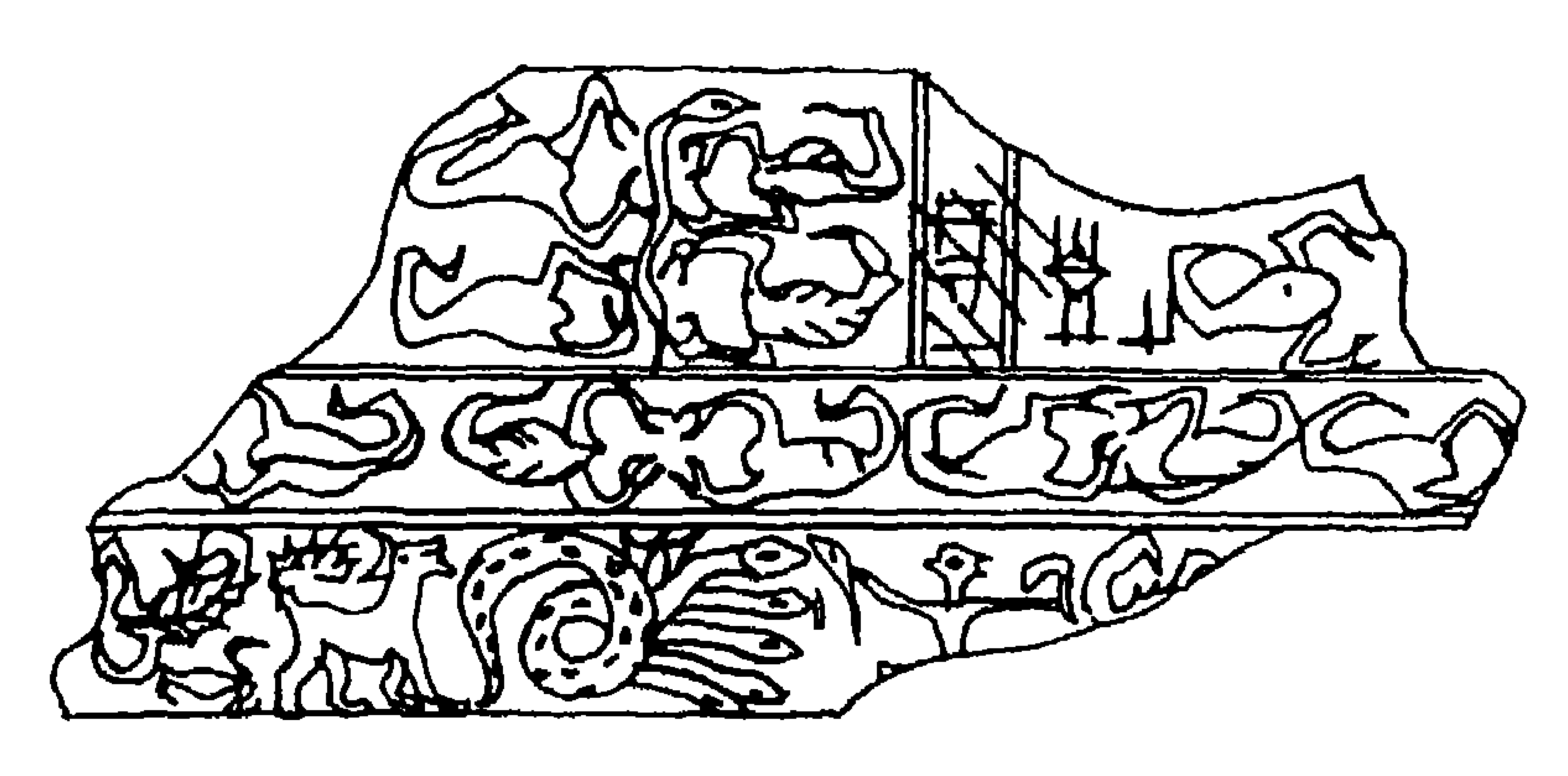
ففتح «آنو» واجاب عشتار الجليلة وقال :
« لو فعلت ما تريدينه مني وزودتك بالثور السماوي
لحلّت في ارض (اوروك) سبع سنين عجاف
فهل جمعت غلالا لهذه السنين العجاف
وهل هيأت العلف للماشية ؟
فتحت عشتار فاها واجابت أباها «آنو» قائلة :۔
لقد جمعت «بيادر» الحبوب للناس
وخزنت العلف للماشية
فلو حلّت سبع سنين عجاف
فقد خزنت غلالا وعلفاً
تكفي الناس والحيوان »(٣) .

ويتواتر ذكر هذه الظاهرة مع يوسف بن يعقوب : السنوات السبع العجاف ، وسنوات الخصب السبع ، والبقرات السبع العجاف ،الخ . . . ، وفى ملاحم اوغاريت الكنعانية ، على نحو ما جاء في الصراع بين (بعل) و (موت) : «سبع سنوات حبس البعل ، لا بل ثماني سنوات (حبس) راكب السحب طلّه ومطره»(٤) . وقد تزوج ايل El ، كبير آلهة الكنعانيين ، امرأتين من البشر ، انجبتا له اولا (سحر) ، و (غسق) ؛ وبعد ذلك انجبتا له آلهة الخصب السبعة الصالحين الذين يرمزون للسنوات السبع من الوفرة .

---

٢ ـ نفسه ، ص ٢٤٦ . ٣ ـ نفسه ، ص ١١٣ .
٤ ـ الدكتور انيس فريحة ، ملاحم واساطير من اوغاريت ، ص ٣٢٢ ، دار النهار ، بيروت ١٩٨٠ .

وفي أشنونا (تل اسمر حاليا) ، على بعد خمسين ميلا الى الشمال الشرقي من بغداد ، عثر من بين عدد من اللقى المهمة ، على اختام اسطوانية من السلالة الاكدية الاولى ، من بينها الصورة - ادناه - المنقولة عن احد هذه الاختام (ويرقى الى ٢٥٠٠ق .م) .



SEAL IMPRESSION FROM TELL. ASMAR

في هذا الختم صورة افعى قُطع اثنان من رؤوسها السبع بيد رجل يقف الى جانب الافعى حاملا الرأسين المقطوعين بيديه . وهذا اقدم نموذج للافعوان او التنين او الهايدرا او اللوياثان ذي الرؤوس السبع التي يقطعها بطل . وعلى غرار ذلك جاء في الملحمة الاوغاريتية (الكنعانية) : «ان اردت ان تقضي على الحية الملتوية العاتية (او الملعونة) ذات الرؤوس السبعة . . . .» وقد ربط ليوبولد فون شرودر بين صراع اندرا - في الملحمة الهندية - مع الافعوان ذي الرؤوس السبعة الذي حاول ان يشرب مياه الحياة ، وبين الاسطورة الاغريقية عن هرقل والهايدرا التي قتلها . لكن هاتين القصتين هما صدى ، في واقع الحال ، للقصة الاكدية التي عثر على نقشها في تل اسمر المشار اليه آنفا .

يرمز العدد «سبعة» عند السومريين والبابليين للتمام ، والكمال ، والكثرة ، والكل ، والقوة . وتُمدنا ملحمة جلجامش بأمثلة على ذلك ، نذكر منها : «ومن اجلك ستُهجر الزوجة ولو كانت ام سبعة» ، و«شرب من الشراب القوي سبعة اقداح» ، و «تجمع الناس في شوارع (اوروك) ازاء الباب ذي المزاليج السبعة» ، «لما كان الرغيف السابع لا يزال على الجمر لمسه فاستيقظ»(٥) .

ومن الامثلة الواضحة على ان المقصود بالعدد سبعة هوالكثرة ، قول الملك السومري غوديا Gudea (حوالي ١٢٤١ ـ ١٢٢٢ق .م) : «اقمت سبع مسلات» ، مع انها في الواقع ست . وهناك المعبد «ذو الجهات السبع» ، مع انها ليست سبعا . وجاء في ترانيم شُولغي Shulgi الملك السومري (٢٠٩٤ ـ ٢٠٤٧ق .م) :

لقد ابتلع البرق سوية مع «الرياح السبع» كل شيء في السماء
وغنى لي المغنون (بمصاحبة) سبعة من طبول الـ tigi .

وجاء في احد النصوص الدينية الحثية (من الاناضول) ما يلي :

ثم فتت سبع كسر صغيرة من الخبز
ورماها في الحُفر السبع . واراق خمرا وقال :
إذا سلّمتم امركم ، انتم يا آلهة الارز (الاشجار) الاشداء ، الى
الحُفر انظروا ، فسوف نرفعكم من الحفر السبع . . .

وما يزال المثل الشعبي عندنا صدى لهذا المفهوم عن السبعة : «سبع صنايع والبخت ضايع» . وبمثل هذا المعنى يستعمل العدد سبعة في الاداب السامية ، وغيرها . جاء في سفر القضاة بالتوراة : «وانامت دليلة شمشون على ركبتيها ، وحلقت خصل رأسه السبع ، ففارقته قوته» . وفي نص آرامي منقوش على الحجر (وهو احد انصاب سفيرة في الجنوب الشرقي من حلب) جاء :

---

٥ ـ ملحمة جلجامش .

واذا ما نقض متع إل بن عتر سماك ملك ارفاد العهد لبرجايه ملك كتك ، واذا ما نقض احد من عقب متع إل العهد لاحد من عقب برجايه ملك كتك ، لتلقح سبعة اكباش نعجة فلا تحمل ولتمسح سبع مرضعات حلمات اثدائهن وليرضعن رضيعا فلا يشبعنه ولترضع سبع بقرات عجلا فلا يشبعنه

. . . .

وليلتهم الجراد زرعها سبع سنين

وليأكل الدود ثمرها سبع سنين . . . .الخ(٦)

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة يرد فيها ذكر العدد سبعة بمثل هذا المفهوم ، مثل : « ولو انما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله ؛ ان الله عزيز حكيم » (سورة لقمان : ٢٧)

ووصف هوميروس درع إياس التيلاموني في نزاله مع هكتور الطروادي على النحو الآتي : « مثل برج ، صنع من البرونز وسبع طبقات من الجلد . لقد صنع له هذا الدرع تيخيوس دباغ الجلود البارع . من سكان Hyle ، من جلود سبعة ثيران عززها بطبقة ثامنة من البرونز . ثم حمل إياس التيلاموني هذا الدرع امام صدره ومضى قدما نحو هيكتور قبل ان يتوقف ويتحداه » .

ومن الامثلة على استعمال العدد سبعة بما يفيد معنى الاكتمال ، ما جاء في ملحمة جلجامش : « ولما حل اليوم السابع اخرجت حمامة واطلقتها » . وفي ملحمة البعل الاوغاريتة : « بعد ان اضرمت النار في قصر البعل في لبنان وظلت تشتعل ستة ايام ، وفي اليوم السابع خمدت النار »(٧) . وفي التوراة : « وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل . فاستراح في اليوم السابع من جميع

---

٦ ـ د . محمد حرب فرزات ، مجلة « دراسات تاريخية » ، سورية ، السنة السابعة ، العددان ٢١ ـ ٢٢ ، آذار ـ حزيران ١٩٨٦ .

٧ ـ ملاحم واساطير من اوغاريت ، ص ١٤٤ .

عمله الذي عمل . وبارك الله اليوم السابع وقدسه . لانه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقا »(سفر التكوين ٢ ٢: ٣ - ٣) . وفي الديانة الزرادشتية ايضا يتخذ العدد سبعة مفهوم الكمال او الاكتمال : «ولزم زرادشت الصمت سبعة اعوام في اغوار كهف مزين بصورة للعالم ، في جبل يذكّر بسيناء »(٨) .

وبهذا الصدد يقول سايروس غوردن : «ان اختتام الايام الستة باليوم السابع يتكرر كثيرا عند هوميروس ، وفي الادب الاوغاريتي ، والكتاب المقدس ، مما يذكرنا بايام الاسبوع السبعة حيث تتأوج ايام العمل الستة بالسابات ، وهي ظاهرةسابقة للحقبة الموسوية ومعروفة في شرقي البحر المتوسط . ولعل هذه الفكرة انتقلت من بلاد الرافدين ، اذ ان تتويج الايام الستة باليوم السابع كان شائعا عندهم ، ففي ملحمة جلجامش تهدأ عاصفة الطوفان التي تدوم ستة ايام في اليوم السابع ؛ كما يبقى الفُلك راسيا على الجبل ستة ايام ، وفي اليوم السابع يطلق اوتنابشتم الحمامة»(٩) . ذلك ان اليوم السابع كان مقدسا ومحرما على حد سواء عند البابليين ، وهو اصل التحريم في اليوم السابع عند اليهود على ما يظن . ومرجعنا في ذلك النص البابلي الآتي : «في اليوم الاول والسابع والخامس عشر والحادي والعشرين والثامن والعشرين من الشهر ، وكذلك في اليوم التاسع والاربعين ، اي التاسع عشر من الشهر التالي . يمتنع راعي الشعب (اي الملك) عن تناول اللحم المشوي ، والخبز ، ولن يستبدل الملابس التي يرتديها ، لن يرتدي ملابس نظيفة ، ولن يقدم اية تقدمة ؛ ولن يركب الملك عربته ، او يصدر اوامره ، ولا يجوز للرائي في هذه الايام ان يقدم للناس ما يرى ، ولا يجوز للطبيب ان يضع يده على جسد انسان . وعند المساء يأتي الملك بتقدماته الى الالهة» . وعلى اية حال ، فان البابليين كانوا يطلقون على العدد «سبعة» وعلى كلمة « كل» لفظة واحدة .

---

8 - New Larousse Encyclopedia of Mythology, P.312. Hamlyn

9 - Cyrus H. Gordon. Homer and Bible, P.64.

كما كان للرقمين «اربعة» و «سبعة» اهمية في الموسيقى في وادي الرافدين ، الاول كرمز للفصول الاربعة ، والثاني لعلاقته بالقمر . وقد اتُخذ العدد سبعة اساسا للسلم السباعي في بابل ، ومنه انتقل الى اليونان ، والى العالم اجمع فيما بعد ، بما في ذلك العالم الغربي . ومما يؤكد العلاقة بين السلم السباعي والقمر ان عشتار ، الإلاهة البابلية ، والتي تقترن بالقمر (ابيها) كانت تقول : «انا الوتر الاول ، انا الوتر الاخير» ، وتقصد بذلك الوتر الاول والوتر الثامن ، اي الاوكتاف ، او الجواب بالعربية ، وهو اعادة للوتر الاول بدرجة اعلى .

وفي وادي الرافدين كان للآلهة ارقامهم . فآنو Anu ، إله السماء ، رقمه «واحد» ؛ ولهذا يعبر عن اسمه احيانا على النحو الآتي : d1 . وفي حالة الثريا ، فانها dVII . والصيغة الصوتية لهذا الرقم هي سبعة ، وهي نفس اللفظة التي تطلق على «السبعة» . فبالاكدية تُقرأ «سيبي» Sibi ، وبالسومرية تلفظ Imina - bi . وعلى غرار ذلك يعتبر العدد سبعة مقدسا في العبرية ، كما في قولهم : إيلي شبع («السبعة مقدسة») . وانتقل هذا التعبير الى الاوروبيين تحت اسم «اليزابيث» ، من إيلي شبع . وقد تعتبر «السبعة» معادلا ليهوه اومقترنة به في اسماء العلم المؤنثة ، مثل يهو - شبع (سفر الملوك الثاني ١١ :٢) و = يهو شبعة (سفر الايام الثاني ٢٢ :١١) ، وربما حتى بلدة (بئر سبع) قد تعني بئر ، او حفرة السبعة (المقدسة) ، وذلك على غرار قريت - اربع (الاسم القديم لحبرون = الخليل) ، والتي قد تعني بلدة «الاربعة» (المقدسة) ، ويمكن مقارنتها بأربع - ايلو (اربيلا) (حاليا اربيل العراقية) ، وتعني : اربعة هي الله . (انظر بهذا سايروس غوردن في مقالته "His name is "One المنشورة في العدد الاول من : Journal of Near Eastern Studies لسنة 1970 .

ويرد ذكر السبعة في بعض الاحيان ، كما جاء في ملحمة جلجامش : «ولكنك حفرت (للايقاع به) سبع وسبع وجرات» ؛ وكذلك : «ونصبت سبعةوسبعة قدور للقرابين» . وفي هامش هذا النص يعقب طه باقر قائلا :

«التعبير سبعة وسبعة لرقم ١٤ ذو مغزى حضاري ، فان التعبير نفسه نجده مستعملا في لغة الطقوس الدينية عند اليونان (DIS HEPTA) . وهذه جملة من الادلة الكثيرة على مواطن الشبه والاتصال بين ملحمة جلجامش واساطير اليونان وآدابها . حول ذلك راجع "C. H. GORDON Befor the Bible (1962)" .

والظاهر ان هذا التعبير كان شائعا في شرقي البحرالمتوسط . ففي الرسائل الموجهة من حكام او امراء فلسطين التي كانت تحت الحكم المصري ، الى الملك امنحوتب الثالث او ابنه اخناتون في منتصف القرن الرابع عشرق .م . يستهل اصحابها رسائلهم بعبارات الولاء والخنوع مؤكدين انهم يخرّون على وجوههم سبع وسبع مرات امام اقدام الملك . وهذا نموذج لمثل هذه الرسائل :

«الى الملك ، سيدي ، إله الشمس السماوي : من زاتاتنا ، امير عكّا ، خادمكم ، خادم الملك ، والقذارة التي تحت قدميه ، والتراب الذي يطأه . امام قدمي الملك ، سيدي ، إله الشمس السماوي ، سبع مرات ، سبع مرات أخرُ ، عل الوجه والقفا ، ليتفضل الملك ، سيدي ، بالاصغاء الى كلمة خادمه!... الخ» .

وفي مصر الفرعونية كان للعدد سبعة قدسيته ايضا . ففي الصورة الآتية نرى اوزيريس - القمر - في نهاية سلم مؤلف من اربع عشرة درجة ، هي



درجات القمر الاربع عشرة، أو اجزاء أوزوريس المفقود

درجات صعود القمر وهبوطه ، وهي في الوقت نفسه اجزاء اوزيريس التي تُفقد ثم تجمع في كل شهر(١٠) . وعلى بلاطة تحمل نقشا تذكاريا ، تعود الى ايام السلالة الثامنة عشرة في مصر (١٥٨١ ـ ١٣٥٠ق .م) يظهر اخناتون وزوجته نفرتيتي ، وخلفهما احدى بناتها ، يقدمون تقدمات للإله أتن Atenالذي يظهر على هيئة قرص شمس يرسل اربعة عشر شعاعا تنتهي على شكل اكفّ . بما يفيد ان هذه الاشعة هي بمثابة ايد تمنح البركة .

وفي بلدة فيستوس Phaistos الواقعة على مقربة من الساحل الجنوبي لجزيرة كريت عثر على قرص من الطين النضيج قطره ستة عشر سم ، وسمكه سنتمتران تقريبا ، ويرجع تأريخه الى القرن السادس عشرق .م ، توجد على وجهيه رموز او كتابة تصويرية نقشت بصورة حلزونية . من بين هذه الرموز ثمة دائرة تحتوي في داخلها على سبع نقاط مدورة (ست تحيط بواحدة في الوسط) ، تتكرر عدة مرات في هذا القرص ، في سياق القصة التي تسردها هذه الصور او الرموز ، ونجدها دائما الى جانب صورة رجل او شيء آخر ، وذلك للدلالة على الكثرة . او بما يفيد الجمع ، وهو على غرار استعمال البابليين للعدد سبعة ، كما تقدم .

وتقول الاسطورة اليونانية ، التي لا بد وان تكون لها خلفية تأريخية ، ان سفراء كريت في عهد الملك ـ شبه الاسطوري ـ مينوس كانوا يذهبون الى اثينا لأخذ الجزية السنوية ، وهي سبع عذراوات وسبعة غلمان ، وهي جزية فرضت على اثينا منذ مقتل ابن الملك مينوس . وكان هؤلاء الفتية التاعسون يقدف بهم طعاما لهولة يدعى المينوتور Minotaur ، وهو كائن نصفه انسي ونصفه الاخر ثور .

وتتحدث الاسطورة اليونانية ايضا عن الابطال السبعة الذين لقوا مصرعهم في قتالهم ضد طيبة بعد المصيبة التي حلت بملكها اوديب . وهناك الحكماء

---

١٠ ـ انظر فراس سواح : لغز عشتار ، ص ٢٧٥ ، دار سومر ، قبرص ـ نيقوسيا ، سنة ١٩٨٥ .

اليونانيون السبعة الذين ظهروا في اواخر القرن السابع واوائل القرن السادس ق .م . ومن بينهم طاليس وصولون . ويُزعم انهم هم الذين ارسوا اسس الفلسفة ، وطرحوا بعض الافكار والمفاهيم الفلسفية الكلاسيكية ، مثل «اعرف نفسك» .

وفي القرن الثاني ق .م . ذكر الكاتب الصيداوي Antipater ان عجائب الدنيا السبع هي : اهرام مصر ، والجنائن المعلقة في بابل ، وتمثال زيفس في الاولمب (قام بنحته فيدياس حوالي ٤٣٠ ق .م .) ، ومعبد ارتميس في افسوس (بُني حوالي ٥٥٠ ق .م .) ، ونصب هاليكارناسوس ، ونصب رودس (وهو تمثال ضخم من الحديد والبرونز يبلغ ارتفاعه زهاء المئة قدم ، بُني او اقيم في ٣٠٥ ـ ٣٠٤ ق .م . تكريما لإله الشمس) ، ومنار الاسكندرية (وهو اشهر منار في العالم القديم بُني لبطليموس الثاني حوالي ٢٨٠ق .م . على جزيرة فاروس مقابل الاسكندرية) .

وهناك الحكماء الصينيون السبعة ، وهم فلاسفة وشعراء اعتزلوا المجتمع في منتصف القرن الثالث الميلادي وانصرفوا الى الخمرة وكتابة الشعر في الريف . كما كان في اليابان سبعة آلهة عُرفوا بآلهة الفأل الحسن ، او حسن الطالع .

وكان مولد ميثراس Mithras إله الشمس الفارسي يُحتفل به في يوم الانقلاب الشتوي ، ويُعبد كثورٍ له سبع صولات : حيث يتعين على عباده ان يجتازوا سبع مراحل قبل ان يُختم على جباههم بختم «جنود ميثراس المجربين» . وكانت المثراسية عبادة شائعة بين المحاربين الرومان في العهد الامبراطوري (١١) .

ويقول بلوتارك ، في كتابه «ايزيس واوزيريس» ، ان المصريين كانوا في الانقلاب الشتوي يحملون بقرة ايزيس الذهبية ملفوفة بقماش اسود ، ويطوفون سبع مرات حول مزار اوزيريس . ويدعى هذا الطواف «البحث عن

---

11 - Robert Graves, The White Goddess, P. 209. faber and faber, London 1986.

اوزيريس » ، ذلك ان الإلاهة تتحرق في الشتاء لماء الشمس ، وتطوف حول المزار سبع مرات لانه ينهي عبوره من الشتاء الى الانقلاب الصيفي في الشهر السابع (١٢) .

وكان الاغريق يعتقدون ان الجسم بكامله يتجدد كل سبع سنوات ، وان بعض مضاعفات السبعة لها اهمية خاصة ، مثل عمر الرابعة عشرة حيث يتم بلوغ الغلام ، وفي الحادية والعشرين يبلغ مرحلة النضج الجنسي التام ؛ وفي الثانية والاربعين تبلغ المرأة سن اليأس ؛ وفي الثالثة والستين تضعف القدرة الجنسية عند الرجل (١٣) . وكان جالينوس يعتبر اليوم السابع من دورة المرض حديا في تكهنات حالة المريض (١٤) .

وفي الاسطورة الويلشية (نسبة الى ويلز في بريطانيا) تكتشف بلاثانت Blathant ان روح زوجها الملك كوروي Coroi توجد في تفاحة مخبأة في احشاء سمكة سالمون تظهر مرة واحدة كل سبع سنوات في نبع ماء على سفح جبل يدعى Slieve Mis . ولا يمكن قطف هذه التفاحة إلا بسيفه هو . وقد انتظر حبيبها كوتشولاين Cuchulain سبع سنوات الى ان حظي بالتفاحة(١٥) .

وكثيرا ما يتمتع الابن السابع في الاساطير والحكايات الشعبية بمؤهلات خاصة . فقد كان عدد ابناء اورانوس ، في اسطورة الخليقة اليونانية ، سبعة ؛ وسابعهم هو كرونوس الذي ازاح اباه عن العرش . كما كان اخيل الابن السابع (او ربما الثامن) المجدود الذي أنقذ لأن بيلياس ـ اباه ـ كان مشرفا على الموت ، فلم يتمكن من القضاء عليه .

---

12 - Ibid, p.208.

13 - John Allegro, The Sacred Mushroom and the Cross. p. 167, Hodder and Stoughton, 1970.

١٤ ـ الدكتور كمال السامرائي ، مختصر تاريخ الطب العربي ، ج ١ ، ص ١٧٧ . بغداد ، وزارة الثقافة والاعلام ١٩٨٤ .

15 - Robert Graves, The White Goddess, p. 316.

وفي كريت كانت الاشجار المقدسة سبعا ، هي : التين ، والزيتون ، والدُلب ، والسرو ، والكرم ، والصنوبر ، والنخل . والاشجار السبع المقدسة عند الايرلنديين القدامى هي : البتولا ، والصفصاف ، والبهشية او الايلكس (وبالانكليزي holly) (١٦) ، والبندق ، والبلوط ، والتفاح ، وجار الماء (بالانكليزية Alder) ، وهو تسلسل يأتي متوافقا مع ايام الاسبوع ، ذلك ان شجرة جار الماء يمكن مضاهاتها بزحل (الذي يقابله بران Bran بالايرلندية) ؛ والتفاح يقترن بالإهة الحب فينوس (الزُهَرَة) ؛ والبلوط بإله الرعد جوبيتر او « ثور » (اي المشتري) ؛ والصفاف بالقمر ؛ والبهشية بالمريخ إله الحرب ذي الوجه القرمزي ؛ والبتولا بمستهل الاسبوع ، لان السنة الشمسية تبتدىء بها .

وفكرة الشمعدان السباعي واعمدة الحكمة السبعة عند اليهود ترجع الى الجذور الفلكية للاسبوع البابلي . وعلى غرار ذلك جاءت فكرة الاعمدة الفلكية السبعة في اسبارطة ، التي انتقلت اليها من مصر عن طريق البيلاسغيين Pe-lasgians (السابقين للهيلنيين في اليونان) . كما ان زيفس المصري - العين شمسي - كان على صدره سبعة بروزات اشبه بالاثداء ترمز للاجرام الفلكية السبعة (١٧) .

واليوبيل الخمسيني اليهودي ذو جذور سبعية ايضا : « وتَعُدُّ لك سبعة سبوتٍ سنين . سبع سنين سبع مرات . فتكون لك ايام السبعة السبوت السنوية تسعا واربعين سنة . . . وتقدسون السنة الخمسين . . . تكون لكم يوبيلا . . . لا تزرعوا ولا تحصدوا زريعها ولا تقطفوا كرمها المُخوِل . انها يوبيل » . (سفر اللاويين ٢٥ ٨: وما بعدها) .

وفي ملحمة « مهابهارتا » الهندية القديمة تقول السمكة لمانو ، اب البشر ، وهي تنصحه للنجاة من الطوفان الذي سيعم العالم : « اصنع سفينة قوية

---

١٦ - نبات ذو ورق صقيل شائك الاطراف ، وزهر صغير ضارب الى البياض .

17 - Robert Graves, The greek Myths, v1, p. 29, Penguin Books (1985)

واربطها بحبل . اركب في هذه السفينة مع سبعة انبياء ، وخذ معك من جميع اصناف البذور . . » . وجاء في « بهاجواتا بورانة » الهندية ايضا : « في اليوم السابع بعد هذا اليوم ستغوص العوالم الثلاثة في لجة اللاوجود . وعندما يختفي الكون في هذه اللجة ، ستأتي اليك سفينة كبيرة مرسلة من قبلي . خذ معك اصناف البذور والنباتات وسبعة انبياء ، ومن جميع الكائنات ، ثم اركب السفينة » .

ويعتقد جون الليغرو في كتابه « الفطر المقدس والصليب » ان الرقم سبعة وثيق الصلة بالفطر وبالمراحل التحضيرية للعلاج عند استعماله كدواء . ويشير الى رؤيا يوحنا اللاهوتي ، التي يرد فيها ذكر الكنائس السبع التي في آسيا ، والارواح السبعة التي امام العرش ، والمنابر الذهبية السبعة ، والكواكب السبعة ، والسفر المختوم بسبعة ختوم ، والخروف ذي السبعة قرون وسبع اعين هي سبعة ارواح الله المرسلة الى كل الارض ، والملائكة السبعة الذين أعطوا سبعة ابواق.....الخ .

ويرى البعض ان هناك صلة بين وأد البنات في الجاهلية والقمر الذي كان يُعبد في الجزيرة العربية باسماء مختلفة ، من بينها « وَد » . وكدليل على ذلك ان البنت كانت توأد بعد سن السادسة ، اي عند دخولها السابعة .

وعن مختار الصحاح ان الرسول العربي قال : « علموا اولادكم الصلاة وهم ابناء سبع سنين ، وعاقبوهم عليها وهم ابناء تسع » . اي ان تعليم الطفل ينبغي ان يبدأ في عمر السابعة ، وهو ما تؤكد عليه اليوم احدث النظريات المتعلقة بتربية الاطفال ؛ وبهذا الصدد يقول پياجيه : « يبدأ التعليم الاساسي في السنة السابعة من العمر » .

وعلى غرار التقسيم السباعي لاقاليم العالم البابلية ، قسم الخليفة عمر بن الخطاب الدولة الاسلامية سبعة اقسام ، مرتبة على شكل دوائر سبع ؛ ست منها بدائرة مركزية تمثل ، إقليم بابل (١٨) . كما اعيد تخطيط مدينة الكوفة وفق النظام السباعي ايضا .

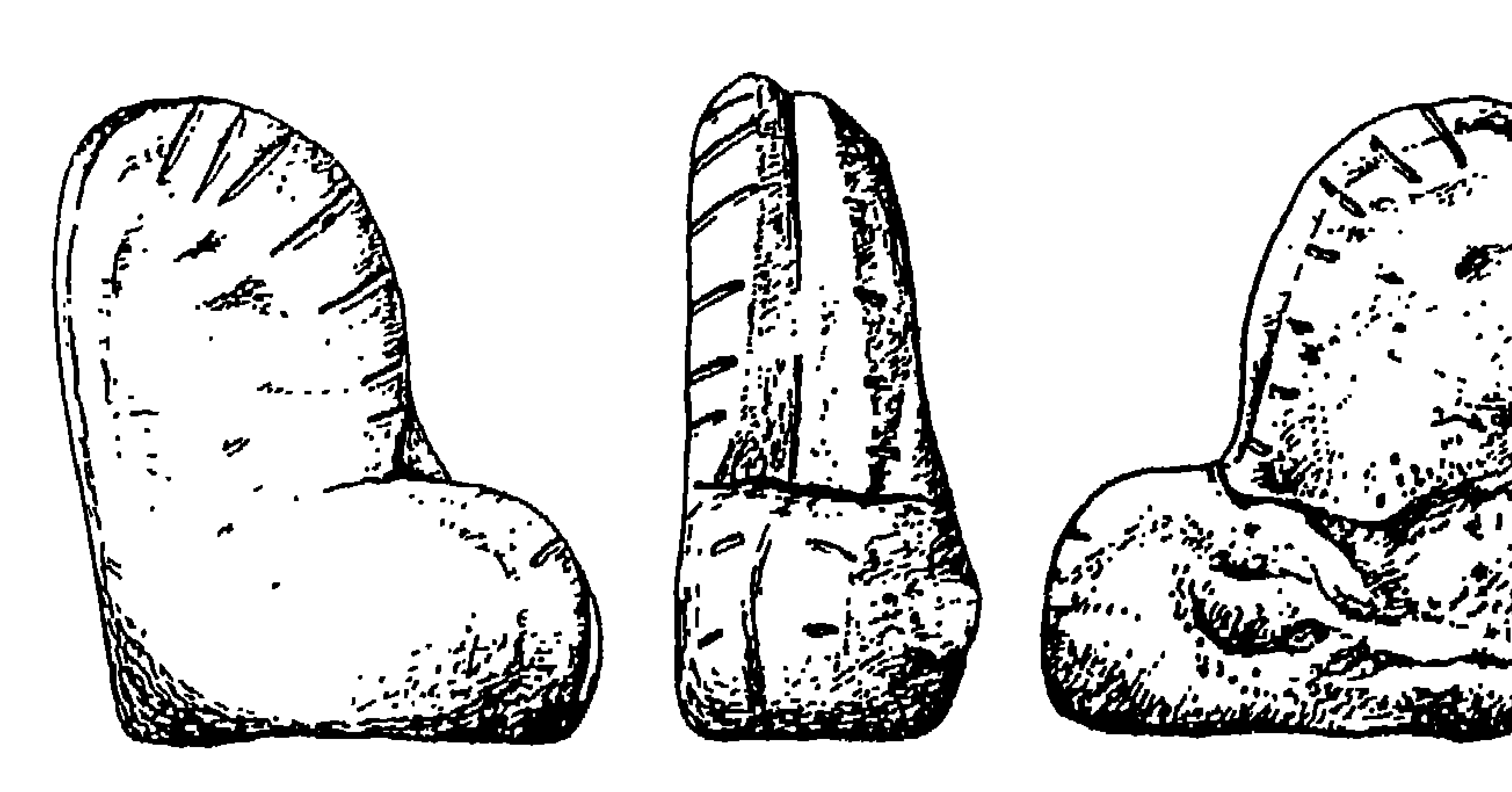
---

١٨ ـ اليعقوبي .

وفي ويلز ، في القرون الوسطى ، لم يكن الزواج قابلا للحل او الفسخ بناء على طلب احد الطرفين الا قبل انقضاء سبع سنوات على عقده (١٩) . واذا عاش الرجل والمرأة معا سبع سنوات ، فانهما يصبحان زوجا وزوجة حتى وان لم يعقدا زواجهما من قبل حسب الاصول(٢٠) .

واذا انتقلنا الى عصور ما قبل التاريخ ، سنجد أن الانسان خلّف آثاراً وأدلة تشير ايضا الى الاهمية التي يشغلها العدد سبعة في حياته . وسنكتفي بذكر البيّنة الآتية :

في منطقة پليشماروت Pilismarot من اعمال هنغاريا ، عثر على لقى حجرية ترقى الى المرحلة الاخيرة من العصر الحجري القديم (قبل حوالي ١٦ ـ ١٧ الف سنة حسب تحليل الكاربون١٤) ، ولعلها تصور اشكالا بشرية بدائية .



احجار ترقى الى ما قبل ١٦ ـ ١٧ ألف سنة ، عثر عليها في المجر وعليها خطوط سبعة .

---

١٩ ـ فردريك انجلز : اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ، ص ١٧٢ ، ترجمة الياس شاهين ، دار التقدم ، موسكو ، بلا تاريخ

٢٠ ـ المصدر نفسه .

وعلى هذه الاحجار توجد حزوز ، او خطوط محفورة ، عددها سبعة من كل جانب . ولم يتوصل الآثاريون الى اتفاق بشأنها . الا ان معظم الباحثين يرون ان هذه الخطوط لم تكن اشكالا زخرفية ، بل رموز لها مغزى . ونحن نرى ان هذه اللقى الحجرية تقدم لنا ادلة على اهمية العدد سبعة عند الانسان قديما . ويعتقد البعض ان الخطوط التي خلفها الانسان القديم على العظام او الحجر او الخشب ، او غير ذلك من المواد ، لها علاقة بحساب الزمن ، وبالقمر .

والان ، لماذا العدد سبعة ؟ وما هو السر الحقيقي الذي يكمن وراءه ؟ الظاهر ان الاهمية التي يرتديها العدد سبعة مستمدة من القمر . فمنذ قديم الزمان ادرك الانسان ان دورة القمر حول الارض تصلح ان تكون مقياسا للزمن وحساب وتقويم الايام . وسمي هذه الدورة شهرا . وما تزال الكلمة الدالة على الشهر في العديد من اللغات نفسها التي تقال للقمر : (كلمة «ارخو» الاكدية التي تقال للقمر والشهر والهلال . وكلمة Month الانكليزية التي تقال للشهر مستمدة من كلمة Moon التي تقال للقمر . وكلمة men «شهر» اليونانية من mene «قمر» ، الخ) . وقد لاحظ الانسان منذ القديم ان دورة القمر تساوي ٢٨ يوما تقريبا . واذا توخينا الدقة ، فان الايام التي يرى فيها القمر هي بين ٢٧ ـ ٢٨ يوما ، والتي يختفي فيها بين يوم او يومين . وقد اهمل الانسان القديم ايام اختفائه ، وركز على الايام التي يكون فيها باديا ، وهي ٢٨ يوما . وهذا العدد هو ضعف عدد ايام اكتمال البدر ، واربعة اضعاف انتصاف البدر . وهذا الاخير يعادل سبعة ايام . والظاهر ان الانسان انما اختار هذا العدد كعدد مدور (مثل العشرة في حسابنا) لانه بمثابة قاسم مشترك اعظم بين حالات اطوار القمر . ومن هنا جاء في الاداب البابلية عن قصة الخليقة ان الإله مردوخ :

هو الذي اوجد القمر ؛ واودع اليه الليل ؛
جعله مخلوق الظلام ، ليقيس الزمن ؛
وفي كل شهر ، على الدوام ، يكلله بالتاج

في مبتدأ الشهر ، عندما تهلّ على الارض ،
سيعدّ قرناك الساطعان ستة ايام ؛
وفي اليوم السابع دع نصف تاجك (يظهر)
وعند اكتمال البدر ستقابل الشمس[٢١] .

وجاء في كتاب « قصة الحضارة » لول ديورانت : « ...... وقسموا الشهر الى اربعة اسابيع ، تتفق مع اوجه القمر الاربعة . وحاولوا ان يتخذوا لهم تقويما اسهل من هذا بأن قسموا الشهر الى ستة اسابيع كل منها خمسة ايام ، ولكن ثبت بعدئذ ان اوجه القمر اقوى اثرا من رغبات الناس ، وبقي التقسيم الاول كما كان »[٢٢] .

اي ان الزمن كان يحسب في البداية وفق التقويم القمري . وكانت المناسبات المهمة يُحتفى بها قمريا ، اي تبعا لاوجه القمر . وكان الانقلاب الصيفي او الشتوي والاعتدال الربيعي لا يحددان بصورة دقيقة بل يقربان الى اقرب ظهور للهلال او اقرب اكتمال للبدر . وقد ارتدى الرقم سبعة اهمية خاصة ، لان الملك في اساطير الاولين كان يموت في سابع اكتمال للبدر بعد اقصر يوم من ايام السنة . وحتى عندما ظهر ، بعد المراقبة الفكلية الدقيقة ، ان السنة تتألف من ٣٦٤ يوما ، مع اهمال بضع ساعات ، وجب تقسيمها الى شهور - اي الى دورات قمرية - بدلا من اجزاء الدائرة الشمسية . وهذه الشهور اصبحت تسمى عند المتكلمين باللغة الانكليزية « شهور العُرف » ، يتألف كل منها من ثمانية وعشرون يوما في العادة ، وهي دورة القمر نفسها بالنسبة للشمس . وكانت ايام الاسبوع السبعة وحدة في الشهر العرفي[٢٣] . وقد وجد الانسان في السماء تشكيلة سباعية متميزة بين النجوم عززت عنده اهمية هذا العدد ، هي تشكيلة الدب الاكبر والاصغر وحتى الثريا كانوا يعتقدون انها تتألف من سبع نجوم ، او هكذا يتصورون . (فالعدد سبعة يرمز للكمال والكثرة على اية حال) .

---

21 - Before Philosophy, p. 197, a Pelican Book (1971).

٢٢ - ويل ديورانت ، قصة الحضارة . ج٢ ص ٢٥٠ - ٢٥١ . ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ١٩٤٩ .

والآن ، اذا انتقلنا الى اللغة نجد ما يلي : السبعة في اللغات الهندو - اوروبية هي Septm ؛ فهي باللاتينية Septem ، وباليونانية hepta ، وبالسنسكريتية sapta ، وبالحثية (المنقرضة) siptam ، وبالسلافية sedm ، وبالارمنية eut'n ، وبالايرلندية القديمة secht ، وبالالبانية shtate ، وبالالمانية sieben ، وبالانكليزية seven ، وبالفارسية haft .

والسبعة بالاكدية sebet . وبالاوغاريتية (الكنعانية) ش ب ع (ت) ، وبالعبرية شيباع ، وبالسريانية شيبعا ، وبالحبشية سبعاتو ، وبالمصرية القديمة (الفرعونية) س ف خ وبالليبية القديمة سأ .

لكن السبعة في بعض اللغات الاخرى ، مثل مجموعة لغات الملايو - اليولينيزية ، هي : fitu بلغة مالاغازي في مدغشقر ، وهي pitu بلغة سومطرة ، وهي fitu بلغة ساموا samoa ، وهي whituعند اقوام الماوري Moari في نيوزيلندة ، وهي hitu في تاهيتي ، وهي hiku في هاوايي . (وقد لا يبدو لنا هذا مستغربا اذا علمنا ان هناك صلة قربى بين اللغات السامية واللغات اليولينيزية ايضا ، على نحو ما تقدم به من ادلة البروفسور Linus Brunner استاذ اللغات والدراسات الكلاسيكية في St. Gallen بسويسرة ، في قاموسه للغات اليولينيزية) .

ان هذا التشابه في الالفاظ الدالة على العدد سبعة في هذه المجموعات اللغوية يأتي دليلا على ان هناك احتمالا بوجود صلة قربى لغوية بين هذه المجموعات او بعضها . ويتعزز هذا التصور اذا كان هناك تشابه في الفاظ بعض الارقام والمفردات الاخرى . وسنكرس اهتمامنا في هذه المقالة على الاعداد ، ونرجىء مناقشة المفردات الاخرى المشتركة بين المجموعتين اللغويتين السامية - الحامية والهندو - اوروبية .

ويقتضينا الحال ، بعد ذلك ، مناقشة بقية الاعداد من الواحد الى السبعة في هاتين المجموعتين اللغويتين لنرى ان كان ثمة تشابه في الفاظها .

الواحد بالعربية اصله أحد ؛ وهو بالعبرية أحد ايضا ؛ وبالسريانية حد ؛ وبالحبشية أحدُ ؛ وبالاكدية edu .

والواحد بالهندية - الاوروبية الام هو oynos على ما يفترض . لكن هناك جذرا اخر يدل على الواحد هو oykos ، ويظهر في النقوش الآرية المدونة بالخط المسماري بصيغةaika ، وبالسنكسريتية بصيغة e'kas ، وباليونانية heis من اصل hems (وحسب القاعدة المتعلقة بتطور الالفاظ اليونانية ، يرجع الى الجذر sems) . وتبدو لنا هذه الصيغة الهندية - الاوروبية الثانية للعدد واحد ، ونعني بها oykos ، اقرب الى اللفظة السامية .

والاثنان بالاكدية (سنكتفي بالصيغة المذكرة فقط) شينا ؛ وبالاوغاريتية « ث ن م » ، و « ث ت » ؛ وبالعبرية « شنايم » ؛ وبالسريانية « ترين » ؛ وبالحبشية كيليتو (وتذكرنا « بكلتا » العربية) ؛ وبالمصرية القديمة « س ن » ؛ وبالليبية القديمة sin .

والجذر المفترض للاثنين في الهندية - الاوروبية الام : d w o (w) . فهو بالهندية القديمة dva ؛ وبالفارسية القديمة dva ؛ وباللاتينية duo ؛ وبالسلافية القديمة duva ؛ وبالايرلندية القديمة duo ؛ والمقطع الاول من الكلمة الحثية المركبة ta - yugash (وبالحرف الواحد : اثنتان سنة) . لكن هناك كلمة tan الحثية ، وتعني (ثانيةً ، اي مرة ثانية) . اما كلمة two الانكليزية فترجع الى السكسونية القديمة twene . والاثنان بالالمانية القديمة zwene .

الثلاثة بالاكدية شلاشت ، وبالاوغاريتية « ث ل ث » للمؤنث ؛ وبالعبرية « شلوشا » ؛ وبالسريانية « تلاتة » ؛ وبالحبشية « شلاستو » ؛ وبالعربية الجنوبية (اي اليمنية القديمة) « شلث » ، و « ثلث » .

ويفترض ان الثلاثة باللغة الهندية - الاوروبية الام هي treyes ؛ فهي بالهندية القديمة trayah (للمذكر) ؛ وبالحثية - tri ؛ وبالالبانية tre ؛ وباليونانية treis ؛ وباللاتينية tres ؛ وبالسلافية القديمة trije ؛ وبالارمنية

erek' ؛ وبلغة الافيستا (كتاب الزرادشتيين المقدس) tra'yo' (للمذكر) ؛ وبالاسكندنافية القديمة thrir .

وتجدر الاشارة الى ان الجذر الثلاثي للعدد اربعة في العربية والعبرية يفيد معنى الاقامة او المكانية . قَرَبَع بالعربية : اقام ؛ اطمأن . والرَبْع : الدار ، المحلة ؛ جماعة الناس . ورابَع العبرية ، مثل ربض : استلقى ؛ او نام مع شخص اخر . فهل جاءت هذه المعاني من مفهوم العدد الرباعي ببعده الهندسي ، ذلك ان مقام الانسان ، اي محل اقامته ، انما يتألف من اربعة جدران او اضلاع . وهو ما تذهب اليه فكرة العدد اربعة نفسها عند السومريين ، حيث يقترن عندهم بالبناء . ذلك ان لفظة NINDA تعني اربعة ، ومربعا بما يفيد البناء ، والسياج ، وفن العمارة ، والتحصين ، والتنظيم ، الخ . ولقد استعمل الساميون الاربعة ، مثل السبعة ، والسبعين ، كعدد مدور . والاربعة بالهندية القديمة catvarah ؛ وبالفارسية القديمة -cath waro ؛ وبالارمنية cork ؛ وباليونانية tessares ؛ وباللاتينية quattuor ؛ وبالسلافية القديمة cetyre ؛ وباللتوانية keturi ؛ وبالايرلندية القديمة -ce thir ؛ وباللغات الجرمانية القديمة petwor .

والخمسة بالاكدية « خمشات » ؛ وبالاوغاريتية « خ م ش » (للمؤنث) ؛ وبالعبرية حامش « خامش » ؛ وبالسريانية « حمشا » ؛ وبالحبشية « خاميستو » . ولربما كانت هناك صلة بين مادة « خمس » والفعل « خمش » بمعنى خدش ، ولطم ؛ وهذا يذكرنا باصابع اليد الخمسة .

والجذر المفترض للخمسة في الهندية ـ الاوروبية الام هو penqwe ؛ فالكلمة بالسنكسريتية هي pantshan ؛ وبالزندية والفهلوية pentche ، pandj ؛ وباليونانية pente (وبالايولية ، وهي احدى اللهجات اليونانية : pemte) ؛ وباللاتينية quinque ؛ وبالارمنية hing ؛ وبالالبانية pese ؛ وبالسلافية القديمة peti ؛ وباللتوانية penke' ؛ وبالايرلندية القديمة coic ؛ وباللغة الجرمانية القديمة fimfi...... ويعتقد ان هناك علاقة بين اللفظة الدالة على

الخمسة واللفظة الدالة على الاصبع في اللغات الهندية الاوروبية (الاصبع بالانكليزية finger) .

والستة بالاكدية sheshshet ؛ وبالاوغاريتية «ث ث» (للمؤنث) ؛ وبالعبرية shesh ؛ وبالسريانية shet ؛ وبالحبشية sessu ؛ وبالمصرية القديمة sis ؛ وبالليبية القديمة (البربرية) sids ؛ وبلغة الهاوسا التشادية (وهي لغة حامية لها صلة بالسامية) sidda .

والستة بالهندية - الاوروبية الام seks ؛ فهي بالهندية القديمة sas ؛ وباليونانية ex ؛ وبالالبانية ga'shte ؛ وبالارمنية vec ؛ وباللاتينية sex ؛ وبالسلافية القديمة shesti ؛ وباللتوانية (وتعتبر هذه اللغة اقرب من غيرها الى الهندية - الاوروبية الام) sheshi ؛ وبالايرلندية القديمة se' ؛ وبلغة ويلز chwech ؛ وباللغات الجرمانية القديمة seks .

وهكذا يتضح ان هناك تقاربا في اللفظ بين هذه الاعداد في المجموعتين اللغويتين السامية - الحامية ، والهندية - الاوروبية .

ويقال ان الاعداد في اللغات الهندية - الاوروبية وجدت على اساس من النظام الرباعي . يتضح هذا من العددين (ثمانية) ، و (تسعة) حيث يُظن ان اولهما ، اي الثمانية ، وبالهندية - الاوروبية okto'(u) ، انما هي مركبة من مقطعين ، يعني اولهما اربعة ، والثاني اثنين ؛ فالكلمة تفيد بالتالي المعنى الآتي : مرتين اربعة . اما العدد (تسعة) فيظن ان جذره الهندي - الاوروبي هو enewen ، او enwn او neun ، ويعني بالاصل : العدد الجديد (new) بالانكليزية ؛ ومن هنا nine (تسعة) بالانكليزية ايضا ، وذلك وفقا للنظام الثنائي بالقياس الى العدد ثمانية . اي ان التسعة هي عدد جديد من الرابوع التالي للثمانية التي هي خاتمة الرابوع الثاني .

من كل ما تقدم نملك ان نقول ان السبعة كانت رقما مدورا (كالعشرة حاليا) عند الاقوام السامية والاقوام الهندية - الاوروبية ، وذلك لدلالته او هالته القمرية .

اما اختلاف الارقام من الثمانية فما فوق في المجموعتين اللغويتين فمن شأنه ، كما نعتقد ، ان يعتبر دليلا على ان هؤلاء الاقوام إنما افترقوا عند الرقم سبعة .

* * *

اما العدد عشرة في اللغات الهندية ـ الاوروبية فيقال انه كان يرمز في الاصل لليدين ، او بعبارة ادق الى يدين اثنتين ، والعشرة باللغات السامية جاءت ايضا من مفهوم الجمع بين اصابع اليدين العشرة ، لان مادة (عشر) ، او (عاشر) تفيد معنى المخالطة ؛ ومنها العشير ، اي الصديق ، وزوج المرأة ، والمرأة ؛ والعشيرة ، اي القبيلة.....الخ .

وجدير بالملاحظة ان كلاً من العددين « واحد » ، و « اثنين » في اللغات السامية ، صفة ؛ اما بقية الاعداد فأسماء . واما الاعداد التي تلي العشرة ، المركبة منها وما كان من مضاعفات العشرة ، فيبدو انها وجدت في مرحلة متأخرة في كافة اللغات . ولقد انفرد الساميون في جعل الرقم معاكسا ـ في الجنس ـ للاسم الذي يليه (كما في قولنا بالعربية : خمسة اقلام ، وست بقرات) ؛ وينسحب هذا على الارقام المركبة (في العربية من ١٣ الى ١٩ كما في قولنا ثلاث عشرة امرأة ، واربعة عشر رجلا) .

اما المئة فهي بالاكدية ميئات ؛ وبالاوغاريتية « م إ ت » ؛ وبالعبرية « ميئا » me'ah ؛ وبالسريانية « ماءا » ؛ وبالحبشية « ميئات » . والالف بالاكدية « ليم » Lim ؛ وبالاوغاريتية a'lp ؛ وبالعبرية e'lep ؛ وبالسريانية 'alpa' ؛ وبالحبشية « عشارتو ميئت » (اما لفظة a'lf الحبشية فتدل على العشرة آلاف) . ويلاحظ هنا ان لفظة (الف) السامية تدل بالاصل على (الثور)[٢٤] .

---

٢٤ ـ استقينا جل معلوماتنا عن الارقام السامية من كتاب (مقدمة الى النحو المقارن في اللغات الاسمية) الذي قام بنشره سوباتينو موسكاتي ، الطبعة الانكليزية .

وهناك ، في العربية ، لفظة « هند » وكذلك « هُنيدة » ، وتدلان على المئة . جاء في « تاج العروس » للزبيدي تحت مادة « هند » : هند اسم للمئة من الإبل خاصة ، وهنيدة بالتصغير . قال جرير :

اعطوا هنيدة تحدوها ثمانية ما في عطائهم مَنّ ولا سرفُ

ونحن لا نتفق مع من يذهب الى القول بأن hund الجرمانية (ومنها hun-dred) مأخوذة من هنيدة العربية ، لان الاولى ، اي الجرمانية ، كلمة هندية - اوروبية اصيلة ، وترجع الى الجذر kmto الذي يُرى في الكلمة الهندية القديمة satam ، وباليونانية e - khaton ، وباللاتينية centum ، وبلغة ويلز cant ، الخ . هذا الى ان اللفظة العربية لا نظائر لها في الساميات . فمن اين جاءت ؟

وفي قاموس الدكتور ارنست كلاين لاشتقاق المفردات الانكليزية ان لفظة kmto الهندية - الاوروبية تعني بالاصل « عشر عشرات » . لان هذه الكلمة تدل على العشرة ايضا . ويُرى في اللاحقة اللاتينية ginti في الكلمات viginti (عشرون) ، و triginta (ثلاثون) ،الخ .

واننا لنستطيع القول ، بلا تردد ، ان الاقوام السامية عرفت المئة على الاقل قبل ان تتفرق (الى اكديين ، وآراميين ، وكنعانيين ، وعبريين ، وعرب ، واحباش ، الخ) . وهذا يتضح من كون اللفظة الدالة على المئة مشتركة في كافة لغات هؤلاء الاقوام . ولعلهم افترقوا قبل معرفتهم بالالف . فاللفظتان الدالتان على الالف بالاكدية والحبشية تختلفان عن نظائرهما في بقية اللغات السامية ، على نحو ما تقدم . مثل هذا يمكن ان يقال عن الاقوام الهندية - الاوروبية . فالظاهر انهم تفرقوا بعد معرفتهم بالمئة ، وقبل الالف ايضا . بل انهم كانوا منقسمين الى مجموعتين منذ معرفتهم باللفظة الدالة على المئة . فالمجموعة التي تضم الاقوام الجرمانية (الالمان ، والاسكندنافيين ، والهولنديين ، والانكليز ، الخ) ، والسلتية (الايرلنديين ، والويلشيين ، الخ) ، والايتالية (كاللاتينية وفروعها ، وغيرها) ، واليونانية ، تدعى بمجموعة centum ، وهي اللفظة الدالة على كلمة « مئة » عندهم . اما المجموعة التي تضم الاقوام : البلطيقية ،

والسلافية ، والهندية ـ الايرانية ، والالبانية ، والارمنية ، فتدعى مجموعة sa-tem ، وهي اللفظة التي تقال للمئة عندهم . والالف باللغات الجرمانية (التيوتونية) هو thousand ، بينما يقال له mille باللاتينية ، و khilioi باليونانية . وقد استعارت البلغارية (وهي سلافية) الكلمة الدالة على الالف من اليونانية khiliada .

وتجدر الاشارة الى ان الاعداد المحصورة بين العشرين والمئة ليست واحدة في الفاظها وحتى في طريقة تركيبها في اللغات الهندية ـ الاوروبية . ويمكن ملاحظة ذلك في الفوارق الجدية بين اسماء الاعداد المركبة او مضاعفات العشرة ، حتى في اللغات التي تنتمي الى فرع واحد من فروع اللغات الهندية ـ الاوروبية . ففي الانكليزية مثلا يعبر عن الرقم « ٢١ » بقولهم twenty one ، اي (عشرين وواحد) وهو عكس ما يعبر عنه في اللغات السامية . في حين يعبر عن هذا الرقم في اللغة الالمانية ـ وهي شقيقة الانكليزية ـ بعكس الطريقة الانكليزية ، وعلى غرار الساميات . ولكن الانكليزية القديمة كانت كالالمانية : one - and - twenty . والثمانون باللغات السلتية ، وبالفرنسية ـ دون شقيقاتها المتحدرة من اللاتينية ـ وحتى في لغة الاينو Ainu اليابانية ، يقال لها اربع عشرينات .

كما ان الاختلاف في الجنس بين الرقم (من الواحد حتى العشرة) ، والاسم الذي يليه ، في اللغات السامية ، لا يمكن ان يرقى الى مرحلة زمنية متقدمة جدا ، لانه ينم عن عقلية متطورة ، ولعل هذه الصيغة (خمسة رجال ، وخمس نساء) جاءت انطلاقا من فكرة التزاوج بين كلمتين (والتزاوج يتم بين جنسين مختلفين ، ذكر وانثى) .

ولا شك ان الانسان اكتشف الاعداد بصورة تدريجية ، ولابد انه كان يعي في البدء مفهوم المفرد والجمع بصورة عامة . وادراك الواحد والمفرد ينعكس من كل ما يتسم بالوحدانية او المثال في الوجود . فالكيانات المفردة (حيوان ، شجرة ، حجر ، الخ) ، والظواهر المتكررة على نحو مستمر ، كاليوم مثلا ، والصباح ، والمساء ، وكذلك الجزء من الكل ، توقظ في الذهن فكرة

الوحدانية . والاثنينية موجودة في العديد من الاشياء والظواهر ، كاليدين ، والرجلين والعينين ، وكل نقيضين (كالذكر والانثى ، والليل والنهار ، الخ) . والثلاثة تأتي من ناتج كل ذكر وانثى ، هذا اذا استبعدنا فكرة الابعاد الثلاثة في الفضاء عند الانسان البدائي . ويشير جورج سارتون في كتابه «تأريخ العلم» الى ان فكرة الاربعة انما نجمت من الجهات الاربع . ويضيف الى ذلك جهة خامسة ، هي المركز ، اي المكان الذي يقف فيه الانسان ؛ ويذهب ابعد من ذلك ، فيضيف جهتين اخريين ، هما السماء من فوقه ، والارض من تحته . لكن هذا التصور قد يبدو فوق مستوى تفكير الانسان البدائي . انما يؤكد سارتون من جهة اخرى ؛ على ان التصور الخمسي اكتسب قوة بوجود الاصابع الخمس .

ويؤكد مارتن نلسون على ان هناك شعوبا بدائية لاتعرف العدّ الى الرقم ١٥ ، او انها تعرف ذلك بصعوبة . وفي لغة جزائر الاندامان Andaman لا توجد كلمات لغير العددين واحد ، واثنين . ويشار لبقية الاعداد بواسطة اصابع اليدين . اما العشرة فبعرض كلتا اليدين مع ذكر كلمة «كل» . ويتعذر لديهم العدّ بعد العشرة . وتفتقر بعض اللغات الاسترالية الاصلية الى كلمات بعد الثلاثة . فالسبعة عندهم يتم التعبير عنها هكذا : زوج - زوج - زوج - واحد . وهنود المونذُوروكو في البرازيل لا يستطيعون العدّ لما بعد الخمسة . وحتى في قول الروس والرومانيين «اربعة - على - عشرة» للدلالة على العدد ١٤ اشارة الى ان الاساس هنا هو اصابع اليدين العشرة .

اما الكسور فيبدو ان الانسان عبر عنها لغويا في مرحلة متأخرة ، لان اسماءها مشتقة من الاعداد الصحيحة ، كالثلث ، والربع ، الخ . اما النصف ، فالظاهر ان الكلمة المعبرة عنه في معظم اللغات ليس لها صلة بالاثنين ، مما قد يدل على انه عرف بصورة مستقلة عن الاعداد . فالنصف بالاكدية khapu ، وكذلك ba'tu ؛ وبالعبرية حصة ، ومحصة ، اما كلمة «نصف» العربية فمن معانيها ايضا : انصف ، اي عامل بالعدل والسوية ، وهذا يلتقي مع المعنى الاخر للكلمة . والنصف بالانكليزية half ، وبالالمانية halb ؛ وتعني الكلمة بالاصل

« شيء يقسم » ، وتقابلها بالسنسكريتية klptah (مُرتّب) ، وباللاتينية -scal pere (يقطع ، ينحت ، يكشط) . اما demi الفرنسية فترجع الى اللاتينية الدارجة dimedius من اصل medius (وسط) ، وباليونانية miso من اصل messos (وسط) ، وبالفارسية القديمة maidya (وسط) .

وتجدر الاشارة الى ان الكلمة الدالة على الرقم مشتقة في بعض اللغات من الكلمة الدالة على الاصبع . وهذا يأتي دليلا آخر على ان العد انما كان يتم بواسطة الاصابع . فكلمة digit الانلكيزية تعني « اصبع » ، واي رقم من الصفر حتى التسعة . وهي من اللاتينية digitus « اصبع » . ومن هنا جاءت الارقام اللاتينية على هيئة اصابع . فالواحد هو | والاثنان || والثلاثة ||| ، وحتى الاربعة كانت في البدء تشير الى الاصابع الاربعة . اما الخمسة فتدل على الكف V ، واما العشرة × فتشير الى الكفين .

وهناك مادة (سفر) العبرية ، وتقابلها « شفر » العربية ؛ ومنها الشفرة : السكين . ومن معاني « سفر » العبرية : يحك ، يخدش ، ينبش باظافره ؛ وكذلك ينقش حروفا على حجر ، وبالتالي يكتب . ومن هنا ، السِفْر : الكتاب . كما ان من معانيها : يَعد ، يحسب . لكن هذه المادة تذكر بكلمة (صفر) العبرية ، وتعني : ظفر ، وهو المادة القرنية التي تنبت في اطراف الاصابع . وتقابلها ظفر العربية . ومن معاني (سفر) العبرية : يستدير ، يدور ، يرقص في دائرة ، يثب(*) ، يرقص . وتقابلها (سفر) العربية التي من بين معانيها : يثب . كما ان من معاني (صفر) العبرية ايضا : يصفر (من الصفير) . ومن معاني (صَفَر) العربية : خلا . ولابد ان الصفر الحسابي في العربية جاء من هذا المعنى .

---

* ويعتقد ان كلمة « صفردع » العبرية ، التي تقال للضفدع ، مركبة من الفعل « صفر » بمعنى « رقص ، وثب » وكلمة « رداع » العربية التي تعني « الطين والماء » ؛ لكأن المراد بذلك الحيوان الذي يثب في الطين والماء . واختصرت في العربية الى ضفدع ، وفي الآرامية اوردعا .

وفضلا عن الاصابع كانت الاحجار والحصى تستعمل في العدّ ايضا . وينعكس هذا في اللغة ايضا ؛ فكلمة (احصى) العربية لها علاقة بالحصى . ومثلها كلمة calculare اللاتينية التي تعني «احصى ، حسب» ؛ ومنها جاء الفعل الانكليزي calculate . وفي الجاهلية كانت كلمة «الحصى» تستعمل بمعنى «العدد» ايضا . قال الحطيئة :

سيرى امام ، فإن الاكثرين حصا والاكرمين ، اذا ما ينسبون ، أبا

وبعد ، لئن صح ان الاعداد من الواحد الى السبعة مشتركة بين المجموعتين اللغويتين السامية ـ الحامية ، والهندية ـ الاوروبية ، فلا بد ان افتراق الناطقين بهذه اللغات قد تم في مرحلة مبكرة نسبيا . ولعل كلا من الفريقين : السامي ، والهندي ـ الاوروبي ، كان ما يزال فئة صغيرة يوم افتراقهما . فلقد اقتضى كلا منهما زمن بعد ذلك ، على ما يبدو ، الى ان توصلا في غضونه الى مفهوم العشرة ، ثم المئة......

ملاحظات حول نشوء الملكية

المفهوم السومري للملكية ، او الملك ، يحمل اكثر من دلالة : فهو مقدس ذو هالة «الهية» من جهة ، ومن جهة اخرى يرتدي طابع الموقوتية ، غير المخلدة . فقد كانوا يعتبرونه بمثابة «مستأجر - او فلاح الله» ، اي ان الملك ، حسب اعتقادهم ، كان يستأجر الارض التي يحكمها ، مباشرة من إله مدينته . وكان استئجاره يتجدد سنويا مع الاحتفال بحلول العام الجديد . وقد ورث البابليون هذه الفكرة عن الملك او الحاكم من السومريين . فهل كان هذا اقدم صيغة للملكية ؟

ليست لدينا معلومات واضحة عن نشوء الملكية في المجتمعات القديمة ، لان اقدم النصوص السومرية والمصرية المتوفرة عن ذلك تقدم لنا اخبارا عن ملوك «جاهزين» كممثلين للآلهة - السماوية - على الارض . فقائمة الملوك السومرية تشير الى ان الملكية «انزلت من السماء» ، اول الامر في مدينة اريدو (جنوب العراق) ، بعد الخليقة مباشرة تقريبا . ومن مبررات نزولها ان البشر - حسب المفهوم السومري - ليسوا سوى قطيع كبير لكنه بليد وقاصر ، بالقياس الى الآلهة ؛ وانهم ، والحالة هذه ، بحاجة الى رعاة ، حكام ، ملوك

كهنة ، تختارهم الآلهة لتنفيذ القانون إلالهي . «وقد انزل تاج وعرش الملكية المقدسان من السماء» منذ تلك المرحلة .

وتتحدث قائمة الملوك السومرية عن ملوك ما قبل الطوفان وما بعده ، بلغة تتداخل فيها الاسطورة بالحقيقة ، مع مبالغة كبيرة في ذكر عدد سنوات حكم هؤلاء الملوك ، على غرار ما ستنهج عليه التوراة في ذكر اعمار ابناء نوح . فتموز ، مثلا ، يرد ذكره كواحد من ملوك ما قبل الطوفان ؛ وهذا قد يلقي ضوءا على اصل هذا البطل الذي جعلت منه الاساطير فيما بعد إلها ، مما يدعو للاعتقاد بان الاشخاص البارزين في الجماعات البشرية القديمة ، شيوخا كانوا ، او ابطالا ، او صيادين ماهرين ، او حماة للقطعان من الاوابد ، او ملوكا ، كانوا يؤلهون . ومن جهة اخرى ، كان تموز تجسيدا لفكرة تجديد الملكية ، وذلك في سياق التضحية به ثم بعثه من جديد .

ويرى ثوركلد جاكوبسن ان مفهوم السلطة اوالدولة في وادي الرافدين جاء انعكاسا لانطباع الانسان الرافديني عن جلال وعظمة السماء في المقام الاول . من هنا كان اسم اكبر الالهة السومرية ، AN ، يعني السماء . ويليه من حيث الاهمية Enlil ، اله العاصفة ، الذي كانت الملكية تعتبر من مهماته .ويؤكد جاكوبسن قائلا ان جلال السماء وسعتها اللامحدودة واحاطتها بكل شيء ، يورث الاحساس بالهيمنة المطلقة وبالرهبة ، وبالتالي السلطة . وبما ان ANU يمثل السماء ، فهو رمز للسيادة على الارض ايضا . انه بمثابة الاب للعائلة ، والاب لبقية الآلهة . وهو النموذج الاقدم للحكام ايضا . واليه تعود شارة الملكية «الصولجان ، والتاج ، وعصابة الرأس ، وعصا الراعي . وكانت هذه الشارات موجودة في السماء قبل آنو ، وقبل اصطفاء او اختيار اي ملك على الارض . ومن السماء تُنزل هذه الشارات الى الارض . وبالتالي فان طاعة اوامر الملك انما هي طاعة لاوامر آنو ، او ابنائه . فالسماء ، بجلالها وفضائها اللانهائي ، وكونها موطنا للسحاب ومصدرا للمياه اصل الحياة ، لها الكلمة الاولى حتى في تنظيم حياة البشر . واي حدث على الارض انما يتم

بايعاز ومباركة من فوق ، من السماءاو إله السماء . وفي وادي الرافدين كانت الملكية تعتبر من مهمات انليل ، كما سبقت الاشارة الى ذلك ، لانه ساكن في السماء مع مجمع البانتيون الالهي . واي إله آخر ينفذ هذه المهمة - الملكية - كان يمارس سلطته هذه برعاية انليل . فللسماء مؤسستها الحاكمة برئاسة آنو وعضوية الالهة الاخرين ، في مقدمتهم انليل . وهذا ، كما يرى جاكوبسن ، جاء انعكاسا لمجلس الشعب الذي عُرف في وادي الرافدين قبل عهد جلجامش .

وفي هذه الحالة يصبح لكل مدينة - دولة إلهها الذي يختاره مجتمع الآلهة لتلك المدينة - الدولة . وهذا الإله هو ملك لتلك المدينة - الدولة في السماء . وهو بدوره يختار وكيلا عنه على الارض ، هو الملك . ولما كان هذا الملك قد اصطفاه إله او آلهة في السماء ، فسيفرض سلطانه على بقية الحكام في وادي الرافدين بمباركة من هذا الاله او الآلهة . على سبيل المثال ان دولتي كيش واكد في منتصف الالف الثاني قبل الميلاد اكتسحتا وادي الرافدين باسم الإلاهة إنانا (الاسم السومري لعشتار) ، فاعتبرت تلك المرحلة مرحلتها . وفيما بعد ، عندما كانت السيطرة لاور ، فان إلهها نانا (الاله القمر) اعتلى العرش كملك بين بقية الآلهة .

وكانت مهمات الملك تتمثل في : فرض النظام وتطبيق القانون ومعاقبة فاعلي الشر ، هذا على الصعيد الداخلي ؛ اما على الصعيد الخارجي فكانت المحافظة على سلامة الوطن . وهذا لا يتم الا بتكريس السماء حق الملكية لملك المدينة - الدولة . فلم يعتل شولغي Shulgi عرش الملك على نيبور Nippur السومرية الا بعد ان اصبح نانا إله اور ملكا على الآلهة ، ورحل الى نيبور ليبحث عن وظيفة لوكيله شولغي . وفي نيبور تم استقبال نانا من قبل انليل امام حشد من الآلهة واستجيب لطلبه ،حيث قال انليل :

« ليؤدب راعيّ شولغي البلدان المتمردة ،
ولينطق فمه بكلمات العدل »

وعندما التمس إشمه ـ داغان Ishme Dagan ، ملك آيسن في وادي الرافدين ، من انليل ان يمنحه السيادة على الشمال والجنوب ، وان يمنحه آنو ، برجاء من انليل « كل عصي الرعاة » لُبي طلبه .

ولا يخفى ان الارض هي مصدر هذه المراسيم « الالهية » وليست السماء وما رفعها الى السماء ثم انزالها الى الارض الا لكي ترتدي هالة من القدسية تضفي على الحكم مزيدا من القوة والمنعة والمصداقية . فالإله الذي يحمي ملك المدينة ـ الدولة كان يُحمل من مدينته الى مدينة الإله الاكبر لترسيم محميّه ملكا او امبراطورا على البلاد التي يمتد نفوذه وسلطانه اليها . والكهنة هم الذين يقومون بهذه المهمة ، مهمة حمل الآلهة من مكان الى آخر ، وحتى « اطعامها ، والباسها ، وايقاظها من النوم ، وايوائها الى النوم ، الخ » .

وكان للآلهة مجلس شورى او « مجلس شعبي » في السماء ، يجتمع عند الطوارىء والملمات ليختار « ملكا » من بينهم ينهض بمهمة التصدي للخطر ، مثلما اختير الإله مردوك لقتال تعامت الهولة ، الإهة المياه المالحة البدئية التي كانت تمثل الشواش مع انه كان إلها من الدرجة الثانية او الثالثة ، لكنه كان شابا ، وهو انعكاس لاختيار الملك الجديد ـ الشاب ـ في طقوس الزواج المقدس (على الارض) . وهذه النظرية القائلة بوجود مجلس شعبي ، او مجلسين ، احدهما للشيوخ ، والآخر للرجال ، كان اول من قال بها ثوركلد جاكوبسون ، في عام ١٩٤٣ ، وتستند الى دراسة للاساطير السومرية وحكاياتهم عن سلوك واعمال الآلهة ، حيث يعتقد انها تعكس التفكير السائد في تلك الايام في سومر ، ربما منذ مرحلة مبكرة جدا ترقى الى اوائل الالف الثالث قبل الميلاد . وفي هذا الاطار يقول Saggs (في عام ١٩٦٢) :

« لم تكن الملكية السومرية بدائية بل متطورة ، وكان عملها ، على الاقل في بعض الاحيان ، يخضع لرقابة من مجلس الشيوخ ووجهاء الناس ، او حتى من قبل جماعة من الرجال الاحرار » . واستنادا الى جاكوبسن ، ان احدى مهمات « المجلس الشعبي » كانت اختيار قائد يدعى EN وكان هذا « في الاصل ذا

مركز ديني ، بصفته زوجا لإلاهة المدينة ، ويلعب دورا حيويا في طقس الزواج المقدس الذي يرمز لخصوبة المدينة » . اما مهماته الادارية الثانوية ، في ما يتعلق بادارة اراضي المعبد ، فقد اضفت عليه اهمية سياسية كبيرة ، آلت الى ان يصبح الحاكم . وفي مرحلة مبكرة جدا حصل الانقسام بين المهمات الدينية والدنيوية للحاكم EN ، الذي انتقل من المعبد الى قصر خاص به .

ومهما كان اصل الملك ، من طائفة الكهنة او من المحاربين ، فقد كانت لشخصيته هالة من القدسية ترقى الى هالة الآلهة ، سواء نودي به إلهاً ام كان مجرد ملك .

وينعكس التماهي بين الملك والإله في اللغة ايضا ؛ في العربية ان الملك هو الله ، وهو الحاكم (من البشر) ايضا . والملك (بالفتح) : احد الارواح السماوية . كما ان كلمة Lord الانكليزية تعني : سيد ، مولى ، امير ، ملك ، عاهل ؛ وتعني : الله المسيح ؛ مثلما تعني المُقطع (الاقطاعي) ، مالك الارض ، زوج ، الخ . وكفعل ترد بمعنى : يستبد ، يطغى .

ويظهر هذا التماهي بين الملك والله ، على نحو صارخ في مصر الفرعونية : « ان پيپي Pepi(*) هذا هو الله ، او ابن الله . » وهذا متأت من طبيعة البلاد التي كان النيل عصب الحياة فيها . ولما كان الفرعون سيد البلاد في كل شأن من شؤونها ، بما في ذلك التصرف في شؤون المياه التي وجدت مصر بفضلها ، فقد كان النيل تحت تصرفه ، وهو الذي كان يجريه ليمنح مصر الحياة . وفي احد الطقوس الملكية ، كان الفرعون يدور حول احد الحقول اربع مرات ليمنح الحقل خصوبة ، لانه كان بمثابة نيل مصر . وكما توّحد الفرعون مع النيل ، فقد تماهى مع الشمس ايضا ، اكبر الآلهة في مصر : « ان ملك مصر العليا والسفلى ، شتيب ايبره ، عرج الى السماء وتوحد مع قرص الشمس ، ان الجسد الالهي الذي اندمج معه هو الذي صنعه » . وتؤكد احدى الاساطير المصرية على ان الشمس ، التي كانت اول ملك على مصر ، يجب ان يكون موضعها في السماء . وهذا يعني ان الملكية والالوهية شيء واحد ، وان مقرهما السماء .

اما في وادي الرافدين فلم يتأله سوى بضعة من ملوكها (نرام ـ سين حفيد سركون الاكدي ، وشولغي وابنه أمار ـ سين في سومر ، على سبيل المثال) . وذلك بحكم الفسيفسائية الجيوبوليتيكية لوادي الرافدين ، ومزاجية البيئة القُلّب (فيضانات مدمرة ، وفترات قحط بسبب ازدياد ملوحة الارض) ،الخ ......ان وضعا كهذا لا يؤهل او يشجع حكاما على التماهي بالآلهة ، بل الخضوع لها والتقرب اليها والشعور بالحاجة المستمرة لها ، لتكون في ناصرهم في مواجهة التحديات ـ الطبيعية ، والسياسية ـ المستمرة . لهذا كان ملوك وادي الرافدين يعتبرون انفسهم وكلاء او مستأجري ارض الإله ، ويتعين عليهم تجديد عقد الايجار كل عام ، في عيد الاكيتو ، في رأس السنة . وقد تأله اباطرة رومان ايضا ، والعديد من ملوك الارض في التأريخ القديم ، وحتى زمن قريب . ولم يكن الملوك الذين اكتفوا بتواضعهم البشري اقل تألها ممن تماهوا مع الآلهة ، لان كلمتهم لا تختلف عن كلمة الاله : «ان اوامر القصر ، مثل اوامر آنو (اله السماء في سومر) ، لا يمكن ان تتغير . ان كلمة الملك صائبة ؛ ان ما ينطق به ، كما الإله لا يمكن ان يتغير! » .

وكما يجمع الاله بين الرهبة والرحمة ، كذلك الملك . كان الفرعون الها محسنا ترهبه البلدان مثلما ترهب (سخمت) في عام الطاعون . وفي شخصه يتحقق التناظر في الحكم ، فهو من جهةرمز البهجة والسعادة ، ومن جهة اخرى مثال البطش والقسوة : انه محطم الجباه ، لا يقوى احد على الوقوف قربه ، ولا يسلم شيء من بطشه . لكنه عنوان الرحمة ايضا ، ولا حد لدماثته وحبه . وجاء في الادب الآرامي ايضا (من اقوال احيقار) : «الملك كالرحمن ؛ لكن صوته مجلجل ايضا : من يقوى على المثول امامه ، إلا من كان في حمى الرب ؟» .

ان الطابع السيادي الابوي المطلق للحاكم او الملك مستعار من دور الراعي في رعاية رعيته . يقول المثل القديم في وادي الرافدين : «ان جيشا بلا ملك مثل خراف بلا راع » . فكما ان الراعي هو الذي يسوق القطيع الى المراعي التي يتوفر

فيها الكلأ ، كذلك هو الملك . جاء في نص مصري قديم : « ان الرقيب او الوصي على الشعب المصري ، المرسل من عند الله ، هو الراعي الذي يوفر لشعبه الكلأ الاخضر ، ويحارب من اجل ان يضمن له عشبا يانعا ، ويطرد عنه الاوابد التي تتعرض له . ويعاقب القطيع الذي يخرج عن المرعى ، ويكون عونا للضعفاء » . وجاء ايضا : « ان راعي القطيع هو في المقام الاول الكاهن المُطعم ؛ ومهمة الدولة الاولى هي توفير الطعام للشعب . » وكانت عصا الراعي احدى اقدم شارات الفرعون في مصر ، وهي اصل احدى الكلمات التي تعني « يحكم » .

ولم يقتصر هذا المفهوم عن الحكم على المصريين وحدهم . فكلمة rule الانكليزية جاءت من اللاتينية regula ، وتعني هذه عصا مستقيمة . ومن هذه المادة اشتقت كلمة المسطرة بالانكليزية ruler ، التي تطلق على الحاكم ايضا . اما في العربية ، فمن « العصا » جاء الفعل عصا القوم ؛ بمعنى : جمعهم على خير او شر ، ومن معاني العصا : الجماعة ؛ الاجتماع والائتلاف . ومن هذه المادة جاء (العصيان) ، و(شق العصا ، او عصا الطاعة) . ومن مادة (رعى) العربية جاء : رعى الامير رعيته ، اي ساسها وتدبر شؤونها . والراعي ايضا كل من ولي امر قوم ، كالأسقف ، والبطريرك ، وغيرهما . والرعية : القوم ، عامة الناس .

اما الملك في اللغة السومرية فيقال له Lugal ، وهي كلمة مؤلفة من مقطعين lu - gal ويعنيان : رجل عظيم . ويرقى استعمالها الى اوائل الالف الثالث قبل الميلاد (في اور) . وقد مر بنا ان كلمة en تقال للملك او السيد او الحاكم ، بما يقابل lord الانكليزية . وفي بعض الحالات كان الحاكم السومري يطلق عليه ensi ، ولا يعرف اصل هذه الكلمة التي تكتب بصيغة - PA - TE SI ، وهو رمز لا تعرف جذوره ، وتقابله بالاكدية (إشَاكُو) اما زوجة الملك فيطلق عليها بالسومرية nin وتعني « سيدة » أو « ملكة » .

اما الملك بالاكدية فيقال له Sharru ، ومن هذه الكلمة اشتق اسم سارغون الاكدي Sharru - Kin ، (الملك العادل) . وبالاوغاريتية الكنعانية هناك الفعل

(ش ر ر) ويعني : (مَلَكَ ، استولى) ، وكإسم : السؤدد ، المُلك . وتعني كلمة (سر) العبرية : رئيس ، قائد ، امير .ومن هذه المادة جاء اسم (سارة) زوجة ابراهيم الخليل ، ويعني : اميرة نبيلة ، وتقال لزوجات الملك اذا كنّ من محتد نبيل . اما الفعل (ساراه) بالعبرية فيعني : يصفّ ، يرتب . ومنه (سوره) : سلسلة ، نظام ، صف . ولعل هذه الكلمة ، اي سوره ، تذكرنا بكلمة « سِرّة » العراقية ، بمعنى « صف ، رتل ، طابور » . ومن معاني (ساراه) العبرية : يقاتل (يشن حربا) . وكما اشار الدكتور حسن ظاظا في كتابه (الساميون ولغاتهم) ، ان كلمة سراة (الناس) العربية تقابل (شارُّو) الاكدية . وهناك الفعل العربي (سرا) ويعني : كان صاحب مروءة وسخاء . وسارى : فاخَرَ . وتسرّى : تكلف المروءة ، والسراة : الظهر ، وسروات القوم : سادتهم ورؤساهم . والملك والرئيس بالمصرية القديمة يقال لهما (سر) وبلغة الهاوسا التشادية ، وهي لغة حاميّة ، Sar - Kli .

اما كلمة (ملك) فالفعل منها في اللغات السامية - عدا العربية - يعني : شاور ، ملك (بمعنى اصبح ملكا) . وترد في العربية وحدها بمعنى : امتلك ، او جعله مُلكا له . واما (السلطان) فهو من الجذر (سلط) ، ومنه جاءت (سليط) العبرية ، وسلطان العربية . ولعل (ساليتس) ، مؤسس حكم الهكسوس في مصر (حكموا بين ١٧٢٠ ؟ -- ١٥٦٧ق .م .) ، يعني : « سلطان » ، مما يلقي ضوءا على الهوية السامية ، وربما العربية بالذات للهكسوس . وترد كلمة سلطان في القرآن إما بمعنى البرهان او بمعنى القدرة . ومادة (سلط) سامية مشتركة ، فهي بالارامية والعبرية (شلط) وبالاكدية (شلطو) ، وبالحبشية (سلط) ، مثل العربية .

على ان هذه المفردات لا تسعفنا في الوقوف على تاريخ نشوء الملكية . بيد ان هناك فعلا اخر لعل له صلة بمادة هندية - اوروبية ايضا ، قد يلقي ضوءا على جذور الملكية . هذا الفعل هو (رعى) ، ومنه الراعي ، وقد كان الملك « راعي الشعب » . فهل نشأت الملكية من هذا المفهوم اي من « الراعي » ؟

كان تموز ، البطل الاسطوري السومري ، يلقب بالراعي وحامي القطعان . وورد اسمه في قائمة اقدم لائحة بأسماء ملوك سومر (ملوك ما قبل الطوفان) ، كما سبقت الاشارة الى ذلك . وهناك ختمان اسطوانيان احدهما محفوظ في المتحف البريطاني والآخرفي بغداد تظهر فيهما شاتان يقدم رجل الى كل منهما غصنا ، ويرتدي هذا الرجل ثوبا شفيفا على شاكلة شبكة ، وله تسريحة شعر ويعتمر عصابة في رأسه . والتسريحة والعصابة تعتبران علامتين على الملك ، كما يقول انطون مورتكات الذي يعتقد ان هذا الرجل لابد ان يكون تموز . ومما له دلالة ايضا ان هناك حزمتين رفيعتين من القصب طويتا في اعلاهما على شكل حلزوني وزودتا بعلم يتدلى من كل منهما . ولما كانت حزمة القصب رمزا للإلاهة إنانا (عشتار) ، فلا بد ان يكون الملك هنا راعيا لشياه الربة إنانا . الامر الذي يدعو للاعتقاد بان تموز كان ملكا في مجتمع امومي ، كانت فيه إنانّا ملكة ايضا ، تضع تاجا على رأسها ، وترتدي رداء ملكيا وتحمل الصولجان . ولا بد ان تموز كان خاضعا لكلمتها او سلطانها . وفي مرحلة جلجامش تفقد المرأة سلطانها تماما (لاسيما في نصها البابلي) ؛ ويتضح هذا من معاملة جلجامش الفظة لعشتار . فبعد ان كان تموز راعيا او صاحب حظيرة للحيوانات ، اي ممثلا لمجتمع لم يصبح بعد مدنيا (مدينيا) ، تؤكد لنا ملحمة جلجامش منذ مطلعها بان بطلها صاحب مدينة «اوروك» وله فيها قصر (ملحمة جلجامش ، اللوح السابع ، السطر ١٨٩) ، ثم ان تشييد سور مدينة اوروك هو بحد ذاته مؤشر لبداية الانفصال بين الكهنوت والملكية . ولعل العنصر السامي لعب هنا دورا في هذه العملية ، في وادي الرافدين ، قبل تأسيس سرغون اول امبراطورية في التاريخ .

لكن مفهوم الملك الراعي له جذور قوية في التأريخ القديم ، وهو يدعو للاعتقاد ، بأن جذور الملكية تعود الى مرحلة سابقة لنشوء المدن . جاء في ترنيمة جنائزية على موت تموز :

راعي الحظائر لم يعد على قيد الحياة

زوج الملكة السماوية لم يعد على قيد الحياة .
وحتى جلجامش سينُعت راعي اوروك . جاء في الملحمة :
أهذا جلجامش راعي «اوروك» المسوّرة
أهو راعينا القوي ؟

وكان الملك في سومر راعيا اصطفاه الإله ليكون مسؤولا عن سلامة ورخاء المدينة ـ الدولة . وكان ملوك مصر ينعتون برعاة الشعب الذين اصطفاهم الله لهذه المهمة . وفي الالياذة والادويسة ينعت ملوك اليونان وطروادة برعاة الشعب ايضا ، مثل اغاممنون ومنلاوس ، وآخيل ، واوديسيوس ، وهكتور ، الخ .

على الصعيد اللغوي نرى ان مادة (رعى) تعني راع في اللغات السامية . كما ان RIG السومرية تفيد المعنى نفسه ايضا . ويرى جون الليغرو ان الاصل يعود الى السومرية . لكننا نعتقد ان الساميين لم يكونوا بحاجة الى استعارة الكلمة الدالة على الراعي من غيرهم ، لانهم كانوا رعاة بالاساس . ويرى الليغرو ان كلمة rexاللاتينية التي تطلق على الملك مستعارة من RIG السومرية . ويمكن ذكر كلمات هندية ـ اوروبية اخرى ترجع الى الجذر نفسه ، مثل righ الايرلندية وتعني (شيخ القبيلة) ، وتقابلها raj الهندية ، ومنها -ra jah (ملك) ، وكذلك maha - rajah (المهراجا) ، وهو العاهل ، او الملك العظيم . وفي رأينا ان هذه الالفاظ الهندية ـ الاوروبية والسامية وربما السومرية ايضا تعود الى جذر واحد مشترك .

ويرى اللغويون ان الجذر الهندي ـ الاوروبي لكلمة re'g' هو reg'الذي يعني : يمد ، يبسط ، يسحب باستقامة ، يعدّل ، يسوي . ومنه جاءت كلمة right الانكليزية . ويعتقد Jan Gonda ان كلمة re'g' تعني : مَنْ يمد او يبسط الى الخارج ، وهو تعبير مجازي عن المهمات الرسمية للملك الذي غالبا ما يوصف في المأثورات الهندية ـ الاوروبية بانه يمارس عمله بيدين مبسوطتين . اما اميل بنفنيست Emile Benveniste فيذهب الى ان المعنى الاساس هو :

«من يقرر ما هو الصحيح» . وهذا المعنى يذهب الى الجانب الاخلاقي والاجتماعي في القائد اكثر من الجانب السلطوي المدني الذي يفرض سلطانه على رعاياه او يقودهم في المعارك . وبالتالي فان بنفنيست يرى ان هناك وظائف دينية تقترن بالملك الهندي ـ الاوروبي .

لكن هذه الآراء تعرضت للطعن مؤخرا . فاندرو سلر يرى ان الجذر لا يعني : ان يرتب او ينظم في خط مستقيم » بل «فعّال ، مؤثر ، ذو سلطة ادبية او اعتبار» . اما هارتموت شارف فقد راجع نصوص الملحمة الڤيدية Vedic الهندية ، واكتشف ان كلمة raj في اقدم صورها لم تكن اسما مذكرا يعني (ملك) بل اسما مؤنثا يفيد معنى «القوة ، السلطة ، » ويقول مالوري في كتابه (في البحث عن الاقوام الهندية ـ الاوروبية) : اذا لقي هذا الرأي قبولا ، فلن يبقى لنا دليل على وجود ملوك هنود ـ اوروبيين من مرحلة الوطن الام (للهنود الاوروبيين) ، وبالتالي فان بيّنتنا ستقتصر على اللغتين السلتية والايتالية (لغة هندية ـ اوروبية قديمة في ايطاليا) . ويعتقد شارف ان التطابق بين كلمة ra-jan السنسكريتية وكلمة aregon اليونانية يدعو للاعتقاد بوجود كلمة هندية ـ اوروبية أُم لمعنى «الحامي ، المدافع» او «الشخص الذي يمتلك سلطة او نفوذا شعبيا واسعا Charisma» ، وليس «ملكا» . وبالتالي فان اعلى مستوى اجتماعي سياسي يقترحه شارف للاقوام الهندية ـ الاوروبية في مرحلة الوطن الام هو «سيد القبيلة» .

وهذا ربما يذكرنا بلقب «راعي الشعب» . ومن ثم ، ما اقرب لفظة reg الى «راع»!

وفي اطار مماثل نرى ان كلمة King الجرمانية مشتقة من مادة Kuni او Kunne ، وتعني رئيس عشيرة . وهذه ترجع الى مادة Kan الالمانية التي ترجع بدورها الى الجذر الهندي ـ الاوروبي gen ويعني «نسل ، انجب» ونحن نرى ان هذا الجذر مشترك مع الجذر السامي (قان) او (ق ي ن) ويعني : سوّى ، صنع ، خلق .

ومفهوم «البيت» او «القصر» مرتبط بالملكية ايضا . كانت اسماء الممالك الآرامية ، مثلا ، تقترن بذكر بيت فلان او علان . يقول جورج رُو ان في هذا اشارة الى المنطقة المحيطة بخيمة او بيت الشيخ ، ولاقارب الشيخ الذين ينضوون تحت لواء عشيرته . وعلى غرار ذلك يقال «بيت هانوڤر» و «بيت وندسور» الخ . وكان القصر الملكي ، بالسومرية يقال له e'gal ، ويعني (البيت الكبير) . ومن هذه الكلمة جاءت كلمة «هيكل» السامية . والملك هو صاحب البيت الكبير او القصر . وحتى يومنا هذا يرمز للقصر او البلاط بالملك . ومما له دلالة ان كلمة «فرعون» المصرية per - aa تعني (البيت الكبير) .

اشارات :

استفدنا من المصار الآتية :

1 - Th. Jacobsen, The Sumerian King List

2 - H. and H. A. Frankfort, J.A. Wilson, Th,Jacobsen and W.A. Irwin, The Intellectual Adventure of Ancient Man, Chicago 1946.

3 - Th. Jacobsen, Primitive democracy in ancient Mesopotamia; JNES II (1943), pp. 159 - 72; Early political development in Mesopotamia, Zeitschrift fur Assyriologie, leipzig/Berlin, LII (1957), pp.91 - 140

4 - George Roux, Ancient Iraq ((Pelican Books), 1985.

5 - J.P. Mallory In search of the Indo ` Europeans, Thames and Hudson, 1991

فك رموز اللغات القديمة

(١)
كيف كشفت اللغات اسرارها

كانت الكتابة عند العديد من الشعوب شيئا مقدسا . فالهيروغليفية تعني بالحرف الواحد «نقش مقدس على الحجر» . وكانت الكلمة المصرية التي تطلق على الكتابة : (ن د و ـ ن ت ر) ، وتعني « كلام الآلهة» . وكان البابليون يعتقدون ان نيبو (Nebo) هو الذي اطلع الانسان على سر الرموز المسمارية . وفي الهند يطلق على الابجدية السنسكريتية Devanagari ، وتعني «تخص مدينة الآلهة» .

عندما عثر كاتب لاتيني يدعى لوكيو سبتينيوس على نصوص قديمة في مدينة كنوسوس في جزيرة كريت ، بمحض المصادفة ، نُقلت هذه النصوص الى الامبراطور الروماني نيرون . وحين أمعن نيرون النظر فيها ظنها كتابة فينيقية ، فأحالها الى الملمين باللغات السامية لترجمتها . غير ان احدا لم يستطع فك رموز هذه الكتابة ، لانها لم تكن مدونة بخط معروف . وفي اواخر القرن الماضي واوائل القرن الحالي اكتشف العالم الآثاري البريطاني سير آرثر ايفنس صنفين من النقوش الكتابية في كريت والبر اليوناني ، اطلق على الصنف الاول (الاقدم) منهما Linear - A ، وعلى الصنف الآخر (الاحدث نسبيا) Linear B . ولا بد

اذن ان النصوص التي عرضت على الامبراطور نيرون كانت مدونة باحدى هاتين الكتابتين اللتين استعصتا على القراءة لعقود عدة بعد اكتشافهما حديثا على يد ايفنس : الى ان توصل الى قراءة احداهما (Linear B) المهندس المعماري البريطاني الشاب اللامع الذكاء مايكل فنتريس في العام ١٩٥٢ . فقدم بذلك خدمة كبيرة للدراسات الكلاسيكية . وسنفرد لهذا الموضوع حلقة خاصة ، فيما بعد ، لاننا لا نريد ان نقفز فوق السياق التاريخي للمحاولات السابقة في فك رموز لغات قديمة اخرى كان لها اهمية كبيرة جدا في الوقوف على اسرار اعرق الحضارات في العالم .

الكتابة المسمارية :

في العام ١٦٢١ استطاع السفير الاسباني الموفد الى ايران تحديد موقع مدينة پيرسيپولس Persepolis الايرانية العريقة بآثارها القديمة . وقال : « هناك كتابة مذهلة منقوشة على اليشب (حجر كريم) ، لا تزال رموزها واضحة ومتألقة ، لم تنلها يد الحدثان على رغم انها ترقى الى زمن غابر . ان حروفها ليست كلدانية ولا عبرية او يونانية او عربية ، ولا تمتّ الى اي قوم يمكن التعرف عليهم الآن او سبق ان وجدوا من قبل . انها حروف ثلاثية ، في هيئة هرم او مسلّة صغيرة جدا ، وكلها متماثلة الا في اوضاعها وترتيبها . لكن تركيبة هذه الحروف تبدو متميزة الى حد كبير » .

تلك هي الكتابة التي اطلق عليها فيما بعد المسمارية او الوتدية . وهي الكتابة التي ابتكرها السومريون في جنوب وادي الرافدين بُعيد العام ٣٠٠٠ق .م . واستعملت هذه الكتابة لتدوين معظم لغات الشرق الادنى ، كاللغات الاكدية (البابلية - الآشورية) ، والعيلامية ، والحثية ، والحورية ، والاوغاريتية (الكنعانية) قبل ابتكار الابجدية الفينيقية .

وفي العام ١٦٥٨ رسم الرحالة الايطالي Pietro Della Valle نماذج من

هذه الكتابة بعد زيارته مدينة پيرسيپولس ، في رسالة نشرت يومذاك . وتلا ذلك نشر نماذج اخرى من قصور پيرسيپولس القديمة وغيرها . لكن الكتابة المسمارية لم تسلس قيادها لقرائها الا بعد العام ١٨٠٢ حين توصل مدرّس الثانوية الالماني جيمورج فردريش كروتيفيند الى حل عدد من علامات الكتابة السومرية التي اكتشفها السفير الاسباني في مدينة بيرسيبولس ، والتي تبين انها كانت تحتوي على نص دُوّن بلغات ثلاث ، هي الفارسية القديمة والبابلية والعيلامية الجديدة . واستعمل اللغة الفارسية القديمة مفتاحا لحل الغاز هذه الكتابة ، لانها تحتوي على ٣٩ علامة . ولجأ كروتيفيند الى الطريقة الآتية في فك رموزها : درس القاب الملك الفارسي داريوس الواردة في كتابات المؤرخين الاغريق ، متخذا اللغة الفارسية اساسا للقراءة ، وكانت هذه اللغة معروفة يومذاك - في القرن التاسع عشر - عن طريق نصوص كتاب الافيستا (كتاب الزرادشتيين المقدس) . ثم توصل كروتيفيند بهذه الطريقة الى فك رموز احدى عشرة علامة ، اصبحت فيما بعد نواة لحل الرموز الاخرى . اما النص الذي اعتمده في مهمته فهو : «داريوس ، الملك العظيم ملك الملوك ، ملك البلدان ، ابن هوستاسبيس الاخميني ، هو الذي بنى هذا القصر» .

وبصورة مستقلة عنه كان هنري رولنسون ، الضابط الانكليزي في شركة الهند الشرقية ، استنسخ في الاعوام ١٨٣٥ - ١٨٣٧ الكتابة المدونة على الصخرة الكبيرة في بهستون التي تروي مآثر الملك داريوس . وبعد الاطلاع على محاولات من سبقه في هذا الميدان (لاسيما كروتيفيند) ، وبالاعتماد على معرفته باللغة الايرانية القديمة ، استطاع في العام ١٨٣٩ ان يحقق تقدما واضحا في الكشف عن سر هذه الكتابة . وبعد جهود علماء آخرين (مثل ادوارد هنكس الدانماركي) الذي اثبت ان هذه الكتابة المسمارية البابلية ، السومرية الاصل ، تتكون من مقاطع وليس من حروف ، اصبحت الكتابة المسمارية غير متسغلقة على القراءة . وترجع قصة هذا النقش الكتابي المدون على صخور بهستون الى العام ٥٢٠ق .م . وهو سجل للوقائع الرسمية للملك داريوس في

هذه المدينة ، المتعلقة باعتلائه العرش . وفي هذا النقش تظهر صورة الملك داريوس المنتصر على العصاة ، والى اليمين ـ بالنسبة الى المشاهد ـ كتب النص باللغة العيلامية ، والى اليسار باللغة البابلية ، وفي الاسفل باللغة الفارسية القديمة . وبعد فك رموز اللغة الفارسية القديمة تمّت قراءة النص البابلي الذي امكن معرفته بالمقارنة مع لغات سامية اخرى ، كالعربية والعبرية . ولم تسلس اللغة العيلامية قيادها للباحثين ، لانها منقرضة ، ولا تكاد توجد لغة حية تشبهها . لكنها تنتمي ـ فيما يقال ـ الى مجموعة اللغات الدراڤيدية في الهند التي من بينها اللغة التاميلية . لكن هتك سر الكتابة المسمارية فتح النافذة على الحضارات السومرية والبابلية والآشورية العظيمة في وادي الرافدين ، وكان مفتاحا ايضا لقراءة لغات اخرى مهمة كاللغة الحثية في الاناضول ، وهي لغة هندية ـ اوروبية مدونة بالخط المسماري السومري .

الكتابة الهيروغليفية :

كان فك رموز الكتابة الهيروغيليفية المصرية القديمة على يد العالم الفرنسي شامپليون (١٧٧٠ ـ ١٨٣٢) من بين اهم الانجازات العلمية في اوائل القرن الماضي . كان شامپليون ذو النزعة البوناپارتية قد اعد نفسه منذ شبابه لهذه المهمة ، فقد تعلم العربية والعبرية والقبطية مذ كان عمره عشرين عاما . ومما يسّر مهمته في فك رموز الكتابة الهيروغليفية المصرية التي كانت مستغلقة على القراءة حتى زمانه ، توافر نسخ من نصوص اكتشفت حديثا (في ايامه) ، بما في ذلك حجر رشيد الذي نقش عليه نص مدون باللغتين اليونانية والمصرية القديمتين . ولان اللغة اليونانية معروفة ، ولان بعض عناصر اللغة المصرية الفرعونية تحدرت الى اللغة القبطية ، فقد تم فك رموز الهيروغيليفية بعد الوقوف على معاني الكلمات المدونة بهذه الرموز . وتبين ان الكتابة الهيروغليفية ليست صورية فقط ، بل هي كالسومرية تتألف من مقاطع صوتية ، بل ان بعض رموزها

ابجدي . وبفضل اكتشافه استطاع شامبليون ان يتوصل الى ان التاريخ المصري ، وبالتالي الحضارة المصرية ، يرجعان الى حدود العام ٣٢٨٥ق .م . ومنذ ان اميط اللثام عن لغز الكتابة الهيروغليفية ، تعرف العالم على اسرار الحضارة المصرية العظيمة ، واسرار الحضارات الاخرى المتفاعلة معها كالفينيقية واليونانية وغيرها . ونشطت الدراسات المتعلقة بكتاب التوارة ، في ضوء مقارنتها مع النصوص والتواريخ المصرية ، لا سيما قصة خروج العبريين من مصر ، وقصة يوسف واخوته وابيه يعقوب ، والعديد من العبارات الواردة في التوراة وعلاقتها بما تم الكشف عنه من نصوص مماثلة او مقاربة في مصر وفي مناطق اخرى من عالمنا العربي .

نصوص تل العمارنة:

في العام ١٨٨٧ اكتشفت فلاحة مصرية مجموعة من الالواح الطينية في مدينة تل العمارنة في اواسط مصر ، وهي المدينة التي اتخذها الفرعون المصري اخناتون عاصمة له بعد ان اخذ يبشر بديانة جديدة تركز على إله واحد ، هو قرص الشمس (اتون) ، وذلك في اوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد . ثم بيعت هذه الالواح الى المتاحف الاوروبية والوكلاء الاخرين . وفيما بعد تمخضت الحفريات في المنطقة عن عدد آخر من الالواح ، بما اصبح مجموعه ٣٧٧ لوحا . وكان معظم هذه الالواح يعود للارشيف الملكي للفرعون امنحوتب الثالث وابنه اخناتون . وحوالي ٣٠٠ رسالة منها كانت باقلام كتبة كنعانيين وعدد قليل من الكتبة المصريين في فلسطين وفينيقيا وجنوب سورية . وكانت هذه الرسائل مدونة باللغة البابلية التي كانت اللغة الديبلوماسية في العصور القديمة . لكنها كانت حافلة بالمفردات والقواعد الكنعانية . كانت هذه الرسائل عبارة عن مكاتبات بين الفرعون المصري وولاته . وكانت اللغة البابلية قد كشفت عن اسرارها منذ اكثر من نصف قرن على اكتشاف هذه الالواح ، فتمت قراءة

معظمها . لكن هناك رسالتين من بين الواح تل العمارنة بقيتا من الالغاز المحيرة في حينها ، لانهما كانتا مدونتين بلغة مجهولة غير مفهومة . كانت الكتابة بالخط المسماري ، لذا امكن قراءتها ، لكنها ظلت عصية على الفهم . وكانت هاتان الرسالتان موجهتين الى بلاد ارزاوا المجهولة . وفي العام ١٨٩٣ اكتشف عالم آثاري فرنسي شقفا من الالواح الطينية مدونة باللغة الارزاوية المجهولة هذه في مدينة بوغوزكوي في شمال وسط الاناضول . ثم قام العالم الالماني هوغو فنكلر بالتنقيب في بوغوزكوي في العام ١٩٠٦ ، وسرعان ما توّجت مساعيه بالعثور على ارشيف كبير يحتوي على نحو عشرة آلاف لوح طيني ، بعضها كان مدونا باللغة الاكدية (البابلية) ، التي امكن قراءتها على الفور . واتضح فيما بعد ان فنكلر اكتشف عاصمة الامبراطورية التي كان ملوكها يتراسلون مع فراعنه مصر . وفيما بعد امكن تحديد عمر هذا الارشيف ، وخراب مدينة بوغوزكوي في حدود ١٢٠٠ق .م . وان عمر هذه المدينة وحضارة الامبراطورية التي اتخذتها عاصمة لها يرقى الى ٤٠٠ سنة قبل ذلك التاريخ . وكانت ثمة لغات اخرى ـ الى جانب الاكدية ـ دونت بها الواح هذا الارشيف . احدى هذه اللغات ، التي دون بها عدد كبير من هذه الالواح ، كانت لغة ارزاوا المستغلقة ، والتي سرعان ما اطلق عليها العلماء اسم اللغة الحثية .

اللغة الحثية :

في العام ١٩١٥ صدر مجلد بعنوان « رسائل الجمعية الالمانية الاستشراقية » يشتمل على رسالة مهمة عنوانها « حل المعضلة الحثية » . بقلم الباحث التشيكي الدكتور بدريتش هروزني . لكن مما يثير الدهشة ان يكون بوسع هذا الباحث ان يتصدى لمثل هذه الامور في الحرب العالمية الاولى ، مع انه كان ضابطا في جيش الامبراطورية النمسوية . وفي واقع الحال ان المأثرة العظيمة في حل واحد من الغاز اللغات القديمة على يد بدريتش هروزني انما تمت

بفضل تسامح آمره الذي اعفاه من الواجبات العسكرية . وفي العام ١٩١٧ نشرت محاولة العالم التشيكي هروزني في فك رموز اللغة الحثية التي كانت مدونة باللغة المسمارية . وقد استهل مقدمة بحثه بالجملة الآتية : «ان هذه الدراسة تعالج طبيعة وبنية اللغة المجهولة التي كان يتكلم بها الحثيون وفك رموزها...... ولسوف يتضح ان الحثية لغة هندية ـ اوروبية في جوهرها» .

وكانت الجملة الآتية مفتاح الحل الذي توصل اليه هروزني من ان اللغة الحثية هندية ـ اوروبية في الجوهر : - NU NINDA - AN EZZATENI, WATAR - MA EKUTENI . ولما كانت اللغة الحثية تحتوي على عدد غير قليل من المفردات البابلية ، فقد اعتبر هروزني ـ عن صواب ـ ان كلمة Ninda في هذا النص مستعارة من البابلية ، وهي في هذه اللغة ـ البابلية ـ تعني « طعام » او « خبز » . ثم طرح هروزني على نفسه السؤال الآتي : ماذا يفعل المرء بالطعام او الخبز ؟ والجواب ، لا شك ، هو انه يأكله . وهكذا استنتج ان كلمة ezzateni لها علاقة بالأكل . ولدى مراجعة الكلمات الدالة على الفعل (يأكل) في اللغات الهندية ـ الاوروبية ، لاحظ هروزني ان كلمة eat الانكليزية مشابهة للفظة الحثية -ezza وكذلك الكلمة اليونانية edein ، واللاتينية edere ، والالمانية essen ، وعلى وجه الخصوص الكلمة الالمانية التي كانت تستعمل في القرون الوسطى ezzan . اما السطر الثاني فكان امره ايسر ، لانه يبدأ بكلمة watar التي لابد ان تقابل كلمة water الانكليزية ، او wasser الالمانية . وهكذا اقترح هروزني الترجمة التالية للنص : « الآن خبزا تأكل ، ثم ماءً تشرب » . وكان على صواب!

اللغة الاوغاريتية:

لم تكن اوغاريت (السورية الكنعانية) مجهولة تماما قبل اكتشافها مصادفة في العام ١٩٢٨ ، فقد كان اسمها معروفا في المصادر المصرية والكنعانية والحثية ، لكن موقعها كان مجهولا . وتعتبر الواح تل العمارنة الطينية من بين

اهم المصادر التي ورد فيها ذكرها . وفي النصوص الحثية ذكرت اوغاريت ايضا . لكن موقعها لم يك معروفا بالضبط «الى ان علق يوما ، محراث فلاح سوري ، في ربيع ١٩٢٨ ، ببلاطة قبر قديم ظنه مخبأ كنز قديم ، غير انه لم يجد ذهبا او فضة وانما كانت اللقية ، للتأريخ والادب ، خيرا منهما!» كما يقول انيس فريحة في كتابه «ملاحم واساطير من اوغاريت» .

تم اكتشاف المدينة القديمة تحت تل رأس الشمرا على بعد ١٢ كيلوامترا شمالي اللاذقية . واسفرت التنقيبات الاولى فيها التي اضطلع بها البروفسور كلود شافير عن وجود خمس طبقات آثارية تغطي مرحلة زمنية تمتد بين العصر الحجري الحديث والقرن الثاني عشر قبل الميلاد . وهذا الاخير هو تأريخ زوال مجد اوغاريت .

من بين اهم المكتشفات التي عثر عليها في اوغاريت : القصر الملكي ، وهيكل الإله داجون(يلفظ الجيم على الطريقة المصرية) ، والى جواره مكتبة تضم عددا كبيرا من الالواح الخزفية والآجريّة مدونة بالخط المسماري البابلي . لكن اللغة تبدو جديدة ، والنقوش المسمارية لا يمكن قراءتها وفق النظام السومري البابلي . وسرعان ما احيلت الى البروفسور شارل فيرولو الضليع بالآشوريات ، لدراستها ونشرها ، فأدرك على الفور انها كتابة ابجدية وليس مقطعية كالسومرية او البابلية ، اي ان علاماتها ترمز لحروف الهجاء وليس لمقاطع (المقاطع مثل : با ، كو ، تي ،الخ) ، ذلك لان هذه العلامات كانت محدودة (في حدود الثلاثين رمزا) ، في حين تتألف الكتابة المسمارية البابلية من حوالي ٥٠٠ - ٦٠٠ رمز . وفي العام ١٩٢٩ قام هذا العالم بنشر صور من النقوش الكتابية المدونة على هذه الالواح ، فانبرى لفك رموزها هو ، وهانز باور من المانيا ، وادوارد دورم الذي كان باحثا في مدرسة الكتاب المقدس في مدينة القدس . وفي العام ١٩٣٠ توصل هؤلاء العلماء الثلاثة في اوقات متقاربة الى فك رموز اهم مفاصل هذه اللغة ، لكن هانز باور كان اول من نشر محاولته ، وادوارد دورم الثاني ، اما شارل فيرولو فكان الثالث . وكان باور ودورم

خبيرين في حل رموز الشيفرات السرية . اما كيف توصل هؤلاء العلماء الى حل رموز اللغة الاوغاريتية مع ان النصوص التي كانت تحت متناول ايديهم مدونة بهذه اللغة المجهولة فقط ، فعن طريق التجربة والخطأ . فقبل كل شيء افترض باور ان اللغة سامية ، وكان افتراضه صحيحا . ثم حاول ان يعزل العناصر اللغوية السامية المشتركة مثل بعض المقاطع (السوابق والاواسط واللواحق) التي تلحق بالاسماء والافعال ، مثل حروف الفعل المضارع (ا ن ي ت) ، والميم التي تلحق اسمي الفاعل والمفعول والمصدر الميمي واسمي المكان والزمان ، والضمائر التي تلحق بآخر الاسماء والافعال ، الخ........ وهي مشتركة تقريبا في اللغات السامية جميعا . وكذلك حروف العطف والجر... ولاحظ باور ان هناك حرفين يسبقان دائما كلمة ظنها اسما ، وقدّر انهما اللام والباء . فاذا وجد ايضا كلمة تتألف من ثلاثة احرف ، اولها باء وثالثها لام ، فأغلب الاحتمال ان الحرف الاوسط سيكون عينا (ع) . وبذلك يحصل على كلمة (بعل) . كما توصل ايضا الى تمييز كلمة «بن» وكلمة «ملك» ، وكلمة «إل» اي الإله إيل . وهكذا حلّت رموز الكتابة (ينظر بهذا كتاب انيس فريحة : «ملاحم واساطير من اوغاريت» ص ٣٠ ـ ٣١) .

وكان ان كشفت الالواح الاوغاريتية عن ذخيرة غنية في مادتها التأريخية والادبية والميثولوجية والدينية ، الخ . واتضح من خلال ذلك ان الحضارة الكنعانية التي ازدهرت في اوغاريت بين ١٥٠٠ ـ ١٢٠٠ق .م . كان لها تأثير مباشر على الحضارة اليونانية ، فضلا عن انها كانت بمثابة جسر بين حضارة وادي الرافدين ومنطقة إيجه واليونان .

(٢)

اللغات الكريتية تكشف عن اسرارها

من المعروف ان الكتابة اليونانية (ومنها انحدرت اللاتينية والخطوط الاوروبية الاخرى) استعيرت من الفينيقية . والمتواضع عليه ان تأريخ هذه الكتابة - اليونانية - يرجع الى القرن الثامن قبل الميلاد . لكن هناك آراء تذهب الى ان هذه الاستعارة ترقى الى ما قبل ذلك ببضعة قرون . ومرت الكتابة التي تستعمل في الغرب من اليسار الى اليمين بعملية تطور غريبة . فأقدم النصوص الاغريقية ، وترقى الى ايام هوميروس (بين القرنين العاشر والتاسع ق .م) ، كان ترتيب كتابتها يدعى boustrophedon ، ويعني « كما يحرث الثور » : من اليسار الى اليمين ، ثم ، في السطر الثاني ، من اليمين الى اليسار ، ثم في السطر الثالث ، من اليسار الى اليمين ، وهكذا . وفي ما بعد تقننت الكتابة في الغرب من اليسار الى اليمين في كل سطر .

والسؤال المطروح : هل كانت لدى اليونانيين كتابة قبل هوميروس ، اي قبل ان يستعيروا نظامهم الابجدي من الفينيقيين ؟ فقد كان لليونانيين حضور في اليونان ربما منذ حدود العام ١٩٠٠ ق .م . ، وهو بداية هجرتهم الى الارض التي تحمل اسمهم الان . وبعد العام ١٥٠٠ق .م . امتد نفوذهم الى كريت التي كانت غير يونانية ، كما سنرى ، واسس اليونانيون ملكا في منطقة ميسينيا على البر اليوناني دام بين حدود ١٥٠٠ - ١١٠٠ ق .م . وهي المرحلة المعروفة

بعصر البطولات الذي خلّده هوميروس بملحمتيه الالياذة والاوديسة . فهل كانت لدى يونانيي ما قبل هوميروس كتابة ؟

في الالياذة وهي اقدم نص ادبي يوناني ، ترد اشارة واحدة فقط الى الكتابة في اليونان السابقة لعهد هوميروس ، وذلك في صدد الحديث عن البطل بيلّيروفون الذي اغرمت به الملكة انتيا Anteia زوجة الملك پرويتوس ، وفاتحته بحبها ، لكنه لم يستجب لها ، فاخبرت زوجها بانه همّ بها ، واستحثته على قتله . لكن الزوج ، الملك پرويتوس ، «ارسله الى ليسيا (في الاناضول) وحمّله وصية تضمر له شرا . اعطاه صحيفة مطوية نقش عليها عددا من الرموز توصي بقتله ، واخبره بان يسلّم الصحيفة الى حميه (والد زوجته الملكة انتيا) ، ملك ليسيا ، وبذلك يضمن مقتله» . (الالياذة) .

فهل كانت مثل هذه الكتابة مستعملة في اليونان ؟

في العام ١٩٠٠م كتب سير آرثر ايڤنس الذي قام بحفريات مدينة كنوسوس في كريت «ان اهم اكتشاف عثرنا عليه مخلفات من الالواح الطينية في حالة سليمة ، وشظايا ، مشابهة للالواح البابلية ، لكن نقوشها من صنف الكتابة الكريتية الماقبتاريخية . وقد تجمع لديّ منها زهاء سبعمئة قطعة» . ولدى دراستها توصل ايڤنس الى ان هناك ثلاث مراحل من الكتابة في كريت : الاولى هي الهيروغليفية المنقوشة على اختام حجرية من مرحلة مبكرة (في حدود ٢٠٠٠ق .م) ثم تليها كتابة اكثر خطية من السابقة اطلق عليها اسم (الخط أ) «Linear A» (بين ١٧٠٠ - ١٤٥٠ ق .م .) . واخيرا هناك كتابة ثالثة ، متطورة عن (الخط أ) اطلق عليها اسم (الخط ب) "Linear B" (بعد حوالي ١٤٥٠ ق .م .) وكانت هذه الاخيرة اكثر الكتابات شيوعا ، وكانت مستعملة في مرحلة دمار مدينة كنوسوس الكريتية . كما عثر على نماذج من ثلاثة آلاف لوح من صنف الخط (ب) ، في مقابل كمية قليلة من الواح الخط(أ) ، مئة ونيّف فقط . اما الكتابة الصورية الكريتية (وهي اقدم الجميع) فيوجد منها حتى اقل من الواح الخط (أ) . ويرجع الفضل في اعداد وتصنيف

الخط (ب) الى ايڤنس ، ومايرس Myres ، وبينيت . وقد كان عملهم تمهيدا لا يستهان به لمحاولة ما يكل ڤنتريس في فك رموز هذه الكتابة ، الخط (ب) .

في العام ١٩٣٤ احتفلت المدرسة البريطانية في اثينا بالذكرى الخمسين على نشاطها ، في لندن . وكان سير آرثر ايڤنس (يومذاك ٨٤ عاما) من بين الخطباء . ومن بين الحضور كان تلميذ في الثالثة عشرة يدرس الكلاسيكيات في Stowe . سمع هذا الصبي ، ويدعى مايكل ڤنتريس ، سير آرثر يقول ان الالواح التي اكتشفها قبل ستة وثلاثين عاما لا تزال تنتظر من يفك رموزها ، فقرر الصبي ان يجعل هذا الموضوع هوايته ، ومنذ ذلك اليوم بدأ صراعه مع هذه المسألة . التي توصل الى حلها بعد سبعة عشر عاما .

والسبب في مضي وقت طويل بين اكتشاف هذه الالواح وفك رموزها (نصف قرن) يعود بالدرجة الاولى الى انها كانت تحتوي على لغة واحدة فقط ، وليس لغتين كما كان الحال مع « حجر رشيد » في مصر ، وصخرة بهستون في ايران . وكان علماء الآثار يحلمون بالعثور ولو على لوحة واحدة مدونة باللغة المينونية (الكريتية) واليونانية لتيسر قراءة اسرار الاولى . لكن مثل هذا الامل لم يتحقق . فكيف تم تحقيق هذه المأثرة ؟

مع ان هناك بعض اوجه الشبه بين رموز الخط (أ) والخط (ب) الا ان علماء الآثار واللغة ، وفي مقدمهم ارثر ايڤنس ، كانوا على قناعة بأن هاتين اللغتين مختلفتان ، . ولما كان عدد الواح الخط (أ) اقل بكثير من عدد الواح الخط (ب) ، فقد قرر ڤنتريس ان يجرب حظه مع هذا الاخير ، لان كثرة نصوصه تقدم فرصا اكثر في تطبيق القواعد والاسس التي يمكن اتباعها في تحليل هذه النصوص ، صرفيا ونحويا ، فضلا عن امكان تكرار بعض المفردات المحتملة . على سبيل المثال ان تكرار مقاطع كلمة بكثرة ربما يدعو الى الاعتقاد بان هذه الكلمة قد تكون واو العطف مثلا ، او اداةتعريف ، اذا كانت تلك اللغة تستعمل اداة تعريف ، او ما الى ذلك . ثم ان كثرة النصوص تساعد حتى على معرفة الصيغ الصرفية للافعال... انها مهمة معقدة جدا والحق يقال ، لان جميع هذه

النصوص تعود الى لغة واحدة وهنا كان اسم مدينة كنوسوس الكريتية ، التي وجد فيها عدد لا بأس به من هذه الالواح ، من بين اهم مفاتيح الحل عند ڤنتريس . فظن اول الامر ان اللغة اتروسكية . لكنه لاحظ في ما بعد ان المفردات التي اخذت تسلس له قيادها تستجيب له اكثر اذا اعتبرها يونانية . وهكذا اتضح ان لغة الخط (ب) يونانية . وكان هذا الاكتشاف اكبر انجاز في تاريخ التنقيبات والابحاث الكلاسيكية (اليونانية) . وهذا يعني ان اللغة الميسينية - نسبة الى ميسينيا في اليونان - يونانية بما لا يرقى اليها الشك (وهي لغة اغاممنون ومنلاوس وآخيل وهكتور ، ابطال حرب طروادة) . ولعل هذه الكتابة استعملت منذ حوالي ١٤٥٠ ق .م . وحتى حدود ١١٠٠ق .م . لكن مما خيب ظن الدارسين ان نصوص هذه اللغة كانت كلها عبارة عن قوائم جرد لمواد تجارية ونحوها . ولم يعثر على نص واحد ينطوي على قيمة تاريخية اوادبية ، باستثناء بعض الاسماء الاسطورية ، بما فيها الاجنبية . فهل كان اغاممنون اميا ؟ ولماذا لم يدون « ملوك » ميسينيا وقائع حياتهم وحربهم وسير حياتهم على الالواح ؟ ان هذا اللغز لايزال محيرا .

اما الخط (أ) الاقدم من الخط (ب) فلا صلة له بالحضارة الميسينية اليونانية ، ولا باليونانيين . ولا بد ان الخط (ب) جاء تطويرا له ، لانه يشبهه في كثير من رموزه .

ومع ان غير باحث تصدى لفك رموزه ، وفي مقدمتهم البروفسور سايروس غوردن الذي اثبت ان لغته سامية ، الا ان المتعصبين للنعرة الهندية - الاوروبة لا يزالون ينتظرون «حلولا » اخرى تأتي على مرامهم ، لكن بغير طائل ، على ما يبدو .

تنبغي الاشارة - استدراكا ايضاحيا - الى ان فك رموز الخط (ب) تم التحقق منه بواسطة نصوص « ثنائية اللغة » من مدينة پيلوس Pylos ، وجدت منقوشة على عدد من الاواني صوريا الى جانب الكتابة المقطعية للخط (ب) . ولما كان معظم علامات الخط (أ) ، الاقدم ، متكررا ايضا في الخط (ب) مع بعض القيم

الصوتية ـ التي حددها مكتشفها مايكل ڤنتريس ـ فقد يسّرت قراءة ڤنتريس مهمة قراءة هذه المقاطع المتكررة . ولحسن الحظ ان هناك ثنائية لغوية في الخط (أ) ايضا . فهناك لوح عثر عليه في آيا تريادا Hagia Triada عليه رموز صورية (تعطي معنى الكلمة رسما ، كالسمكة مثلا) مشفعة باسمائها المدونة بالكتابة المقطعية . وظهر ان اربعة من اسماء الآنية الخمسة المقروءة على ذلك اللوح سامية . مثل : qa - pa التي تقابلها Kuppu بالاكدية و (قُف) بالعبرية ، ولا بد انها تذكرنا بالقُفة العربية ، وهي القرعة اليابسة ، او الزنبيل يتخذ من الخوص ، اي ورق النخيل . ومثل كلمة ka - ro - pa التي تقابلها بالاكدية Karpu وبالعربية (القربة) وهي الوطب اي الوعاء الذي يُجعل فيه الماء او اللبن .

وفي اللوح رقم ٨ من الواح الخط (أ) ثمة قرينتان ثنائيتان (لغويتان) ، احداهما صورية . فهناك رمز للحنطة الى جانب المقاطع التي امكن قراءتها (من خلال مطابقتها مع رموز الخط ب) ، وهي ku - ni su ، وهذه تعني حنطة ، لانها تقابل الكلمة الاكدية ku(n)nishu التي تعني (نوع من الحنطة) ، وتقابلها بالارامية كونثا ، من الجذر السامي (ك ن ث) ، وتعني ـ اي بالآرامية ـ العلس (حنطة مكتسية اصلية) . فالكلمة الكريتية للحنطة هي kunisu . وهذه سامية . اما التسمية اليونانية للحنطة فهي sito (وهذه بدورها مستعارة من اللغات السامية ، لكننا لا نريد ان نثقل هذه الكلمة باستطرادات جانبية) .

ومن بين الكلمات الكريتية (اقرأها غير اليونانية) الاخرى التي وردت في الواح الخط (أ) ما يشير الى معنى «الكل» او «المجموعة» ، وهي ـ بالكريتية ـ ku - ro التي تقابل kullالسامية . وقد وردت هذه الكلمة ، ومعظم الكلمات الكريتية الاخرى ، في نصوص جرد لمواد تجارية . وعلى طاس صغيرة من نوع الآنية السحرية التي تستعمل في التعاويذ عثر عليها في مدينة كنوسوس ، وتصنف باللوح رقم ٩ ، ثمة كلمة امكن قراءتها هي a-ka-nu التي تقابل الاجانة السامية (بالعبرية والآرامية aggan) . والكلمة تستعمل بالارامية

للدلالة على الطاس السحرية في التعاويذ الآرامية لدفع الشر عن المريض (اوالزبون) . وكانت الكتابات التمائمية تدوّن بالحبر داخل طاسات طينية (مفخورة) ، وترجع في اصلها الى تقليد بابلي قديم . واكتشف ان هذا التقليد كان يمارس بصورة متماثلة في كريت وبابل : على سبيل المثال ان طاسات السحر التي عثر عليها في كنوسوس الكريتية وجدت مقلوبة وتحت ارضية الغرفة ، تماما كما هي الحال في بابل .

وعثر على ١٨ حجرا من احجار العبادة المنقوشة بالكتابة في مواقع مختلفة من شرق ووسط كريت . وكان عدد من هذه الاحجار منقوشا بكلمات تكريس تبدأ بالكلمة الآتية : ya-ta-no او a-ta-no وتقابل الكلمة الفينيقية (ي ت ن) وتعني « يعطي ، يمنح » .

وعثر على خواب للخمر في كنوسوس ايضا ، كما وجدت رموز صورية دالة على هذه الخوابي الخمرية في الواح الخط (أ) . وفي مقابلها كتابة مقطعية تشتمل على المقطعين الاتيين : ya-ne . ومعروف ان كلمة (وين) تدل على الخمرة في اللغات السامية (وغير السامية ايضا ، لكن الكلمة اصيلة في الساميات) .

وعلى لوح من الواح الاراقة (اراقة ماء او خمر على الارض او جسد الاضحية) عثر عليه في كهف دكتا ، وجد النقش الكتابي التالي : ki-te-te-bi k(i)-re-ya-tu .

وجلي ان الكلمة الاخيرة تقابل كلمة (قرية) ، وهي مشتركة في اللغات السامية ، وتعني (بلدة) .وقرأ البروفسور غوردن المقاطع على النحو الآتي : « كي تكون البلدة طيبة » (آثرنا ترجمتها الى العربية بالحرف الواحد) .

ويقول سايروس غوردن ان طبيعة المفردات السامية في نصوص الخط(أ) الكريتي تشير الى ان اللغة المينوية Minoan (نسبة الى الملك الكريتي شبه الاسطوري مينوس) سامية شمالية غربية ، وهي بالاساس اللغة الام للغة الاتيوكريتية (= الكريتية الحقيقية) . ويقول ايضا : «ان السكان الساميين في

كريت مروا بعمليتي هجرة وتهجير بين ١٤٠٠ - ٣٠٠ ق .م . وان القادمين الجدد ، الذين لابد ان يشتملوا على الآراميين والفينيقيين الكنعانيين ، تركوا بصماتهم على اللهجات الاتيوكريتية . ان استبداد الامبراطوريات العالمية (الآشورية ، والبابلية ، والفارسية) الذي طال آرام وكنعان اجبر العديد من الساميين الشماليين الغربيين على البحث عن مأوى في الجزر وعلى الشواطىء الاخرى من البحر المتوسط بين القرنين التاسع والرابع ق .م .

اما اسماء العلم في الكتابات الكريتية فتورث انطباعا بأن السكان في كريت كانوا امشاجا من اقوام مختلفة : من بينها اسماء مصرية ، لا سيما تلك التي تنتهي بالمقطع «رع» ، مثل (ن ت ر - ر ع) ويعني «رع المقدس» ، و (رن - رع) ويعني «اسم - رع» ، و (د - رع) ويعني «يد - رع» ، الخ .

وهناك اسماء حورية (الحوريون اقوام آسيون غير ساميين) ، مثل (شكري - تيشيا) و (داكو - شنّي) . وهناك اسماء اناضولية ايضا ، ومن اصول اخرى . لكن ابرز مجموعة من الاسماء التي اشتملت عليها النقوش الكريتية هي السامية الشمالية الغربية ، لان العبادة الطاغية هناك ، كما يبدو ، كانت كنعانية/ فينيقية . وفي الواح آيا - تريادا بكريت هناك الكثير من التقدمات للإله a - du كما يرسم بالخط الكريتي ، وهو Addu الفينيقي (الاسم الآخر لبعل) . وتظهر الإلاهة الفينيقية Tinit على النحو الآتي في الخط (أ) Ti-ni-ta ، اما الاله السامي الشمالي الغربي (يم) او Yammu فيكتب بالخط (أ) : Ya-mu .

ويصعب القطع ان كان da-ku-na اسم علم او اسما مقدسا . ولا شك في انه يقابل اسم ألاله الشامي الغربي داجون Dagon الذي كان الفلستينيون والفينيقيون يعبدونه . . وصيغته الاكدية الاقدم Dagan .

ننتقل الان الى اسم (كريت) بالذات .ان Kret (وبصور اخرى krit وكذلك Kretan) هو مؤسس كريت ، وكان يُعبد كملك مقدس . وكان في آيا - ترياادا يتلقى التقدمات . ولا شك ان الاشخاص كانوا يتسمون باسمه . اما ملحمة كارت (حسب قراءة انيس فريحة) التي عثر عليها في اوغاريت (قرب

اللاذقية) فتصوره شخصا فانيا مع انه ابن ايل وأشيرة . وهما رئيس البانثيون الاوغاريتي وزوجته ، على التوالي . لكن مارتن برنال يرى ان اسم كريت مشتق من اللفظة المصرية القديمة (ك ء ي ت) ، وتعني «ارض مرتفعة» . وهذا ، حسب رأيه ، ينطبق على ارض كريت الجبلية .

ويرد اسم Da-we-da في الخط (أ) ، وهو المقابل لاسم (داود) . اما اسم Pa-de فيذكرنا باسم الملك الفلستيني في عقرون Padi (فادي) ويقابله بالعبرية (فوده) ويعني : فادي ، مفتدى .

ومن الاسماء المهمة ايضا من حيث الدلالة التاريخية واللغوية والاثنية Da-na-ne الذي يقابل في اللغات السامية (دان) ، والكلمة تعني (قاض) ، وهناك في الاكدية كلمة (ديّان) .

ويشير سايروس غوردن الى ان الاسماء السامية تميل الى القصَر ، انسجاما مع طبيعة اللغات السامية ذات الجذر الثلاثي للكلمات ، على خلاف الهندية ـ الاوروبية . وان معظم الاسماء التي عثر عليها في الواح (ايا ـ تريادا) بكريت قصيرة . اما الاسماء الميسينية (اليونانية) الموجودة في الخط (ب) (اليوناني) فهي اطول ، لانها هندية ـ اوروبية في معظمها .

ومن الملاحظ ايضا انه في حين توجد نماذج من الاسماء الكريتية (بمعنى غير اليونانية) في الخط (ب) . فإن العكس ، اي الاسماء الميسينية اليونانية لا وجود لها في الالواح المكتشفة حتى الان من الخط (أ) .

واذ نرى ان أسماء العلم التي ترجع الى اصل سوري الواردة في الخط (ب) الميسيني (اليوناني) تشكل نسبة صغيرة فقط بين مجموعة طاغية من الاسماء اليونانية ، نجد ان الاسماء الواردة في الخط (أ) كلها سورية تقريبا .وهذا يقدم تفسيرا لوجود تجمع سكاني فينيقي كثيف في شرق ووسط كريت .

وفي بلدة دريروس الكريتية عثر على نماذج من «الكتابة الثنائية» بالاتيوكريتية (= الكريتية الحقيقية) واليونانية ، تشير الى ان اللغة السامية الغربية كانت ما تزال تستعمل هناك حتى حوالي العام ٦٠٠ ق .م . وفي هذه

البلدة عثر على نص معاهدة بين بلدة دريروس التي تقع في الشمال الشرقي من كريت ومدينة كنوسوس القريبة منها . في هذا النص (٢٢٠ ق .م .) يرد ذكر فينقس Phoenix جنبا الى جنب مع آلهة والاهات اخرى مما حدا بالباحث ادوارد مبير ان يقول ان فينقس «كان إلها كريتيا بارزا» على الرغم من عدم وجود مصادر اخرى تشير الى دوره في بانثيون الآلهة . لكن المهم هنا ان كل ما يحيط بدريروس ذو جذور سامية . فقبل كل شيء تقع هذه البلدة على السفح الشرقي لجبل كادستون Kadiston ، الذي قارنه اسمان Assmann بكلمة قاديشتو السامية ، وتعني «كاهنة في معبد» ، فضلا عن انها لقب عشتار التي كانت تكرس لها كاهنات المعبد . وعلى مقربة من دريروس ثمة بلدة تدعى إستروس Istros او إسترون Istron ، وهما مشتقتان من (عشتار) ايضا ، كما اكد اسمان . اما دريروس Dreros فليس لها اشتقاق في اللغة اليونانية ، كما يقول ما يكل استور ، وقبله Van Georg Wissowa ، ولعلها ترجع الى كلمة (داريرو) او (دارارو) الاكدية (وبالعبرية : ذرور طائر يقرن بالسنونو) . وهناك قول قديم ينص على ان «عشتار ابنة سين (القمر) اظهرت نفسها على صورة سنونو» . كما ان دورارو(الاكدية تعني «حرية ، حصانة» ايضا . وكانت في وادي الرافدين مدينة تدعى دورارو قرب مدينة لارسا القديمة الشهيرة . وهذا المعنى يصدق ايضا على اسم بلدة دريروس الكريتية التي تعتبر ملجأ مثاليا ، بناها الاتيوكريتيون (الساميون) في ايام الشدائد بعد انهيار الحضارة المينوية في كريت ، كما يقول مايكل استور في كتابه «ايلينوساميتيكا ص ٣٩٠) . وهناك ميناء يدعى فينقس على الساحل الجنوبي الغربي لكريت . وكان مرفأ لمدينة ارادن Araden ، التي يذكرنا اسمها بأرادوس في فينيقيا ، وبالاصل ارواد .

وتجدر الاشارة ايضا الى ان اللغة السامية في كريت استمرت زهاء الالف عام بعد ظهور الخط (أ) . وكان المؤرخون اليونانيون يؤكدون على ان الاتيوكريتيين (=الكريتيين الحقيقيين) ، وهم بقايا السكان السابقين لليونانيين

في كريت ، استمر وجودهم كجماعة متميزة لا تتكلم اللغة اليونانية في الجزء الشرقي من كريت الى المرحلة اليونانية الكلاسيكية . وعثر على بضعة نصوص ، مدونة بالخط اليوناني الابجدي ، لكن لغتها غير يونانية على نحو لا يدع مجالا للشك ، سميت اتيوكريتان ، ويرجع تاريخها الى حدود الاعوام ٦٠٠ و ٥٠٠ و٣٠٠ ق .م . وقد فك رموزها سايروس غوردن وتوصل الى انها فينيقية .

لكن مما يبدو مدعاة للاستغراب ان الاتيوكريتيين ، على خلاف المستوطنات الفينيقية في الغرب ، لم يستعملوا الابجدية الفينيقية في كتاباتهم . وتفسير ذلك انهم لم يكونوا مهاجرين حديثين من فينيقيا ، بل انحدروا من المينويين الساميين الغربيين منذ اواسط الالف الثاني قبل الميلاد ، ممن استوطنوا كريت قبل ابتكار الابجدية الفينيقية ، وانقطعوا عن اقربائهم الشاميين نتيجة للصدع الذي حصل في العلاقات البحرية بعد العام ١٢٠٠ ق .م . (المرحلة التي عرفت بهجمة اقوام البحر على شرق وجنوب البحر المتوسط) .

وعندما حاول بيلوخ Beloch ان يهزأ بنظرية الحضور الفينيقي في اية بقعة من الاراضي اليونانية ، تساءل ساخرا : «اذا كان هناك حضور للفينيقيين في كريت ، فلماذا لم يُدرجوا بين سكان الجزيرة الخمسة في الاوذيسة (الكتاب التاسع عشر : ١٧٥ ـ ١٧٧) ، وهم : الآخيون ، والاتيوكريتيون ، والكيدونيون ، والدوريون ، والبيلاسغيون ؟» . اما الآن ، وقد بيّن سايروس غوردن ان احد هؤلاء الاقوام الخمسة ، ونعني بهم الاتيوكريتيين ، فينيقيون ، فلم يعد لتساؤل بيلوخ الساخر معنى . لكنه توفي قبل ان تظهر هذه الحقيقة ، كما يقول مايكل استور (المصدر السابق ، ص ٣٤٧) .

وكالعادة ، لا تسلم نظرية او اطروحة من طعون .فالباحث موريس پوپ Pope (الكتابة الايجية والخط أ : ١٩٦٤) يقرّ بأن كلمة Ku-ro في الخط (أ) تقابل « كل» السامية ، على نحو ما بيّن Meriggo في العام ١٩٥٦ ، ويقول :

« ليس هناك اروع من ذلك... وعلى هذا الغرار ايضا كلمات مثل Kuniso وكذلك qerau اللتين تطلقان على الحبوب . الاولى تذكرنا بالبابلية Kunasu وهو صنف من الحنطة ، والثانية ايضا بكلمة qalu الاكدية وتعني (حبوب محمصة : مقلية) . لكن من اسف ، وكما بيّن پيروزي Peruzzi في ١٩٦١ ان وجود كلمة total في اللغة الانكليزية لا يعني ان الانكليز يتكلمون اللاتينية . وهذا ينسحب ايضا على الحبوب ، والحبوب المحمصة (يقصد البابلية في الخط أ) » . ويقول پوپ ايضا : « ولعل اضعف حجة مما سبق ، الاسماء المنقوشة على الاواني ، مثل Daweda و Kupanu اللذين يذكراننا بداود وجفنة الاوغاريتيين » . وقبل ذلك اصر پيروزي Peruzzi على ان الخط (أ) غير سامي ، بل هندي - اوروبي .

لكن سايروس غوردن يرد على مثل هذه الطعون بقوله : « اذا كانت مفرداتنا المينوية « = الكريتية » مقتصرة على الكلمات فقط ، لربما قيل انها كانت حضارية مستعارة . لكن هناك مجموعة من الاسماء السامية ، مثل « ام » ، « رجُل » ، « ناس » ، « بلدة » ، « مدينة » ، من غير المرجح ان تعتبر مستعارة . ان الافعال المينوية : « « فعل الكينونة » ، « يعطي او يهب » ، « يضع تقدمة » ، والضمائر المينوية : « هو » ، « عائد له » ، « هذا » ، « كل » ، وادوات الربط : « و » ، « او » ، والاعداد المينوية : « سبعة » ، « تسعة » ، « عشرة » ، والحروف المينوية : « إلى ، لـ » ، كلها سامية شمالية غربية ، ولا يمكن ان تكون الفاظ كهذه مستعارة . الى جانب ذلك ، ان القواعد وتركيب الجمل ساميان . وهذا انما يقدم الدليل الساطع على الطبيعة السامية الشمالية الغربية للغة المينوية » . (اوغاريت وكريت المينوية ١٩٦٦) .

وتحت عنوان « اصل المينويين » يقول سايروس غوردن : « في مكالمة شخصية مع البروفسور كلارك هوبكنز افاد بأن الهوية السامية للغة المينوية تتماشى مع طبيعة الفن المعماري المينوي . ان غياب الموقد ، والتأكيد على عنصري النور والهواء ، وتواتر الطيور والزهور في الزخرفة ، تومىء الى الاصل

الجنوبي لبناني القصر « في كريت » . وهو يستثني عن حق اليونان والاناضول (كأصل لبناة القصور في كريت) ، حيث تكون الأشتية فيهما باردة ، ويكون الموقد ضروريا . ويشير الى قبرص ، والساحل القيليقي ، وسورية ليس فقط الى شمال بل حتى جنوب العاصي ، كأصل ممكن للمينويين» . وبعد ان اكتشف عالم الآثار البريطاني الشهير سير ليونارد وولي قصر الملك يارم - ليم في السوية السابعة من تل العطشانة في سورية ، توصل الى ان هناك « روابط لا تدع مجالاً للشك بكريت » ؛ فقد وُجد أن « وسائل البناء المستخدمة في قصر يارم - ليم مماثلة لتلك التي في كنوسوس « كريت » » « وان الرسوم الجدارية متماثلة في الوانها ، وتقنيتها ، واسلوبها » . وأكد ان قصر يارم - ليم كان امتدادا للنهج القديم ، « اما في كريت فقد ظهر ذلك كله فجأة » . ولا شك في ان اقدم نموذج لطراز الرسوم الجدارية في كنوسوس الكريتية يمكن ترسمه في قصر زيمري - ليم في مدينة ماري السورية (حوالي ١٧٣٠ق .م .) الذي كان مثار اعجاب ملوك سورية الشمالية المعاصرين له . ويؤكد R.W. Hutchinson مؤرخ كريت ما قبل التأريخ على ان « جداريات ماري ، على اية حال ، كانت اسبق من الرسوم الجدارية الدقيقة في كنوسوس بمئة عام » . (عن كتاب مايكل استور : ايلينوساميتيكا ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨) .

وهناك ادلة آثارية كثيرة ، الى جانب الاخبار اليونانية المتوارثة عن نزوح قدموس الفينيقي ، ودانوس (دان) « المصري » الى اليونان . وكان الساحل الشمالي والمصري (الدلتا) يضج بامشاج من الاقوام السامية . ذلك ان الشمال المصري (الدلتا) لم يكن يوما ما مصريا خالصا . وكانت مصر في القديم تدعى « البلدين » لاسباب من بينها ان الدلتا كانت منطقة تختلف كثيرا عن مصر العليا (الجنوب المصري) . وفي المرحلة المينوية المتوسطة (بي ٢٠٠٠ - ١٧٠٠ق .م .) اضطرت جماعات سامية شمالية غربية كانت تقطن الدلتا المصرية الى الهجرة شمالا او عن طريق الشام الى جزر ايجة والبر اليوناني تحت ضغط المملكة الوسطى في مصر العليا ، في المرحلة التي ظهرت القصور فجأة في

كريت . وهذا يفسر التطور المفاجئ في كريت من طور العصر الحجري الحديث الى العصر البرونزي المتقدم . وكان هؤلاء المواطنون الجدد ، القادمون من مصر ، ساميين شماليين غربيين . مثل اخوانهم الساميين المقيمين في ليبيا وفلسطين وفينيقيا وسورية . ويرى بعض الباحثين ان هؤلاء الاقوام هم فلول الهكسوس الذين طردوا من مصر في ١٥٨٠ ق .م .

وفي المأثورات اليونانية ان بيلوس (بعل) وإبنيه ايجبتوس ودانوس كانوا من شمال غرب افريقيا ، لكنهم لم يكونوا مصريين ، بل فينيقيين . وهذا انما يقدم تفسيرا لهذه الفرضية . وفي بحثه عن نهوض الحضارة الميسينية (في اليونان) ، المنشور في «تأريخ كيمبرج القديم» يقول F.H. Stubbings عن دانوس (دان) : «لم يألُ اسخيلوس (الكاتب الدرامي اليوناني الكلاسيكي) جهدا في التأكيد على انه جاء من مصر على رغم انه لم يكن مصريا » .

لعلنا في المستقبل سنحاول إلقاء مزيد من الضوء على الحضور السامي (الفينيقي) في اليونان ، جزرا وبرا .

قرص فيستوس احد كنوز متحف ايراكليون

هل مازال لغزا محيرا؟

يحتل قرص فيستوس موقعا بارزا في متحف ايراكليون بكريت ، نظرا الى اهميته كأثر تاريخي ، وكنموذج من اقدم النقوش الكتابية التي عثر عليها حتى الان على الارض الاوروبية . وهو عبارة عن صفيحة من الطين النضيج قطرها ١٦سم . وسمكها حوالي ٢ سم . ويعتقد عدد من الخبراء ممن قاموا بفحص القرص انه تصلب بالنيران التي اعقبت الزلازل التي هدمت القصر القديم في فيستوس . لكن هناك من يشكك بهذه النظرية التي يصعب تقبلها بسهولة ، لان من يملك المهارة في انتاج وطبع مثل هذا القرص لا تعوزه الحيلة للتفكير في شيء للمحافظة عليه!

يحتوى قرص فيستوس ، في وجهيه ، على مزيج من الاشكال الصورية والرمزية ، طبعت حلزونيا بمكعبات من النرد عندما كان الطين نديا . لهذا تعتبر هذه العملية اقدم نموذج للطباعة عرف حتى الآن . وتفصل بين مجموعات الرموز والصور التي يشتمل عليها القرص ، خطوط عمودية على المنحنيات الحلزونية للقرص .

اكتشف القرص في العام ١٩٠٨ على يد الدكتور Pernier ، احد اعضاء البعثة التنقيبية الايطالية ، في مدينة فيستوس جنوب كريت . عُثر عليه بين

مجموعة من الواح الخط (أ) الكريتي . ويقول مكتشفه ان وضع القرص ساعة اكتشافه يدل على انه انحدر عن موقعه من موضع اعلى . اما اصل القرص فلم يعرف تماما حتى الان مع انه وجد في كريت . وتعددت الآراء ، فنسب الى الاناضول او ليبيا او قبرص . ورأى البعض ان مضمونه اناضولي من ليسيا . وقال اخرون انه فلستيني (نسبة الى الفلستينيين القادمين من البحر الذين استوطنوا الساحل الفلسطيني الجنوبي في القرن ١٢ ق .م .) . واستند اصحاب الرأي الفلستيني الى شكل قبعة الشخص المتكررة كدليل قاطع على هذا التفسير . وعلى اية حال حتى لو صح هذا فانه قد يعني ان الفلستينيين ، او بعضهم ، انطلقوا من كريت .

وقال فيه سير آرثر ايڤنس الذي كان ينقب في مدينة كنوسوس الكريتية يوم اكتشف القرص : «انه كان ترنيمة لإلاهة الارض» . وقيل عنه ايضا انه «ترنيمة لإله المطر في الباسك» ، و «ترنيمة للإلاهة ريّا في اليونان» ، و«قائمة باسماء ثلاثة عشر جنديا» ، الخ . لكن اكتشافه في كريت ووجود علاقه بينه وبين الخط (أ) والخط (ب) الكريتيين ، يعتبران من اقوى الادلة على اصله الكريتي . بل ان رموزا مماثلة لرموز هذا القرص وجدت على فأس منقوشة عثر عليها في بلدة اركالو خوري في كريت ، تؤكد هويته الكريتية .

ومنذ اكتشافه وحتى الآن طرحت تفسيرات وقراءات عدة لهذا القرص ، فبعضهم قرأ تسلسل الرموز (وهي شكل حلزوني) من الخارج الى الداخل ومن اليمين الى اليسار ، وزعموا ان الكتابة هندية - اوروبية في ضوء بعض رموز الخط (ب) التي تتشابه مع بعض رموزه . ومما يثير الاستغراب ان دليل متحف ايراكليون الكريتي (الكتاب) يزعم ان قراءة القرص ينبغي ان تكون من الخارج الى الداخل ، مع ان هناك مؤشرات واضحة تدل على ان القراءة ينبغي ان تكون من المركز الى الخارج ومن اليسار الى اليمين . من بين هذه المؤشرات ان اتجاه جميع رؤوس الاشكال البشرية نحو اليمين ، فضلا عن ان اتجاه الشخص الماشي في جميع الحالات نحو اليمين ايضا ، فكيف تقرأ رموز القرص بصورة عكسية ؟

وجاء في دليل متحف ايراكليون الذي يعتبر قرص فيستوس من بين اهم واثمن مقتنياته ، ان العديد من المحاولات التي بذلت لقراءته باءت بالفشل ، وان النظريات الاخرى التي طرحت حوله بقيت من دون برهان . ويقول الدليل : «ان ارجح النظريات هي تلك التي ترى ان نص القرص ترنيمة دينية ، لان العلامات مرتبة في مجموعات ايقاعية ، وان بعض مجموعات الرموز يتكرر مثل اللازمة . وعلى اية حال ، سيبقى قرص فيستوس ، الى ان تفك رموزه ، اكبر لغز في متحف ايراكليون» .

ونعتقد ان من حقنا ان ندهش لهذا الكلام بعد ان نعلم ان ارجح واقوى قراءات القرص هي تلك التي تذهب الى ان لغته ساميّة . ولا شك في ان هذه الحقيقة لا تلقى هوى عند ذوي النزعة الهندية - الاوروبية ، لانها تأتي دليلا اخر على الهوية السامية للحضارة الكريتية المينوية التي ورثها اليونانيون بعد تدفقهم الى الجزيرة في مرحلة لاحقة .

ومن بين الاسباب التي توحي بالهوية السامية لكتابة القرص انه عثر عليه مع الواح طينية عليها نقوش من صنف الخط (أ) الذي برهن البروفسور سايروس غوردن على ساميته (انظر الكلمة السابقة) . وهو نفسه كان من بين مَنْ تصدوا لقراءة هذا القرص ، وتوصل الى ان نقوشه سامية ايضا .

بدءا ، يؤكد سايروس غوردن على ان العديد من علامات القرص مؤلفة من صور ذات دلالة ، فهي والحالة هذه ليست عصية على التشخيص . وبعض هذه الرموز المصورة يمكن مقارنتها بعلامات الخط (أ) الكريتي ، التي عرفت قيمتها الصوتية . ويذكر امثلة على ذلك نأسف لعدم ادراجها ، لصعوبات طباعية . ومما هو جدير بالذكر ان القيم الصوتية مشتقة على نحو مقطعي من كلمات سامية تؤكدها الصور او الرموز الكتابية التي تمثل فكرة او شيئا ما . وهذا يعني ان الكتابة استنبطت للغة المينوية (الكريتية) بالذات ، وليس للغة لا تزال غير مقروءة . ويعني ايضا اننا سنكون قادرين على تلفظ اية علامة ، اذا تمت مقارنة الرمز الكتابي الذي يمثل فكرة او شيئا ما بالكلمة السامية المناسبة .

وفي ضوء ذلك ، ستكون قراءة حتى الكتابات او النقوش المختصرة على الاختام في الهيروغليفية الكريتية ممكنة . ان قرص فيستوس مدوّن حلزونيا على طريقة النصوص الدينية ـ السحريةالتي بدأت في مدينة كنوسوس (الكريتية) ، وبلغت ذروتها في جرار التعاويذ الآرامية في وادي الرافدين في المرحلة الساسانية (الساسانيون حكموا في الفترة ٢٢٦ ـ ٦٥١م) .

ويلاحظ ان جميع الاجسام والرؤوس منقوشة في هيئة جانبية ، وليس من بينها ما هو امامي او مواجه . واتضح ان رأس اللبوة الجانبي يقابل العلامة -ma في الخط (أ) التي تظهر امامية فيه . وكان B. Schwartz قرن (الطير الطائر) بالعلامة -Ku ، والقدم التي تنتعل نعالا (او اليد المقفزة) بالعلامة -no . ان العلامة -Ku مشتقة مقطعيا من -Kudr التي ترمز للنسر او طير من الطيور الجوارح في اوغاريت وسورية . اما العلامة -No فتأخذ قيمتها من -nol التي تقابل الكلمة السامية الغربية (والعربية ايضا) « نعل » ، وذلك على غرار -Bol و « بعل » .

ثم ان علامة -Su تشير بما لا يدع مجالا للشك الى كلمة (سفينة) في القرص . واذا طبقنا قاعدة الطرف الصوتي ، فان -Su هي الطرف الصوتي لكلمة Supinatu (سفينة) . والفم هو Pe (بالعربية فو) . وعلامة الشعير في القرص قيمتها الصوتية « إي» في الخط (أ) . قارن (إت) المصرية القديمة التي تقال للشعير . وبالتالي سنحصل من الكلمات « سفينة ـ فم ـ شعير ـ تي » على كلمة مركبة من الاطراف الصوتية الاولى لها . هي Su-Pe-i-ti وتساوي باللغة الاوغاريتية الكنعانية اللفظة (Spit) وتعني «اكلتُ» .

واستطاع سايروس غوردن ان يركب مقاطع اخرى من الاطراف الصوتية للرموز الاخرى ، ومن الرموز التي تدل مباشرة على مقاطع ، نظرا الى تشابهها مع رموز الخط (أ) الذي كان قد فك ـ هو ـ رموزه . ولان المقطعين Pu-te اللذين يشكلان كلمة يتكرر ذكرها خمس مرات في القرص ، فلابد ان تكون كلمة عامة ذات دلالة دينية . والكلمة الاوغاريتية الكنعانية (بوت) هي احدى صيغ

(ب ت) اي « بيت » ، لكنها تطلق في الاوغاريتية على « المعبد » ايضا . وبهذا تنسجم مع محتوى نص القرص .

ولاحظ ايضا ان المقطعين Ha-da (بعد التحليل على طريقة الطرف الصوتي) يذكراننا بكلمة (hd) الاوغاريتية ، وهي اسم اخر لبعل (الإله) . وهكذا نحصل على مواز للطقس الديني عند تناول وجبة شعائرية في معبد بعل . وهو على غرار العبارة الاوغاريتية : « يتناول وجبته (الطقوسية) في بيت بعل » .

وباتباع هذه الطريقة في الحصول على المقاطع من الاطراف الصوتية للكلمات التي لها دلالة تشكيلية في القرص ، وبالاستعانة برموز الخطين (أ) و (ب) ، توصل غوردن الى ملء بعض الثغرات الغامضة في المجموعة المقطعية لبعض الكلمات . على سبيل المثال ان العلامة الموجودة في القرص ، التي تدل على ارضية البيت ، يمكن ان تقرن بالكلمة السامية « بيت » . وعند ذاك تصبح قيمتها الصوتية ba او pa . وهناك مجموعة من المقاطع المتكررة في القرص تبدأ بالمقطعين Pa-i . في سياق يرد فيه مقطعان يدلان على « المدينة » بالاوغاريتية ، وهي (Kr-ku) ، لذا يمكن ترميم الكلمة لتصبح Pa-i- to ، تماما كما ترد تهجئتها في كل من الخط (أ) والخط (ب) ، والمقصود بها Phaistos (فيستوس) ، المدينة التي وجد فيها القرص .

ويعترف غوردن بان مزيدا من الجهد ينبغي ان يبذل لقراءة القرص ، مع ان النص يبدو ساميا مثل الخط (أ) . ويرى ان الكتابة المينوية (الكريتية) هي من الصنف الاكروفوني (= الكتابة باستعمال اطراف المقاطع الاولى من الكلمات) ، وانها شبيهة بالكتابة المصرية القديمة . وبعد ، ان هذه القراءة السامية لقرص فيستوس ـ ان صحت ـ تأتي دليلا اخر على ان مؤسسي الحضارة الكريتية كانوا ساميين قبل وصول اليونانيين الى الجزيرة . وسبقت الاشارة في الكلمة السابقة الى الجيوب السامية ـ الاتيوكريتية ، اي الكريتية الحقيقية ـ التي بقيت في شرق ووسط كريت الى حدود ٣٠٠ قبل الميلاد .

الوطن الاول للاقوام الهندية-الاوروبية

(١)
من اين انطلقت الاقوام الهندية-الاوروبية

قبل بضعة اعوام صدر كتاب في بريطانيا بعنوان (علم الآثار واللغة : لغز الوطن الاقدم للاقوام الهندية - الاوروبية) للعالم البريطاني المعروف كولن رينفرو ، طرح فيه نظريته حول الموطن الاول للاقوام الهندية - الاوروبية . في هذه النظرية يشذّ كولن رينفرو عن الاجماع بشأن العمق الزمني للانتشار الهندي - الاوروبي ، وربما ايضا في دوافع هذا الانتشار . ونظرا لاهمية هذا الموضوع ، بصرف النظر عن صحة او عدم صحة الاطروحة التي تقدم بها المؤلف ، رأينا ان نقدم عرضا لهذا الكتاب . وايمانا منا بان اوليات هذا الموضوع ليست معروفة ، او ليست معروفة بالقدر الكافي لدى العديد من القراء ، سنقدم في هذه الكلمة عرضا عاما للنظريات المطروحة حول الوطن الام للاقوام الهندية - الاوروبية . وفي كلمة قادمة سنعرض لنظرية كولن رينفرو ، التي تستند الى موضوعة (الزراعة) كعامل اساس في عملية الانتشار الهندي - الاوروبي ، وتعتبر الاناضول منطلقا لهذا الانتشار . وبعد ذلك سنحاول مناقشة الموضوعة الزراعية ، ونتوسع فيها بما يتجاوز حدود الدائرة الهندية - الاوروبية ، متوغلين في عمق زماني ومكاني ابعد ، منطلقين من مهد الزراعة الاول ، ونعني

به منطقة الهلال الخصيب ، وبالتحديد حوض الفرات الاوسط الذي يعتبر الموطن الاول للحنطة وتدجينها .

ولاشك ان هذا سيقتضي مناقشة احتمال وجود صلة قربى - بهذا الشكل او ذاك - بين الاقوام الهندية - الاوروبية والاقوام السامية في مرحلة اقدم ؛ وهو موضوع مطروق وله مؤيدوه ومعارضوه ، لكن مقتربنا للدخول اليه سيكون انطلاقا من الفرضية الزراعية ، الى جانب الادلة اللغوية المحتملة .

هناك عناصر ينبغي ان تؤخذ بعين الاعتبار عند دراسة موطن اقوام يتكلمون لغات منحدرة من اصل واحد ، كالاقوام الهندية - الاوروبية . هذه العناصر هي : (١) طبيعة اللغات الهندية - الاوروبية . (٢) بيئة موطن الاجداد الهنود - الاوروبيين . (٣) علم الآثار . (٤) الانثروبولوجيا .

ولايضاح هذه النقاط الاربع نقول :

١ - ان اشتراك اللغات الهندية - الاوروبية في حد ادنى من المفردات الدالة على اسماء القرابة ، واعضاء الجسم ، والاعداد ، والضمائر ، والمفردات الاساسية في الحياة ، وحد ادنى من الصيغ الغراماطيقية (النحوية) ، يعني ان هذه اللغات تنتمي الى اصل واحد .

٢ - اذا وجدت بيّنات بيئية (ايكولوجية) مشتركة بين لغات هؤلاء الاقوام (اسماء حيوانات ونباتات ؛ والفاظ جغرافية مشتركة ، كالكلمات التي تدل على الجبل مثلا ، او الصخر ، او النهر ، او البحر ، الخ ، ومفردات مناخية : بارد ، قارس ، حار ، ثلج ، صقيع ، الخ) .

٣ - واذا توفرت ادلة آثارية ذات طابع مشترك في مناطق انتشار الاقوام الهندية - الاوروبية ، كنوع معين من الفخار ، وادوات معينة ، ولُقى لها دلالة كالعجلة او اجزائها ، وعظام بعض الحيوانات التي اقترنت بهؤلاء الاقوام ، كالحصان مثلا ، وطريقة دفن الموتى ، الخ .

٤ - واذا اضفنا الى ذلك كله العامل الانثروبولوجي ؛ على سبيل المثال طبيعة حياة هؤلاء الاقوام (نظام قبلي ، ام ملكي ؟) ، وديانتهم ، واساطيرهم ، الخ .

عند ذاك يصبح بالامكان تصور الموطن الاول المفترض لهؤلاء الاقوام . وفي هدي هذه العناصر الاربعة (او بعضها كما هو الحال) طرحت عدة نظريات حول الموطن الاول للاقوام الهندية ـ الاوروبية ، فيما يلي نذكر اهمها :

اولا : النظرية السهوبية . ونظرا لاهميتها سنعرض لها بشيء من التفصيل .

منذ العام ١٨٦٨ طرح بينفي الفرضية السهوبية في البحر الاسود وبحر قزوين كموطن سلفي للاقوام الهندية ـ الاوروبية . ولخلو اللغات الهندية ـ الاوروبية من اسماء الحيوانات الآسيوية الصرف (النمر ، والجمل وسواهما) استثنى بينفي الجزء الاسيوي من هذه السهوب . وكانت اطروحته تستند فقط تقريبا الى العامل اللغوي . ثم احيا غوردن تشايلد ، العالم الآثاري الاسترالي الشهير ، هذه النظرية مجددا في الفترة (١٩٢٦ ـ ١٩٥٠) ، بالاستناد الى معطيات آثارية . وفيما بعد تقدمت العالمة السوفيتية البارزة ماريا غيمبوتاس بمزيد من الادلة والحجج حول هذه الفرضة ، في ضوء تنقيباتها وابحاثها في فترة (الستينات ـ السبعينات) ، حيث توصلت الى ان جنوب روسيا واوكرانيا ، او ما بين بحري قزوين والاسود ، كانت مسرحا لحضارات وُجدت في مناطق سهبية وسهبية ـ غابية ؛ وشهدت هذه المنطقة منذ الالف الرابع قبل الميلاد كل صفات المجمتع الهندي ـ الاوروبي المفترضة ، التي امكن تبيّنها من خلال الادلة اللغوية ، من بينها اكثر المؤشرات الجغرافية دلالة ، ونعني بذلك الحصان المدجن (الذي كان موطنه روسيا الغربية) والعربات ذات العجلات . وكانت المستوطنات السهبية قليلة ، ومعظم حضارات المنطقة المختلفة تم التعرف عليها من طريقة دفن الموتى بالاساس . كان الدفن يمارس في حُجر ارضية او حجرية ، وغالبا ما يقترن بصبغة المغرة . وعثر في حالات عديدة على ركام واطىء من تراب (بالروسية Kurgan) . وقد تشتمل محتويات القبر على اسلحة وبقايا حيوانات ، لاسيما الخراف والماعز ، وكذلك الماشية والخيل . ان الميزة الاساسية للتقليد الكورغاني

هي انه مجتمع رعوي ، كثير الحركة (من هنا ندرة البيّنات التي تدل على الاستقرار او الاقامة) ، يستعمل العربات التي تجرها الثيران ، ويمتطي الخيول . ولعل هؤلاء الناس وُجدوا بالاصل في السهوب الشرقية ، ربما في منطقة الفولغا ـ اورال ، ثم تقدموا غربا الى ان اصطدموا بحضارات اواخر العصر الحجري الحديث في شرق ووسط اوروبا . وانتشروا جنوبا ايضا عن طريق القفقاس لاحتلال وادي الرافدين . واندفع البعض الى ما وراء ذلك ، الى الهند ، في حين بقي آخرون في السهب ، وضغطوا باتجاه الشرق حيث شقوا طريقهم الى آسيا الوسطى ، مسرح الهجرات الايرانية وربما الطوخارية ايضا .

ويُعزى الانتشار باتجاه اوروبا ، وهو اكثر عناصر هذه النظرية عرضة للنقاش ، الى ثلاث موجات من الهجرات تقع بين ٤٠٠٠ ـ ٢٥٠٠ ق .م .

اما الادلة على هذا التوسع فتستند الى عدد من الاساليب الجديدة التي وضعت موضع التطبيق في سياق التطور الذي مرت به اوروبا في مرحلة ما قبل التاريخ . ويمكن ايجازها باختصار شديد :

ان التغير في طقوس الدفن يمكن تلمسه في نظرية الكورغان او اي نظرية اركيولوجية (آثارية) اخرى تستند الى عامل الحركة او التوسع . ففي جنوب شرق اوروبا لاحظت العالمة ماريا غيمبوتاس حالة من المساواة الجنسية ، والحياة المسالمة ، الى جانبها ثمة قبور غريبة في اشكالها مماثلة للمدافن في السهوب . وغالبا ما تقترن هذه القبور بالذكور مع اسلحة : سهام ، رماح ، سكاكين ، ورموز سلطة ، كالصولجان المنحوت رأسه على هيئة رأس حصان . كما لاحظت ظاهرة احراق الارملة بعد وفاة زوجها في بعض القبور ، الامر الذي يورث انطباعا بباترياركية النظام (ابوي) لدى هؤلاء المحاربين الرعويين (مربي الماشية) الذين فرضوا انفسهم على السكان المحليين الزراعيين .

وترى غيمبوتاس ان افتقار اراضي الكورغان الاصلية الى الكلأ الوافر ربما

ادى الى هذه الهجرات الكورغانية الى جنوب شرق اوروبا ، وانتقال الاقتصاد القائم على تربية المواشي الى حوض الدانوب ، بعد انهيار النظام الاقتصادي الزراعي المستقر امام المحتلين . ومن الادلة الاخرى على هذا التوسع انتشار الحصان المدجن من السهوب الى حوض الدانوب ، حيث اعتبرت عظام الخيل ، والصولجانات المنحوتة رؤوسها على هيئة حصان ادلة على التدخل الكورغاني . الى جانب ذلك هناك تغير ملموس في انواع الفخار من طبقة الى اخرى في سويّات الحفر الآثارية في هذه المناطق . وتراجعت صناعة النحاس في البلقان في العصر الحجري ـ النحاسي ، وحلت محلها بالتدريج الصناعة البرونزية التي يرجع اصلها الى مراكز التعدين في القفقاس وانتقلت الى البلقان عن طريق السهوب ، كما ادخلت هذه الجماعات الكورغانية الى البلقان واوروبا الوسطى العربات ذوات العجلات... وسيعيد التأريخ نفسه بعد الآف السنين ؛ فكما كان للحصان دور كبير في انتشار الاقوام الهندية ـ الاوروبية ودحر سكان المناطق التي غزوها ، سيستخدم الاسبان الحصان في القرن السادس عشر الميلادي في القضاء على الامبراطورية الهندية الحمراء في البيرو بسهولة نتيجة للتفوق القتالي الذي لعب فيه الحصان دورا كبيرا ، فضلا عن الذهول الذي يورثه في نفوس الاخرين امام مرأى هذا الحيوان العجيب الغريب الذي كانت تخلو منه القارتان الاميركيتان ، مثلما كانت تخلو منه مناطق العالم القديم خارج نطاق موطنه الاصلي في سهوب روسيا (الغربية) .

وبصدد المقارنة بين الاقوام الرعوية والاقوام الزراعية ، او طبيعة العلاقة المتبادلة بين مربي الماشية وممارسي الزراعة ، لاسيما في الشرق الاوسط بين الشعوب الايرانية والساميّة ، تجدر الاشارة الى ان الاقتصاد الرعوي له ايجابياته ، لانه يعتمد على الانتاجية الطبيعية للماشية . وهو نظام يوفر فرصا كبيرة للحركة التي تبدو اكثر تعذرا في المجتمعات الزراعية . وقد درس فردريك بارث العلاقات البداية ـ القروية في الشرق الادنى ، ولاحظ

ان مربي الماشية هم على المدى البعيد المستفيدون في اطار العلاقات المتبادلة وتراكم رأس المال ، الذي سيمكنهم حتما من الهيمنة في الانظمة الطبقية . وصفوة القول ، ان الاقوام الهندية ـ الاوروبية استفادت من طبيعة نظامها الاقتصادي الذي اتاح لها الحركة ، في توسعها الاول ، حيث استطاعت ان تفرض هيمنتها على العديد من المناطق الجديدة (الزراعية) .

وقد لعب الحصان دورا مهما في قدرة هؤلاء الاقوام على الحركة السريعة ، وبالتالي تفوقهم على الاخرين الذين لم يعرفوا الحصان . (الا ان كولن رينفرو ينظر الى هذه المسألة بمنظار آخر ، سنتطرق اليه فيما بعد) .

ونحن اذ توسعنا بعض الشيء في شرح النظرية السهوبية الكورغانية ، فلأن كولن رينفرو سيتعرض لها بالنقد في كتابه (علم الآثار واللغة) الذي سيكون موضوع الحلقة التالية لهذه الكلمة .

ثانيا : الفرضية القائلة بان منطقة ما وراء الكاربات واراضي الدانوب وما وراءه (مورافيا ، سلوفاكيا ، المجر...) كانت المهد الاول للاقوام الهندية ـ الاوروبية . ذلك ان في هذه المنطقة ظهرت اربع حضارات ترقى الى الالفين الخامس والرابع قبل الميلاد . وتتميز هذه الحضارات بصناعة انواع من الفخار والسيراميك ، مثل الفخار الخطي والشريطي (طريق زخرفته) ، والكؤوس المخروطية او الجرسية . كما عثر في معظم هذه المناطق على بقايا شعير وقمح ، وبقر ، وخراف ، وماعز ، وادلة على انهم كانوا يُخصون الثيران لاستعمالها كدواب جر تشد بالعربات او المحاريث ، وادلة اخرى آثارية ولغوية على ان سكانها كانوا يعرفون طرْق المعادن ، والنسيج ، من وجود فعل «طَرَقَ» ، وكلمات تدل على «الغزْل» و «الصوف» و «الكتان» ، وغير ذلك من الادلة ، وهي من السمات الحضارية للاقوام الهندية ـ الاوروبية .

ثالثا : النظرية القائلة بان شمال اوروبا (منطقة البلطيق) كانت مهد الاقوام الهندية ـ الاوروبية ، وتستند الى ادلة لغوية ، لاسيما اسماء العديد من

الانهار التي تشترك في مقاطع نهاياتها ، ووجود نماذج هندية ـ اوروبية صرف من النباتات والحيوانات في هذه المنطقة ، مثل البلوط والزان وسمك السلمون ، الخ ، بالاضافة الى قدم اللغة الليتوانية . لكن هذه النظرية تفتقر الى بعض الادلة الآثارية . كما اتضح ايضا ان اسماء الانهار جاءت نتيجة لتوسع البلاطقة بالذات ، وليس اجدادهم الهنود الاوروبيين .

رابعا : منطقة البلقان ـ الكارپات ، ومن بين القائلين بها غيورغييف (١٩٥٨) ، ودياكونوف (١٩٨٢) . وهذه ايضا تفتقر الى الادلة الآثارية ، فضلا عن انها لا تقدم تفسيرا للاتصالات الطويلة الامد بين اللغة الهندية ـ الاوروبية ولغات القفقاس الكارتفيلية (جورجيا مثلا) . واللغات السامية وغيرها .

خامسا : منطقة ارمينيا أو شرقي الاناضول ، التي يرجحها العالمان اللغويان السوفييتيان غامكر يليدزه وايفانوف (١٩٧٢ ـ ١٩٨٥) . وتستند هذه الفرضية الى العامل البيئي (الايكولوجي) بصفة خاصة . ومن الجدير بالذكر ان هذه النظرية هي اقرب النظريات الى وجهة نظر كولن رينفرو ، الذي يقول عنها في كتابه (علم الآثار واللغة) : «ان دراستهما اوسع بكثير من دراستي ، فهي تطرح نظريات لغوية جديدة بكل معنى الكلمة في اطار تطور الاصوات (الحروف) الساكنة في اللغات الهندية ـ الاوروبية وبنية قواعدية معدلة . وهناك حجج مختلفة قادتهما الى اعتبار شرقي الاناضول الموطن الاصلي للغات الهندية ـ الاوروبية» . كما يقول هذان العالمان : «ان المنطقة الاصلية للموطن السلفي للاقوام الهندية ـ الاوروبية تنطبق عليها مواصفات المنطقة الممتدة بين شرقي الاناضول ، وجنوب القفقاس ، وشمال وادي الرافدين في الالفين الرابع ـ الخامس قبل الميلاد .» وكما اشرنا آنفا ان حجتهما تستند في المقام الاول الى ادلة بيئية ولغوية ، بما في ذلك العديد من المفردات المستعارة من اللغات السامية التي نجدها مشتركة بين كثير من اللغات الهندية ـ الاوروبية ، الامر الذي يدعو الى الاعتقاد بافتراض تجاور

جغرافي في مرحلة مبكرة . ويقول كولن رينفرو ايضا ان الحجج الآثارية التي جاء بهاهو لدعم نظريته الاناضولية ، وقد توصل اليها بصورة مستقلة ، اوصلته الى نتائج مماثلة... ومن بين الحجج المهمة التي تقدم بها غامكر يليدزه وايفانوف ان العمق الزمني لموطن الاجداد الهنود - الاوروبيين كان عندهما ابعد من العرف السائد بين العلماء . فهمايعودان به الى الالف الرابع وربما الخامس قبل الميلاد ، بدلا من الالف الثالث . كما ان نظريتهما تستند الى منهج شامل في البحث . وفي مخططهما للانتشار الهندي-الاوروبي ، اعتبرا الحثيين ، والخاتيين ، والپاليين Palaics ، واللوڤيين Luwians مقيمين اصلا في الاناضول . اما اليونانيون السلفيون او الاوائل فكانوا في غرب الاناضول . والى الشرق تأتي اللغات الايرانية . اما اجداد الاوروبيين الغربيين فقد مرّوا بعملية هجرة معقدة على ما يبدو في هذا المخطط . في البدء هاجروا الى الشرق من بحر قزوين عبر بحر آرال ، ثم غربا عبر الفولغا الى الدنيبر حيث وصلوا «المركز الثاني» الذي يفترض انهم انتشروا منه فيما بعد ، مما يأتي مطابقا في هذه المرحلة للنظرية السهوبية ، على ما يبدو . وهنا نقطة الخلاف بينهما وبين كولن رينفرو الذي يعتبر الاناضول المنطلق العام للانتشار الهندي-الاوروبي . ويميل كاتب هذه السطور الى نظرية غامكر يليدزه وايفانوف ، لانها تقدم تفسيرا للعلاقة المحتملة بين الاقوام الهندية-الاوروبية والاقوام السامية ، في مرحلة اقدم .

مع ذلك ، ان ايّاً من النظريات المطروحة (هناك نظريات اخرى ايضا) لا تلبي كافة الشروط (الاربعة) التي يفترض ان يأخذ بها البحث عند مناقشة الوطن السلفي لقوم من الاقوام . فالنظرية السهوبية تستمد قوتها من الحجج الآثارية بصفة خاصة ، الى جانب العنصر اللغوي (الذي يتوفر في كل فرضية) .

لاشك ان للعنصر الاثاري او ما يسمى بالدليل الصامت اهميته ، لكن بعض الباحثين ، لا سيما اللغويين ، يعيرون اهمية خاصة للعنصر البيئي (الايكولوجي) في ترجيح او استبعاد المناطق المرشحة كموطن اقدم للاقوام

الهندية ـ الاوروبية . وقد وضع غامكر يليدزه وايفانوف قائمة بالمفردات البيئية الهندية ـ الاوروبية السلفية ، التي تعتبر مشتركة في معظم لغات هذه المجموعة . من بين المفردات المناخية في هذه القائمة نجد مثلا : الشتاء ، الثلج ، البرد ، الجليد ، الحر ، الدفء . ومن بين المفردات الجغرافية : قمة جبل ، جبل ، صخرة ، حجر ، هضبة ، عالٍ ، بلوط ، بلوط جبلي ، ريح شمالية جبلية . وهذا يعني ان الهنود ـ الاوروبيين الاوائل كانوا يقيمون في منطقة جبلية او سفحية .

ومن بين المفردات النباتية المشتركة بين لغات المجموعة التي وضعها هذان العالمان : الحور الرجراج ، الطقسوس ، الزان ، البتولا ، الدردار ، الصنوبر ، الكاربينوس ، البلوط ، البلوط الجبلي ، الزيزفون ، الصفصاف ، التفاح ، الكرز ، التوت ، الجوز ، العنب ، الورد ، الخلنج . ومن بين الحيوانات : القندس ، ثعلب الماء (القضاعة) ، الوعل(الايل ، الظبي) ، الخنزير البري ، الثور البري ، الارنب ، الدب ، الذئب ، الثعلب ، ابن آوى ، الوشق ، الفأر ، الحمار ، النمر الارقط ، الاسد ، السرطان ، الطير الصغير ، نقار الخشب ، الشرشور ، الطيرالمائي ، الوز ، التم ، الكركي ، النسر ، الغراب ، الطيهوج ، السلمون ، الحنكليس . (وهي قائمة تبقى موضع نقاش ، لان بعض اللغويين يرون ان بعض مفرادتها مستعارة من لغات اخرى ، سامية مثلا ، كالأسد . لكن الباحثَيْن يصران على ان الاسد ، مثلا ، كان معروفا عند الاقوام الهندية ـ الاوروبية ، فضلا عن ان اسماءه مشتركة بين لغات هؤلاء الاقوام...) .

والان اذا طبقنا هذه القائمة على المناطق المقترحة كوطن اقدم للاقوام الهندية ـ الاوروبية ، نجد ان المنطقة السهوبية لاتناسب كثيرا البيئة الايكولوجية الهندية ـ الاوروبية ، اولاً لعدم وجود الجبال فيها ، وثانيا لخلو حوالي نصف الاشجار المذكورة في القائمة اعلاه منها ، كالزان ، والدردار ، والصنوبر ، والبلوط الجبلي ، والزيزفون ، والجوز ، والخلنج ، والطقسوس ، والكربينوس . كما تفتقر هذه المنطقة الى بعض الحيوانات مثل الاسد ، والوشق ، والطيهوج ،

والحنكليس . ومثل هذا يقال في شمال اوروبا (البلطيق) ، والبلقان ايضا ، لخلو المنطقة الاولى من النباتات الجنوبية كالدردار ، والتوت ، والجوز والعنب ، وخلو المنطقة الثانية من النباتات والحيوانات الشمالية ، كالحور الرجراج والقندس والبتولا والطيهوج والسلمون والحنكليس .

لكن منطقة ما وراء الكاربات تبدو ملائمة اكثر من غيرها للبيئة الايكولوجية للاقوام الهندية ـ الاوروبية ، ولا تعدم ادلة آثارية ايضا .

لكن هناك من الباحثين ـ لا سيما علماء الآثار الذين يعتبرون البيّنات الصامتة (اي الآثار) ادلة اساسية في البحث ـ من لا يقيمون وزنا كبيرا للادلة الايكولوجية . وهكذا نرى ان السبب الذي يكمن وراء عدم وجود رأي قاطع او حاسم بشأن الوطن الاول للاقوام الهندية ـ الاوروبية يعود الى الاختلاف في منهج البحث . ومع ذلك فان النظرية السهوبية تحظى بتأييد عدد اكبرمن العلماء ، وقد تبنتها الموسوعة البريطانية وموسوعة لاروس الفرنسية (وان كان هذا لا يعني بالضرورة انها تكتسب صدقية علمية لا جدال فيها) .

(٢)

كولن رينفرو يشذ عن الاجماع
بشأن العمق الزماني والمكاني لانتشارهم

في كلمتنا السابقة تطرقنا الى عدد من النظريات حول الوطن الاول للاقوام الهندية ـ الاوروبية ؛ وفي هذه الكلمة سنقدم عرضا لفرضية كولن رينفرو التي يطرح فيها رأيا مخالفا لجميع الفرضيات السابقة بصدد العمق الزمني لانتشار الاقوام الهندية ـ الاوروبية من موطنها السلفي . وفي الكلمة التالية سنحاول التوسع في هذا الموضوع في اطار العلاقة المحتملة بين الاقوام الهندية ـ الاوروبية والاقوام الساميّة ، انطلاقا من الفرضية الزراعية التي استند اليها كولن رينفرو في نظريته .

تحت عنوان (اية اغنية غنّت السيرينات) في مقدمته لكتابه (علم الآثار واللغة) يعتبر كولن رينفرو اللغة والهُوية مترابطتين الى حد كبير ، وان هناك اشياء قليلة اكثر ذاتية من اللغة التي يتكلمها المرء . وان اللغة والهوية القومية اصبحتا اليوم شيئا واحدا ، في معظم ارجاء عالمنا . ويضرب على ذلك مثال الصراع الانتخابي بين الفلمنك والوالون في بلجيكا ، وهو صراع لغوي بالاساس ، والقنابل التي يفجرها الايرلنديون القوميون وجماعة الباسك ، والمذابح التي تقترف في انحاء عديدة من العالم (سري لانكا على سبيل

المثال) ، وهي صراعات تغذيها الدوافع القومية اللغوية . وفي كافة الاحوال يؤكد رينفرو على ان «هويتنا او على الاقل الاحساس بها ، يرتبط بماضينا» .

يُعتبر كولن رينفرو ، استاذ علم الآثار في جامعة كيمبرج ، من اشد الباحثين المعاصرين تعصبا للنعرة الهندية ـ الاوروبية . وهذا ينعكس في وجهة نظره حول الربط بين الهوية واللغة والماضي . «نحن في واقع الحال ما اصبحنا عليه الآن . ولفهم ذلك (...) نجدنا بحاجة الى ان نعرف ، او ان نبدأ بمعرفة ماذا كنا ومن اين جئنا» .

وربما انطلاقا من اوروبانيته هذه ، خالف رينفرو معظم الاراء والنظريات المطروحة حول الوطن الام للاقوام الهندية ـ الاوروبية وطرح نظريته القائمة على عامل الزراعة . وبهذا يخالف الرأي العام القائل بان الهنود الاوروبيين كانوا بالاصل قوما رعويين او مربي ماشية . فرينفرو يرى ان البيّنات الآركيولوجية (الآثارية) حول تطور الزراعة كافية لتقدم صورة واضحة عن التوسع الهندي ـ الاوروبي ، وان انتشار الحنطة والشعير من الاناضول الى اليونان ومنها الى اوروبا حتى بريطانيا وايرلنده ، اصبح الان حقيقة مسلما بها . ان تغيرات اقتصادية ديموغرافية مهمة كهذه كان لها اثر كبير على اللغات المحكية في تلك المناطق . ومن ثم يبدو من المرجح ان اللغات الهندية ـ الاوروبية الاولى جاءت الى اوروبا من الاناضول في حدود ٦٠٠٠ ق .م . سوية مع النباتات والحيوانات المدجنة ، وانها في الواقع كانت لغات الفلاحين الاوائل في اوروبا . وهذا ، حسبما يرى ، هو مفتاح الحل للمسألة الهندية ـ الاوروبية .

مسألة العمق الزمني:

التأريخ الذي يقترحه كولن رينفرو لتفرق الاقوام الهندية - الاوروبية اقدم بكثير مما يطرحه معظم الباحثين . تأريخ رينفرو يرجع الى ٦٠٠٠ ق .م ، كما رأينا . اما المتواضع عليه بين معظم الباحثين فهو بين ٢٥٠٠ - ٤٠٠٠ ق .م . (تأريخ التفرق) . وحجة رينفرو في العمق الزمني تستند الى العامل اللغوي . وهو يقول ان هناك من يرى ان ستة آلاف سنة مدة طويلة جدا لعملية التشعب اللغوي التي آلت الى اللغات المعاصرة في اوروبا ، وان الحديث عن صيغة مبكرة جدا ، في اليونان ، ترقى الى ثمانية آلاف وخمسمئة سنة غير معقول . لكنه يذكر مثالا على «قوة» عمقه الزمني ، فيقول ان اللغة الميسينية الاغريقية (لغة اغاممنون ومنلاوس اللذين شنا الحرب على طروادة) عمرها ٣٣٠٠سنة ؛ ولو قارناها باليونانية الحديثة ، ستبدو اقرب اليها من اللاتينية . ويستنتج من هذا ان اللغة الاغريقية الميسينية واللغة اللاتينية لابد ان يكون مضى عليهما زمن طويل خلال عمليات كثيرة من الافتراق ، مما يدعو للاعتقاد بان العمق الزمني هنا يبدو معقولا .

يتساءل رينفرو في كتابه (علم الآثار واللغة) : «ترى كيف تصبح لغة ما لسان حال منطقة ما ؟ ذاك هو السؤال الاساسي الذي ينبغي علينا طرحه اذا أردنا ان نفهم طبيعة انتشار اللغات في مختلف اقطار اوروبا وخارجها . فعلماء الآثار يميلون الى تقديم معادلات بين لغة ما ومجموعة معينة من الفخار ، ثم يضعون سيناريو كاملا معقدا من الحركات والهجرات ما قبل التأريخية ، في ضوء التوزع اللغوي المعاصر ، او في العصور التأريخية المدونة» . لكنه لا يميل الى اعتبار التغير في نوع الاوعية الفخارية ونحوها معيارا يمكن الركون اليه في هذه العملية ، مع انه لا ينكر الاهمية الاساسية لعلم الآثار في الدراسات ما قبل التأريخية . ويرى ان هناك عوامل ثلاثة تلعب دورها في وجود لغة ما في منطقة ما ، هي : الاستيطان المبكر ، والاحلال محل لغة اخرى ، والتطور المتواصل .

ويربط بين العامل الديموغرافي (السكاني) والبحث عن مورد الرزق ، مؤكدا على ان هجرات الشعوب تعود الى اسباب اقتصادية ، وبواسطتها يتم انتشار اللغات . وعنده ان العامل الاساسي في انتشار اللغات هو العامل الاقتصادي ، وبالذات ادخال الاقتصاد الزراعي الى اراضٍ كانت مأهولة سابقا من قبل اقوام تعيش على الصيد وجني القوت . وقد تم احصاء كثافة السكان في اوروبا في مرحلة الصيد وجني القوت ، فظهر انها لا تزيد عن شخص واحد لكل عشرة كيلو مترات مربعة في المعدل العام . اما النظام الزراعي المبكر في اوروبا وآسيا الغربية فكان يُعيل خمسة اشخاص لكل كيلو متر مربع بالمعدل ، بدون الاعتماد على التقنيات الزراعية المتقدمة . وهذا يعني زيادة مقدارها خمسون ضعفا او بنسبة ٥٠٠٠٪

وبالتالي ان نسبة كبيرة كهذه في زيادة عدد السكان من شأنها ان تكون عاملا قويا يطغى تقريبا على جميع العوامل الاخرى عندما نتحدث عن انتشار سكاني يجري على نطاق واسع .

ويستند رينفرو الى نظرية العالمين امرمان وكافالي سفورزا حول ما يسمى بقاعدة الزحف او الانتشار السكاني ، القائمة على مبدأ الزيادة السكانية . وهذا الزحف يتم على شكل انتشار شعاعي من مركز ما باتجاهات مختلفة تتوقف على طبيعة المناطق التي تنتقل اليها المجموعات السكانية ، وذلك بعد توفر نظام تقني جديد يرفع من مستوى الانتاجية لموارد الرزق على نحو ملحوظ (الزراعة في هذه الحالة) . ان كثافة السكان المزارعين ترتفع حسب هذه القاعدة بمعدل خمسة اشخاص لكل كليو متر مربع ، كما تقدم ، وان نمو السكان يتم في المراحل المبكرة من الاستيطان بمعدل الضعف كل ثمانية عشر عاما . وان مسافة النشاط الهجري من المركز - وهي عفوية في اتجاهها - تعادل ثمانية عشر كيلو مترا في المعدل لكل جيل من خمسة وعشرين عاما . وتحت ظروف كهذه ، يصبح معدل حركة الانتشار كيلو مترا واحدا لكل عام .

في ضوء هذه الحقيقة يحاول كولن رينفرو ان يبني نظريته حول الوطن الام للاقوام الهندية ـ الاوروبية ، التي تستند بالاساس على عامل الزحف السكاني في المجتمعات الزراعية في العصر الحجري الحديث يرافقه زحف لغوي ايضا ؛ وفي هذه الحالة هندي ـ اوروبي ، انطلاقا من الاناضول .

من جهة اخرى يعترض رينفرو على العامل اللغوي (المفردات المتشابهة بين اللغات الهندية ـ الاوروبية) في امكان تحديد البقعة الجغرافية التي انطلق منها الهنود ـ الاوروبيون ، ويعتبره فخا خطرا . وكذلك على بعض المعطيات الآثارية . فهو يقول : ان الباحثين «زعموا ايضا ان شكلا فخاريا معينا ، او العثور على عدد من الادوات ، يمكن ربطه مباشرة بمجموعة من الناس ومن ثم بلغة معينة او مجموعة لغوية . لكنهم لم يوضحوا بصورة كافية كيف ان هذه اللغات كلها ، او الناطقين بهذه اللغات كلها ، يجوبون اوروبا وغرب آسيا بلا كلل ، في سلسلة من الهجرات ، راسمين مخططا للغات العديدة التي نراها اليوم» . ويضرب مثلا على ما يسميه بخداع المفردات مستشهدا بكلام وينفريد ليمان : «اذا انتقلنا الى الحياة اليومية للمجتمع الهندي ـ الاوروبي نجد كلمات مثل : قطيع ، بقرة ، خروف ، معزى ، خنزير ، كلب ، حصان ، ذئب ، دب ، اوزة ، بطة ، نحلة ، بلوط ، زان ، صفصاف ، حبوب» . ان عدم وجود كلمات تطلق على الحبوب والخضرة يدل على ان هناك اعتمادا كبيرا على الحيوانات كمادة غذائية»

ويقول رينفرو ان هذه المناقشة وقليلا جدا من امثالها ، دعت البعض الى الاستنتاج بان الهنود ـ الاوروبيين الاوائل كانوا بدواً . وهذا غير صحيح حسب رأيه ، لانه يخالف نظريته القائمة على مبدأ التوسع او الانتشار السكاني الذي تنطبق عليه مواصفات المجتمع الزراعي . وبهذا الصدد يقول انه بات من المتفق عليه على نطاق واسع ان تدجين معظم النباتات وربما بعض الحيوانات ايضا ، الذي كان اساس الحضارات الزراعية المبكرة في اوروبا ، كان مستوردا الى المنطقة برمته . وفي كتابها (Palaeoethnobotany) استعرضت الد كتورة جين

رينفرو انتشار النباتات ، ومع ان هناك ما يدعو الى الاعتقاد بان نماذج برية ـ غير مدجنة ـ اصيلة من بعض اصناف الحبوب كانت متيسرة في اجزاء من جنوب شرقي اوروبا ، فان الحصيلة العامة لدراستها تفيد بان الاقتصاد الزراعي كان مستوردا في طابعه العام . وقد بدأت عملية جلب نظام اقتصادي زراعي الى اوروبا قبل عام ٦٠٠٠ ق .م . بقليل في كريت واليونان ، ثم وصلت جزائر الاوركاني في اعلى القرن الاسكوتلندي وبقية اوروبا ايضا في حدود ٣٥٠٠ ق .م . لكن موطنه الاصلي كان في الاناضول ، كما يقول رينفرو . ويخلص من هذا الى ان غربي الاناضول كان موطن الاقوام الهندية ـ الاوروبية الاول ، ومن هناك انتشروا الى بقية اماكن وجودهم الحالي منذ ما قبل ٦٠٠٠ ق .م . وهي نظرية تنطوي على كثير من المبالغة في عمقها الزمني ، ولا تسلم من طعون يمكن ان تتعرض لها في بُعدها المكاني .

فمن بين من ناقش هذه النظرية ، J.P. Mallory في كتابه (في البحث عن الاقوام الهندية ـ الاوروبية) . يقول مالوري : «اذا قبلنا بالرأي التقليدي القائل ان المجتمعات الزراعية انما عبرت من آسيا لتستوطن جنوب شرق اوروبا ، فسيكون من الصعب حقا مقاومة الفكرة القائلة بانهم قدموا كعامل مساعد في ادخال اللغات الجديدة الى اوروبا . لكن هل ان هذه اللغات الجديدة كانت هندية ـ اوروبية ، كما يرى كولن رينفرو ؟» . ويرى ان وجود الاقوام الهندية ـ الاوروبية في الاناضول منذ اقدم مراحل العصر الحجري الحديث يصطدم مع كثير من الحقائق ، بما فيها وجود اقوام اخرى غير هندية اوروبية (يقصد الحوريين والخاتيين ، الخ) في عصور التدوين التأريخي وقبله . فهل قدمت هذه الاقوام ـ الاخرى ـ الى المناطق بعد الاقوام الهندية ـ الاوروبية ، ام انها كانت تتعايش معها منذ العصر الحجري الحديث ؟ الظاهر ان اياً من هذين الاحتمالين ضعيف . ثم كيف نفسر مايلي : ان الهنود ـ الاوروبيين قطعوا ثلاثة آلاف كيلو متر من الاناضول الى ايرلندة في غضون الفي عام ، في حين استغرقهم ـ او اخوانهم ـ خمسة آلاف سنة ليتقدموا مئة او مئتي كيلو متر ليصلوا الى شرق ارمينيا ؟ ومن

بين الامور التي تبدو غير قابلة للتصديق وجود جماعات ايرانية مبكرة منذ العصر الحجري الحديث في منطقتي زاغروس والهندوس ، وكذلك وجود ايرلنديين في ايرلندة منذ ٤٥٠٠ ق .م . ، وهلم جرا...

وتكمن النزعة الاوربانية في نظرية كولن رينفرو في انتحال حضارات قديمة لا تمتّ بصلة الى الاقوام الهندية ـ الاوروبية والحاقها بالتراث الهندي ـ الاوروبي . فحسب رأيه ان حضارة مدينتي موهنجودارو وهارابا الهنديتين (في الالف الثالث ق .م .) هندية ـ اوروبية ، مع ان هذا خلاف ما هو متعارف عليه بين الباحثين من انها نتاج محلي (هندي) .

كما يعتبر مستوطنتي (او حضارتي) تشتال هيوك (حوالي ٥٨٠٠ ق .م .) وتشايُونو (حوالي ٧٥٠٠ـ٦٥٠٠ ق .م .) في ديار بكر التركية هنديتين ـ اوروبيتين ايضا . وهما في كل شيء تنتميان الى حضارات المنطقة (الشرق الاوسط) . ورينفرو نفسه يعترف «بشرقية» تشتال هيوك ـ ناهيكم عن تشايونو التي تقع الى الشرق منها ، قرب العراق وسوريا ـ بالمقارنة مع «غربية» نيانيكوميديا اليونانية القديمة ، مستشهدا بروبرت رودن الذي نقب في قرية نيا نيكوميديا الزراعية المبكرة ، ولاحظ ان منازلها كانت تبنى باطار من خشب البناء ، وان الجدران كانت تطلى بالطين بطريقة لا تختلف عن القضبان المضفورة بالاغصان والمطيّنة او المجصصة في بريطانيا القرون الوسطى . وهذا يختلف ـ والكلام لا يزال لروبرت رودن ـ عن استعمال الآجر المصنوع من الطين الخالص الذي كان يستعمل في بعض المجمعات الزراعية ابعد ، الى الشرق ، كما في تشاتال هيوك في الاناضول . واوضح ايضا ان القرى الزراعية في اوروبا كانت تقام في اماكن مكشوفة ، ومنازلها منفصلة عن بعضها ، اما في الشرق الاوسط ، فكانت اماكن السكن عبارة عن «كتل» بمنازل وبيوت متلاصقة .

ثم ان النظرية الاناضولية (كموطن اول للاقوام الهندية ـ الاوروبية) لا تقدم تفسيرا مقبولا لافتراق الآريين (الهنود الايرانيين ، الخ) عن اليونانيين ، من الاناضول في مرحلة مبكرة (قبل ٦٠٠٠ ق .م .) كما يفترض رينفرو ،

لانها تهمل العلاقة اللغوية القريبة بين الهندية ـ الايرانية من جهة واليونانية من جهة اخرى . فاذا تحرك الهنود ـ الايرانيون الى الشرق (من الاناضول) ، واليونانيون الى الغرب ، فلن يكون هناك تفسير معقول لاشتراك هذين الفرعين اللغويين في العديد من السمات اللغوية التي لاوجود لها في اللغات الاناضولية ، مع ان هذه الاخيرة موجودة ـ اصلا ـ في مركز الانتشار المفترض .

وسنتابع هذا الموضوع في اطار اوسع في الكلمة التالية .

في ضوء فرضية العامل الزراعي للانتشار:

هل كان الوطن الاقدم للاقوام الهندية-الاوروبية في شمال وادي الرافدين؟

اذا علمنا ان جميع المناطق المرشحة للوطن السلفي للاقوام الهندية - الاوروبية تقع ضمن دائرة المنطقة التي تعرضت للانجماد إبّان المرحلة الجليدية الاخيرة التي انتهت في حدود عشرة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح ، فلابد ان يكون قدوم هؤلاء الاقوام الى موطنهم الهندي - الاوروبي السابق لانتشارهم قد تم بعد انحسار الجليد عنه . فأين كان هؤلاء الاقوام قبل انحسار الجليد ؟

لعل طرح سؤال كهذا يعيننا في محاولة تحديد الموقع الجغرافي لمواطن الاقوام الهندية - الاوروبية قبل انتشارهم المعروف : الى الشرق (الموجات الآرية ، وغيرها ، كالطوخارية) ، والى الغرب (بقية الاقوام الاوروبية) .

ولاشك ان الانسان كان له حضور في اوروبا من غربها الى شرقها ، وحتى في سيبريا في العصر الجليدي ، لكن هذا الانسان لم يكن ينتمي الى من اطلق عليهم فيما بعد بالاقوام الهندية - الاوروبية . ففي اثناء العصر الجليدي - الاخير - كانت الرياح الرطبة تهب من البحر المتوسط نحو السفوح الجبلية باتجاه الشرق والجنوب الشرقي ، مخلفة سهوبا ونجودا عشبية . وفي تلك المرحلة او معظمها كانت السفوح السفلى لجبال طوروس (جنوب تركيا) وزاغروس (غربي ايران)

المواجهة للجنوب توفر بيئة صالحة للصيد وظروفا مناخية ملائمة لجناة القوت من ابناء العصر الحجري القديم . كانت تلك المنطقة في المرحلة البليستوسينية (بين مليوني الى ٢٠ - ١٢ الف سنة خلت) صالحة للهجرة اكثر مما هي عليه حاليا بزهاء ٧٦م ، وكان البحر الاسود على العكس من ذلك اشبه ببحيرة صغيرة منعزلة عن البحر المتوسط ببسفور جاف كما يعتقد بعض العلماء ، وبذلك توفرت امكانات جغرافية للبشر للانتقال بين آسيا واوروبا . اما الى الشرق من ذلك فكان بحر قزوين والمستنقعات الشاسعة حول بحر آرال تعيق حركتهم .

لكن هذه المرحلة لا تدخل في نطاق موضوعنا . فاين كان الهنود - الاوروبيون قبل انحسار الجليد عن مناطق الانجماد ؟ لابد انهم كانوا يقيمون الى الجنوب من هذا الحزام الجليدي ، اي في منطقة الشرق الادنى بالتحديد ، وليس في اي مكان آخر . وهذا يدعو للاعتقاد بوجود هجرتين هنديتين - اوروبيتين ، الاولى نحو الشمال من الحزام الجنوبي للمنطقة الجليدية ، بعد انحسار الجليد عنها ؛ والثانية الى مختلف الجهات والمناطق التي هاجروا اليها فيما بعد ، في مراحل انتشارهم من موطنهم «الثاني» ، اذا جاز القول . يقول كروسلاند في بحثه (مهاجرون من الشمال) المنشور في المجلد الاول ، الفصل السابع والعشرين من (تأريخ كيمبرج القديم) سنة ١٩٦٧ : «على مدى آلاف السنين قبل الالف الثالث ق .م . كانت وسيلة العيش الجديدة ، القائمة على الزراعة ، والتي نشأت في الشرق الادنى وربما ايضا في بعض المناطق المجاورة ، قد انتشرت خارج هذه المناطق الى الاراضي المتاخمة لها . ولاشك ان هذا الانتشار تم على يد اقوام او مجموعات اصغر هاجرت الى خارج مراكز وجودها الاصلي . ثم اتخذت هذه الهجرات فيما بعد اتجاها معاكسا»(ص٣) .

وهذا يدعو للاعتقاد بان المهاجرين اولاء كانوا على صلة باقوام اخرى ، بعضها بقي في المنطقة وبعضها الآخر هاجر الى اتجاهات اخرى . ولعل الكارتفيليين (سكان قفقاسيا الجنوبية) كانوا من بين هؤلاء المهاجرين ايضا . اما الساميون ، وربما السومريون ايضا ، فلعلهم كانوا من بين سكان مركز

الانتشار منذ تلك المرحلة ، ثم نزح بعضهم الى الجنوب على موجات في مراحل مختلفة .

والآن اذا حاولنا التوفيق بين نظرية كولن رينفرو التي تستند الى العامل الزراعي في عملية الانتشار (الهندي ـ الاوروبي) ، ونظرية غامكر يليدزه وايفانوف التي تعتبر منطقة تل حلف على الخابور (شمال سوريا) موطنا اول للاقوام الهندية ـ الاوروبية ، لانها تقدم تفسيرا للتلاقح الحضاري بين الاقوام الهندية ـ الاوروبية والسامية والكارتفيلية ، سيكون من الصعب علينا اهمال الاقوام السامية الموجودة اصلا في هذه المنطقة والتي ارتبط تأريخها بزراعة الحبوب اكثر من اية اقوام اخرى منذ اقدم المراحل . فمن المعروف ان موطن الحنطة كان في سوريا ، ومنها انتشرت الى المناطق المجاورة وبقية انحاء العالم .

كانت الحنطة من صنف الحبة الواحدة تنمو بصورة طبيعية ـ برية ـ في المنطقة الشمالية من سوريا منذ حوالي ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد . فاذا كان العامل الزراعي دافعا لانتشار الاقوام الهندية ـ الاوروبية ، نتيجة لزيادة السكان ، حسب الفرضية الاقتصادية التي اعتمدها كولن رينفرو ، واعتبر اواسط الاناضول منطلق هذا الانتشار ، فلماذا لا نرجع الى الوراء على الصعيدين الزماني والمكاني ، وننطلق من مركز زراعة الحنطة في شمال سورية ، وبذلك يمكن ايضا تقديم تفسير لنظرية غامكر يليدزه وايفانوف التي تستند فيما تستند الى عامل التلاقح الحضاري واللغوي والحضاري مع الاقوام السامية والكارتفيلية ، كما سنرى بعد قليل ؟

وتقدم لنا اللغة بيّنات على ان ذاكرة الاقوام الهندية ـ الاوروبية فيما يتعلق بالحبوب اضعف من ذاكرة الساميين الذين بقيت مفردات كل ما له صلة بهذه المادة ـ الحبوب ـ متداولة في موروثهم اللغوي ، وما ذاك الا لان الساميين بقوا في الموطن الاصلي لهذه النباتات . فاللغات السامية باجمعها تشتمل على كلمات مشتركة تدل على : الحنطة ، الشعير ، الدخن ، العدس ، التين ، ومفردات لها صلة بحرفة الزراعة ، مثل غرْس ، طحن ، درْس الحبوب . اما

اللغات الهندية ـ الاوروبية فلا توجد فيها مثل هذه المفردات المشتركة المتعلقة بزراعة الحبوب على هذا النطاق الواسع . لكن الكلمات الدالة على الشعير وربما الدخن ايضا لعلها كانت مشتركة بين اللغات السامية وعدد من اللغات الهندية ـ الاوروبية .

وقد ناقش غامكر يليدزه وايفانوف عددا من المفردات التي اعتبراها مستعارة من السامية الى الهندية ـ الاوروبية ، وكذلك من السومرية والعيلامية والكارتفيلية (القفقاسية الجنوبية ، مثل لغة جورجيا) ، وذلك في اطار تعزيز وجهة نظرهما الجغرافية القائلة بان الموطن الاول للاقوام الهندية ـ الاوروبية يقع في منطقة قريبة من القفقاس ومن شمال وادي الرافدين ، اي في منطقة تل حلف في شمال سوريا (على الخابور) . من بين المفردات المشتركة مع اللغات السامية (في اطار الاستعارة) ذكرا : الثور ؛ الجدي ؛ العجل ، الكلمة الدالة على القرد ، وهي qe/op من مادة (قُف) السامية ؛ البُر (الحبوب) ؛ الدخن ؛ مادة (حنط ـ الحنطة) ؛ مادة الجرن ؛ الميد (شراب يُعدّ من العسل) ؛ الفأس (مادة Peleku الهندية ـ الاوروبية التي تقابل Plk السامية ، وبالعربية فلق) ؛ مادة -nat tu(سفينة ، إناء) وتقابل (ن ـ و) السامية ، وبالعربية إناء ؛ العدد Septmالذي يقابل العدد (سبعة) في الساميات ؛ مادة Haster التي جاءت منها كلمة Star الانكليزية (اي : نجمة) ، وتقابلها في الساميات مادة attar اوathtar وهي مشتركة في الساميات فقط دون الحاميات شقيقات اللغات السامية ، وهي لقب عشتار ، ويراد بها ايضا « نجمة الصباح او المساء » ؛ مادة oi-no (Wine) الهندية ـ الاوروبية التي تقابل wainu السامية التي تقال للخمرة...الخ .

ولا ندري لماذا قارن الباحثان غامكر يليدزه وايفانوف بين مادة (ح ن ط) السامية الدالة على الحنطة ، ومادة -Hand التي تعني في بعض اللغات الهندية ـ الاوروبية (نبات يؤكل ، طحين ، الخ) ، ولم يذكرا مادة -hat بدلا منها ، وتعني «حبوب» ، وهي اقرب الى مادة (ح ط ت) السامية ، الاقدم من (ح ن ط) ، هذا مع العلم انهما اشارا الى العلاقة بين -Hat الهندية ـ الاوروبية ومادة

Kait الخاتية (لغة قوم عاشوا في الاناضول قبل وفي اثناء وجود الحثيين الهنود ـ الاوروبيين في الالف الثاني ق .م .)

ومن بين الالفاظ الهندية ـ الاوروبية المشتركة مع اللغة السومرية (وهي ليست سامية ، لكنها لغة عريقة في وادي الرافدين) مادة Kou الهندية ـ الاوروبية الدالة على (الثور ، البقرة) ، والسومرية gu(d) ، والمصرية القديمة (الفرعونية) ngo'w (صنف من الثيران الكبيرة) ؛ ومادة r(e)ud (معدن ، نحاس ؛ اللون الاحمر) وتقابلها بالسومرية urud .

وقد تراجع الباحثان عن بعض هذه المفردات بعد ان اعترض عليها دياكونوف . فهو يرى ان مادة tauro (ثور) الهندية ـ الاوروبية مشتركة في اللغات الاوروبية فقط من هذه المجموعة اللغوية ، اي انها ليست مشتركة في اللغات الشرقية منها ، كالآرية مثلا . لذلك لايمكن ان يرقى تأريخها ـ عند الاوروبيين ـ الى اقدم من الالف الثالث ق .م . رغم انها مشتركة في جميع اللغات السامية ، ويرقى استعمالها في هذه الاخيرة الى ما بين الالف السادس ـ الالف الرابع ق .م . ويرى ايضا ان مادة geit (جدي ، معزى) التي تقابل مادة (جدي) اي صغير المعزى في الساميات ، لا تعود الى العمق الزمني للغات الهندية ـ الاوروبية السلفية . اما في اللغات السامية السلفية فان عمقها الزمني يرقى الى ما بين ٦ ـ ٤ آلاف ق .م . والى ذلك ، كما يقول ، نحن لا نعلم اذا كانت مشتركة في المجموعة الاكبر : السامية ـ الحامية . وفي الاطار نفسه يناقش مادة Kr-n- الهندية ـ الاوروبية التي تقابل (قرن) السامية ، اي الزيادة العظمية في رؤوس بعض آكلات الحشائش . ويطرح احتمالا معاكسا ، اي ان تكون اللغات السامية استعارت الكلمة من الهندية ـ الاوروبية . ويشكك في العلاقة بين مادة Hand- (نبات يؤكل) ومادة (حنطة) السامية ، لان الطاء السامية تقابلها تاء في الهندية ـ الاوروبية وليس دالاً ، فضلا عن ان العربية وحدها اضافت النون الى مادة (ح ط ت) السامية ، فالعلاقة ضعيفة حسب رأيه . ويشكك ايضا بالكلمات الدالة على الخمرة ، على اعتبار انها مشتركة في اللغات السامية الغربية فقط .

ويرفض ايضا الصلة بين مادة medu (عسل ، شراب من العسل) الهندية ـ الاوروبية ومادة (مطق) السامية التي تعني (حلو ، حلاوة) . ولاشك ان هذه الكلمة السامية لفظة صوتية طبيعية (يطّق) ، ويعترف معظم المعجميين بوجود صلة بينها وبين مادة medu الهندية ـ الاوروبية . اما دياكونوف فيقول « انه لما يحيرني ان تُؤول هذه اللفظة (مطق) الى Medu . فالشيء الوحيد المشترك بينهما هو الحرف الساكن m » ويهمل العلاقة الممكنة بين الدال والطاء ، لانه يصرّ على ان حرف الطاء السامي لايقابل إلاّ تاء هنديا ـ اوروبيا . ونحن لا نرى مبررا لاصراره ورفضه . ويتساءل ـ وهو محق هنا ـ « وعلى العموم ، ليس من المبرر ان تكون medu مستعارة» . اننا نتفق معه بهذا الصدد ، لاننا نعتقد انها مشتركة ـ اي تعود الى اصل واحد مشترك ـ مع اللغات السامية في مرحلة موغلة في القدم .

اما مادة (وين) اي «نبيذ» ، فتبدو من اكثر الالفاظ إشكالا في ما يتعلق بموطنها الاصلي . فالباحثان غامكر يليدزه وايفانوف يعتبرانها من اصل هندي ـ اوروبي (انظر بحثهما : الشرق الادنى القديم والمسألة الهندية . الاوروبية ، والقبائل المهاجرة الناطقة بلهجات الهندية ـ الاوروبية ـ مجلة الدراسات المتعلقة باللغات الهندية ـ الاوروبية ، للعام ١٩٨٥ ، ص ٣ ـ ٩١) وهي في رأيهما من المفردات التي تغلغلت في مناطق واسعة في الشرق الادنى بلغاته العديدة . وفضلا عن الجذر الهندي ـ الاوروبي oino او ueno الذي يستشهدان به ، يذكران ايضا الكلمتين الحثيتين Windu - qqaram وتعنيان (غرّاف ـ النبيذ) . ولا ندري اذا كانت qqaram هذه تذكرنا بالكرْم السامية . واذا كان الامر كذلك فهي من اصل سامي ، وليس هنديا ـ اوروبيا كما يرى الباحثان . وفي بحث لدولغوپولسكي Dolgopolskii (١٩٨٧) جاء ان كلمة Kvini الجورجية (من اللغات الكارتفيلية الجنوبية ، اي القفقاسية) التي كان يُظن انها اصيلة في اللغة الجورجية . اصبح يُنظر اليها الان ككلمة مستعارة . كما ان باحثين اخرين يعتبرون مادة (وين) سامية ، من بينهم ايليتش ـ سفيتش صاحب النظرية

النوستيرية (نظرية «لغاتنا» ، التي تذهب الى القول بوجود صلة مشتركة بين ست مجموعات لغوية ، من بينها السامية ـ الحامية والهندية ـ الاوروبية والكارتفيلية والالطائية... الخ)

واذا عدنا الى مادة -Kou الهندية ـ الاوروبية التي تقال للثور او البقرة (باللانكليزية Cow) ، ومقابلها في السومرية gud ، وبالمصرية الفرعونية /W nVga ، فاننا نتساءل لماذا اهمل الباحثان غامكر يليدزه وايفانوف الالفاظ السامية الدالة على معنى ليس بعيدا عن مدلول اللفظة ، ما دامت هذه المفردة مما يدعى بالفاظ المحاكاة ، اي محاكاة صوت الحيوان هنا . وفي هذه الحالة تذكرنا بصوت جؤار او خوار البقرة . وفي العربية هناك (الجؤار) و (الخوار) بالذات ؛ وفي الاوغاريتية الكنعانية (ج ع ت) ، وفي العبرية (جعه) (تلفظ الجيم على الطريقة المصرية) ؛ وفي السريانية (جعا) ؛ والحبشية (جعر) . وهذه الالفاظ كلها قريبة من لفظة gud السومرية ، ولفظة -Kou الهندية ـ الاوروبية .

ومن بين الالفاظ ذات الدلالة الحضارية التي طرحها الباحثان الكلمة الدالة على (العجلة او العربة) . فقد لاحظنا انها مشتركة بين الهندية ـ الاوروبية ، والسامية ، والكارتفيلية (القفقاس الجنوبية) ، والسومرية . فهي في الاولى -Kweklo ، وفي الثانية galgal ، وفي الثالثة grgr ، وفي الرابعة girgir . وهذا من شأنه ايضا ان يعقد مسألة البت في اسبقية الاقوام الذين يُنسب اليهم اختراع العجلة .

وعلى اية حال ، اذا كان دياكونوف محقا في بعض اعتراضاته ، فقد بالغ كثيرا في موقفه الرافض (لمعظم المفردات تقريبا) وتجنى على الباحثين . ويبدو ان سبب اصراره على الرفض ذاتي او ارادوي اكثر منه موضوعيا ، لانه يريد بذلك دحض نظرية شرقي الاناضول (قرب وادي الرافدين) ليدعم نظريته البلقانية (حول الموطن السلفي لاقوام الهندية ـ الاوروبية) .

ولسوف تكون لنا عودة الى بعض اعتراضاته الاخرى المتعنتة ، بعد ان نعرض آراء الباحثين غامكر يليدزه وايفانوف بمزيد من التفصيل .

يرى هذان الباحثان ان التركيز على المفردات المستعارة من لغات اخرى وعلى التلاقح اللغوي مع لغات اخرى ، ييسر لهما مهمة تقليص المنطقة الواسعة كموطن سلفي محتمل للاقوام الهندية ـ الاوروبية . ويعتقدان ان الموطن الاول لهذه الاقوام ينبغي تحديده في منطقة الاحتكاك مع الاقوام السامية والاقوام الكارتفيلية (القفقاسية الجنوبية) . وفي ضوء هذا التلاقح يمكن تحديد منطقة معينة في الشرق الادنى كوطن سلفي للاقوام الهندية ـ الاوروبية . ومن خواص اللغات الهندية ـ الاوروبية ، والكارتفيلية ، والسامية ، السلفية ، اي في مرحلتها الام ، انها متماثلة في بنائها الصوتي بسلسلة ثلاثية الوقفات : زردومية (بلعومية) ، ومجهورة (معبر عنها صوتيا) ، وغير صوتية . وهناك نقاط اشتراك بين الهندية ـ الاوروبية والكارتفيلية اكثر من اي منهما مع السامية . ولابد ان هذا تم نتيجة لتلاقح طويل بين هاتين المجموعتين في منطقة مشتركة .

اما العلاقة بين الهندية ـ الاوروبية والسامية فيرى الباحثان انها يمكن ان تندرج في اطار استعارة الاولى من الثانية بصورة عامة ، وتشتمل في المقام الاول على مفردات تدل على الحيوانات ، والمواد الغذائية ، والادوات والارقام . ويؤكدان على ان الاستعارة تمت من السامية الى الهندية ـ الاوروبية في اغلب الحالات وليس العكس ، وذلك في ضوء بنية الجذر وطبيعة الاصوات او الحروف وما تؤول اليه من لغة الى اخرى . فالحاء او الخاء يتحول من السامية الى هاء في الهندية ـ الاوروبية ، وليس بالعكس . ويذكران مثالا على ذلك ان كلمة (دخن) السامية تنتقل الى (دوهن) في الهندية ـ الاوروبية .

والظاهر ان الباحثين استثنيا الالفاظ الاساسية ، الاقدم المشتركة بين المجموعتين الهندية ـ الاوروبية والسامية ـ الحامية ، مثل بعض الضمائر ، والاسماء الدالة على اعضاء الجسم ، والقرابة ، والكلمات الاساسية في الحياة (مثل كلمة «ارض» ، الخ) ، ربما لان العلاقة بين هذه الالفاظ قديمة جدا قد ترجع الى جذورمشتركة مُذْ كانت هاتان المجموعتان اللغويتان ، وربما

مجموعات لغوية اخرى ايضا ، ترجع الى اصل واحد ، حسب النظرية النوستيرية التي سبقت الاشارة اليها . ومن بين الالفاظ المشتركة التي تعود الى مثل هذه المرحلة الموغلة في القدم ، الكلمة الدالة على (الكلب) ، وعلى (الايّل) ، الخ .

ويرى الباحثان غامكر يليدزه وايفانوف ان المفردات الهندية ـ الاوروبية والنصوص المدونة تقدم لنا صورة عن العلاقات الثقافية والاجتماعية في المجتمع الذي كان يتكلم اللغة الهندية ـ الاوروبية . وليس ذلك فحسب ، بل تقدم لنا الدليل على ان الطابع الثقافي والاجتماعي لهؤلاء الاقوام كان قريبا الى حضارات الشرق الادنى ، مما يمكن اعتباره عاملا آخر يدعم الفرضية القائلة بان وطن هؤلاء الاقوام في الشرق الادنى .

ويشيران بصفة خاصة الى الدافع الميثولوجي وراء التماهي بين « الانسان » و « الارض » ، وصورة « الراعي » المقدسة ، والعلاقة بين الاسد والثور ، وسرقة التفاحة ، الخ . وهذه كلها لها موازياتها في الشرق الادنى .

ويعتقدان ايضا ان غياب الكتابة ، ونظام حكم مركزي ، ونظام ري اصطناعي ، وطبقة للتجار ، كان من خصائص المجتمع الهندي ـ الاوروبي السلفي . ويعتقدان ان السبب الذي يكمن وراء غياب الكتابة ، على رغم وجود نظام كهانة ونظام اجتماعي متطورين الى حد ما ، ربما يعود الى ان الاقتصاد لم يكن يتطلب عمليات حسابية خاصة ، لانه لم يكن قد تطور وتعقد يومذاك (في المرحلة السلفية) . فلم تكن هناك دولة مركزية . ولو وجد مثل ذلك ، لما حصلت هجرات واسعة النطاق للقبائل الهندية ـ الاوروبية من مناطقها المركزية ، كما يرى الباحثان .

ويعترف الباحثان غامكر يليدزه وايفانوف بان المنطقة الاصلية لتفرع اللغة الهندية ـ الاوروبية السلفية في الالف الرابع ـ الخامس قبل الميلاد لا توجد فيها حضارة آثارية يمكن ان تنسب بشكل واضح الى الهنود الاوروبيين . لكن بوسع المرء فقط القول بوجود صلات ممكنة ، مباشرة او غير مباشرة ، بين حضارات

الشرق الادنى الآثارية والحضارة الهندية ـ الاوروبية لتلك المرحلة . ويشيران الى ان هناك عددا من الحضارات الآثارية وجدت في الشرق الادنى في الالف الخامس ـ الرابع ق .م . مشابهة في سماتها الى حد كبير للحضارة الهندية ـ الاوروبية المتصورة من خلال المادة اللغوية . ويعتقدان بوجود قواسم مشتركة وما اسمياه بالبيّنات الرمزية بين حضارة تل حلف (شمال وادي الرافدين) وحضارة تشتال هيوك غربي الاناضول في الالف الرابع ق .م . فهناك مجموعة كاملة من الرموز الثقافية (لاسيما الدينية) المتطابقة ، مثل قرني الثور(واحيانا الكبش كرمز للذكورة وصور لجلد النمر) في تل حلف على الاواني . وكذلك المساكن الدائرية في تل حلف التي تعكس تأثيرا معاكسا بين حضارتي الشرق الادنى والقفقاس في الالف الخامس ق .م . ان تأثير حضارة تل حلف يمكن ترسّم اتجاهه نحو الغرب ، في الاناضول وشمال سوريا ، ونحو الشرق في ايران .

في ختام هذه المداخلة نتوقف عند مسألة التشابه اللفظي بين بعض الاعداد في اللغات الهندية ـ الاوروبية واللغات السامية ، التي لم تنل اهتماما كافيا عند الباحثين غامكر يليدزه وايفانوف ، ولاعند ناقدهما دياكونوف الذي كان اكثر منهما تحفظا في مناقشة هذه المادة . في رأينا ان هذه الحقيقة ، ان صحّت ، نعني التشابه في الفاظ بعض الاعداد ، تنطوي على اهمية كبيرة في دعم الرأي القائل بوجود تلاقح حضاري بين الناطقين باللغات الهندية ـ الاوروبية السلفية واللغات السامية السلفية . وقد انتبه الى هذا التشابه عدد غير قليل من اللغويين منذ القرن الماضي ، من بينهم يوهانس شمت Johannes Schmidt الذي طرح نظريته القائلة بتجاور الاقوام الهندية ـ الاوروبية مع البابليين في ضوء التشابه بين نظاميهما العددي .

لكننا لا نفهم سرّ اصرار دياكونوف على محاولة استبعاد اي بيّنة من بيّنات التلاقح اللغوي والحضاري بين الاقوام السامية والاقوام الهندية ـ الاوروبية . فهو يحاول التشكيك حتى في احتمال اشتراك لفظة العدد (سبعة)

بين اللغات السامية والهندية الاوروبية . ونحن لا يسعنا الا ان نتساءل : ترى هل جاء هذا التشابه في اللفظ والمعنى بين Septemالهندية ـ الاوروبية و (سبعة) السامية (وبالاكدية Sibitt) ، وحتى مع كلمة Swid الكارتفيلية ، مصادفة ؟

ومن حجج دياكونوف ايضا ان الاعداد السامية ، حتى العشرة الاولى منها ، تبدو متأخرة ، اي انها لا ترقى الى المرحلة الافرو آسيوية (اي السامية ـ الحامية) . فهي مختلفة في فروع هذه الشجرة اللغوية الام ؛ وان اشتقاقها يعتبر احدى اعقد المسائل في فقه اللغات الافروآسيوية . لكننا نرى ان مداخلة دياكونوف تندرج في اطار النقاش الارادوي المبني على موقف رافض في كافة الاحوال ، لان الامر لا يقتصر على العدد Septem (سبعة) وحدها ، وهذا هو سبب استغرابنا . فنحن نرى ان هناك اعدادا اخرى متشابهة في لفظها ومعناها بين الهندية ـ الاوروبية والسامية كما بيّنا في فصل سابق

نخلص من هذا الى ان التشابه في بعض الاعداد بين المجموعتين اللغويتين لابد ان يكون نتيجة التلاقح الحضاري بينهما ، ولا يتم مثل هذا التلاقح الا اذا كان ثمة تجاور جغرافي بينهما ، هذا اذا استبعدنا احتمال انتمائهما الى وطن واحد... ونحن لسنا مؤهلين للبحث في العوامل الاخرى التي تدخل في منهج البحث عند تحديد الموطن السلفي لمجموعة لغوية ما ، لكننا نتفق مع الباحثين غامكر يليدزه وايفانوف في نظريتهما التي تحدد الموطن السلفي للاقوام الهندية ـ الاوروبية الى الشمال من وادي الرافدين ، لان هذه النظرية تقدم تفسيرا للتلاقح اللغوي والحضاري بين المجموعتين اللغويتين ، الهندية ـ الاوروبية والسامية .

مغالطات عنصرية في موقف روبرت غريفز
من الابجدية الفينيقية

روبرت غريفز (١٨٩٥ ـ ١٩٨٥) شاعر وكاتب بريطاني معروف ، له مؤلفات قيمة في الرواية والاداب الكلاسيكية ، مثل رواياته التاريخية «انا ، كلوديوس» ، و «الجزّة الذهبية» و «جزر اللاحكمة» و «الاساطير اليونانية» ، الخ . وهو بقدر ما يعتبر حجة ومرجعا في عالم الاساطير ، الا ان بعض آرائه لا يخلو من لمسات شاعر يطلق العنان كثيرا لمخيلته واجتهاداته . وفي هذا السياق يطرح آراء جريئة تثير كثيرا من الجدل والنقاش حولها ، مثل وجهة نظره في ابوّة السيد المسيح في روايته «الملك يسوع» ، لكن هذا ليس موضوع كلمتنا .

نقول ان نهجه في ابحاثه الاسطورية والتاريخية لا يكاد يحيد عن الموضوعية ، الا عندما تلحّ معه فكرة معينة ، مثل نزعته السلتية احيانا ، او اليونانية في احيان اخرى ، وهذا امر لا يهمنا كثيرا ، الا اذا كان له مساس بنا وبحضارتنا ؛ وهو ما لمسناه في حديثه عن موضوع الابجدية . هنا نجده حاد عن الموضوعية ، وغلبت عليه النعرة الاوروبية هذه المرة . وهي نعرة سوف نرى انها تفتقر الى القوة ، وتبدو غريبة بقدر تعلق الامر بابتكار الابجدية وانتحال اسبقيتها .

جاء في مقالته «پالاميداس والغرانيق» : «كانت الابجدية اليونانية تشتمل في بادئ الامر على ثلاثة عشر ، ثم خمسة عشر حرفا صوتيا ، وخمسة حروف علّة ، استعملت في شبه جزيرة الپيلوپونيز (اليونانية) قبل حرب طروادة (وقعت هذه الحرب في حدود ١٢٤٠ - ١٢٣٠ق .م .) ، لكن موطنها الاصلي هو كريت ، ثم نقلت الى مصر - ربما فقط الى ميناء فاروس (الاسكندرية) - وهناك استعملها التجار الفينيقيون في الكتابة السامية ثم عادوا فنقلوها ثانية الى اليونان بعد بضعة قرون عندما قضى الدوريون (قبائل يونانية) على الحضارة الميسينية برمتها تقريبا» .

قبل ان نشرع بمناقشة هذه «الحقيقة» التي يظهر التعصب والمغالطة فيها واضحين ، نقول : من الامور المحيرة حقا انه ما من شعب من شعوب الدنيا تعرض للحيف على يد المؤرخين - ثمة استثناءات - كالشعب الفينيقي او الكنعاني . ألأنّ هنيبعل (هانيبال) أذلّ الرومان يوما ما ، وغزاهم في عقر دارهم بعد ان شق طريقه اليهم برا من اسبانيا ، عبر فرنسا ، ولم ينسها له الاوروبيون ؟ ام لان الاسباب ابعد من ذلك واخطر ، كأن تكون للفينيقيين ، اوالكنعانيين ، بصمات على العديد من معالم الحضارة الاغريقية ؟... هذا مع العلم ان اليونانيين القدامى كانوا اكثر موضوعية وصراحة من اشقائهم الاوروبيين المعاصرين باعترافهم بما هم مدينون به لغيرهم من شعوب الشرق ، كالمصريين والفينيقيين والبابليين .

لكن فلنتابع مزاعم غريفز : «في السنوات الاخيرة القي الضوء على تاريخ الابجدية اليونانية . وعرف الان ان منشأها هو الهيروغليفية الكريتية التي اختزلت في العهد المينوي الاخير (اي في حدود ١٤٠٠ ق .م .) الى شيء هو بين الابجدية والمقطعية المؤلفة من اربع وخمسين علامة ، تزيد بأربع فقط على النظام السنسكريتي . واستعار الميسينيون (من طلائع اليونانيين) هذا النظام الكريتي وكيفوه لحاجاتهم . وفي العام ١٩٥٣ توصل السيدان ڤنتريس وتشادويك الى فك رموز هذا الخط الذي يدعى الخط (ب)» .

لكن هذا الخط (ب) مقطعي وليس ابجديا ، ولا علاقة له عن قريب او بعيد بالابجدية اليونانية (الحالية) . والاشارة اليه لا تقدم او تؤخر في شيء بصدد جذور الابجدية اليونانية ، ولم يتطور عنه نظام الابجدية في الكتابة ، فضلا عن انه لم يكن اقدم نظام للكتابة في اليونان (بما فيها كريت) ، بل سبقه نظام اخر ، يدعى الخط (أ) ، ولغته ساميّة وليست يونانية . لكن غريفز يُقر بعد هذه المقدمات «منذ القرن السادس عشر ق .م . بذلت ثلاث او اربع محاولات لتبسيط او تيسير الكتابات المقطعية المتعددة التي كانت قيد الاستعمال في الشرق الاوسط ، الى حروف ابجدية . وكانت الابجدية الفينيقية انجحها ، وهي التي اشتقت منها الحروف «القدموسية» اليونانية . وكان الامراء الساميّون في سورية يستعملون الكتابة المسمارية الاشورية في مكاتباتهم مع فراعنة مصر حتى القرن الثاني عشر ق .م . ، لكن تجارهم كانوا قبل ذلك بزمن يستعملون الابجدية الفينيقية ، التي استعير ثلث حروفها من النظام الكريتي ، أكان ذلك عن طريق مباشر من كريت او غير مباشر عبر اليونان او آسيا الصغرى ، فهو غير معروف . اما باقي الحروف فمن الهيروغليفية المصرية» . ويذهب ابعد من ذلك . فيقول : «ليس ثمة ما يشير الى ان الفينيقيين ابتكروا نظام اختزال الكتابة المقطعية الى حروف . واستنادا الى البروفسور يوستس غلوتس في كتابه «الحضارة الايجية» ان اسماء الحروف الفينيقية التي هي ليست اسماء ساميّة (كذا!) للاشياء التي تقابلها في الهيروغليفية المصرية ، لا يمكن تفسيرها في ضوء اية لغة ساميّة ، في حين كانت اشكالها مشتقة على نحو واضح من الخط الكريتي» . ويخلص الى القول : «مع ان الساميين رجال اعمال ناجحون ، الا انهم لم يكونوا شعبا ذا قدرة على الاختراع ، وان اسماء الحروف التي لم يوجد لها تفسير من المرجح ان تكون اغريقية . وربما ان اليونانيين الدانيين هم الذين حوّلوا المقطعية الكريتية الى ابجدية مقدسة ونقلوها الى الفينقيين (...) ان اقدم كتابة فينيقية هي النقش الذي عثر عليه في بيت شمس في فلسطين ، ويرجع تاريخه الى القرن السادس عشر ق .م . (...) وكان

المصريون طوروا نظام الكتابة الى الابجدية بصورة متزامنة مع الكريتيين ، ويصعب القول من منهم كان الاسبق في تحقيق هذا العمل ، لربما كان المصريون هم الاوائل » . هذا الكلام ينطوي على اكثر من مغالطة وتناقض ، ويتجانف مع الحقيقة ، و يلوي عنقها ، كما يقال . فمما يثير الدهشة ان يقول غريفز ، وهو الباحث الذي يفترض فيه توخي قول الحقيقة ، ان اسماء الحروف الفينيقية ليست ساميّة . لكأنه يريد ان يقول لنا ان كلمة « بيت » على سبيل المثال ، ليست سامية ، وهي الكلمة التي اطلقت على الحرف الثاني من الابجدية الفينيقية ، واصبح « بيتا » باليونانية . اما الحرف الاول « الف » فيعني « ثور » في اللغات السامية الغربية (كالفينيقية والعبرية ، الخ) . والكلمة مشتقة من الفعل ألف ، ومنها الاليف ، اي الحيوان الاليف ، وكانت تطلق على الثور ، وسمي هذا الحرف باليونانية « الفا »... وهكذا . ويناقض روبرت غريفز نفسه حين يضع جدولا باسماء الحروف اليونانية ، والعبرية (الفينيقية في الاصل ، كما يؤكد هو) والايرلندية (وهي من اللغات السلتية او الكلتية) ، ليشير بذلك الى ان الفاظ بعض الحروف الايرلندية اقرب في نطقها الى الفينيقية منها الى اليونانية . فكيف استعيرت هذه الحروف ـ الفينيقية ـ من اليونانية في مثل هذه الحالة ؟ وحتى ترتيب الابجدية اليونانية (والابجديات الاوروبية) جاء على نسق الحروف الابجدية الفينيقية مع بعض الفوارق التي تقتضيها طبيعة الاصوات والالفاظ الهندية ـ الاوروبية .

يقول مارتن برنال في كتابه « اثينا السوداء » (ج١ ، ص ١٩٣) : « مع ان الباحثين المعاصرين يميلون الى رفض الشهادات القديمة والمجهولة المؤلفين التي تقرّ بأن اليونانيين اقتبسوا ابجديتهم من الفينيقيين ، الا انهم لم يترددوا في الاعتراف بانها سامية الاصل » . وهناك شهادات كثيرة في المصادر القديمة حول هذا الموضوع ، تفيد بأن نقل الابجدية الى اليونان تم على يد (دانوس) من مصر او على يد (قدموس) من صور الفينيقية ، وذلك في منتصف الالف الثاني ق .م . وفيما بعد طُرحت تواريخ احدث ، كالقرن العاشر او الثاني عشر

ق .م . بل ان بعضهم طرح القرن الثامن ق .م . وتمادى ريس كاربنتر Rhys Carpenter اكثر من ذلك حين اعلن في العام ١٩٩٣ ان تاريخ الابجدية اليونانية يرقى الى ٧٢٠ق .م . وذلك في محاولة للتقليل من شأن اي تأثير فينيقي اخر - اقدم - على اليونانيين ، وان اليونانيين هم الذين ابتكروا حروف اللين (حروف العلة) ، لان هذا - كذا! - فوق مستوى الساميين! مؤكدا على «الابتكار الاغريقي العبقري لحروف العلة» .لكن هذا التاريخ الذي اقترحه او طرحه ريس كاربنتر لا يستند على اساس صحيح .

وينقل غريفز نصا من كتاب «الخرافات» Fables لكايوس جوليوس هيغينوس ، وكان هذا عبدا اسبانيا اعتقه الامبراطور الروماني اوغسطوس ، واصبح امين المكتبة الامبراطورية الرومانية وصديقا للشاعر الروماني الشهير اوفيد Ovid . في خرافته رقم ٢٧٧ يقول هيغينوس :

١ - ان الإهات القدر ابتكرن سبعة حروف ،

او ان الاله عطارد ابتكرها بعد ان راقب طيران الغرانيق

«التي تصنع حروفا بطريقة طيرانها»

٢ - ان پالاميادس ، ابن نوپليوس ، ابتكر احد عشر حرفا آخر ،

٣ - ان ابيخارموس الصقلي اضاف حرفين .

٤ - ان سيمونيدس اضاف اربعة حروف .

ويعلق غريفز قائلا : «لا توجد اشارة هنا الى قدموس الفينيقي ، الذي ينسب اليه دائما ابتكار الابجدية اليونانية ، التي اقتبست حروفها بما لا يدع مجالا للشك من الابجدية الفينيقة» . ثم ينقل خبرا آخر من مرحلة متأخرة ، عن كتاب ايزيدور الاسباني (Etymologies) وهو اقدم واهم كتاب اسباني (سابق للحضور العربي في الاندلس) . ومؤلفه ، ايزيدور ، كان رئيس اساقفة اشبيلية ، وتوفي في العام ٦٣٦م . وهذا المصنف عبارة عن موسوعة تشتمل على اثنين وعشرين كتابا في الاشتقاقات . في هذا الكتاب يتحدث ايزيدور عن ابتكار الكتابة «اما عن الابجدية المصرية ، فإن الملكة ايزيس ، ابنة الملك

ايناخوس ، في طريقها من اليونان الى مصر جلبتها معها واعطتها للمصريين» .
ثم يقول غريفز «ان ايزيدور يفرّق بين الابجدية المصرية والكتابة الهيروغليفية (المصرية) والكتابة الديموطية (خط مصري قديم يستعمل في الحياة اليومية) ، ويعزو ابتكار الابجدية اليونانية الى الفينيقيين» . وهكذا نراه - اي روبرت غريفز - يتخبط في كلامه ، لا هو يستطيع انكار طليعية الفينيقيين في ابتكار الابجدية ، ولا يريد ان يعترف لهم بهذه المأثرة الحضارية العظيمة ، لان الكتابة اساس الحضارة ، ولعلها اهم شيء ابتكره الانسان حتى يومنا هذا .

مقارنة بين الفاظ بعض الحروف الابجدية في الايرلندية واليونانية مع الاصل الفينيقي

الفينيقية	الايرلندية	اليونانية
ألف	alev	alpha
يود (ياء)	jdho	iota
ريش (راء)	ruis	rho
بيث	beith	beta
نون	nion	nu
حيط (ح)	eadha	eta
ميم	muin	mu
عين	onn	o

الشرق والغرب
كانا اساس تحديد الاتجاهات

نشأ مفهوم الجهات الاربع لدى الانسان من التوجه صوب مشرق الشمس ومغربها ، مع استعمال اليدين اليمنى واليسرى لتحديد الاتجاهين الاخرين المتعامدين مع المحور الواصل بين الشرق والغرب . فالشرق هو مشرق الشمس والغرب هو مغربها . ويلاحظ هنا ان المفردات التي استعملها الساميون للشروق والغروب تفيد معنى الخروج او الظهور - البزوغ - في حال الشروق ، والدخول في حال الغروب ، وذلك بالنسبة الى الشمس ، اي الخروج من العالم الاسفل ، يوم كان الانسان القديم يعتقد ان الشمس تخرج - تبزغ - منه في الصباح ، وتدخل فيه عند الغروب . وكان النهار والليل عند انسان الشرق الاوسط القديم يضفيان على مفهوم الشرق والغرب معنى الحياة والموت على التوالي . من هنا اعتبر الغرب مقر العالم الاسفل او عالم الموتى .

ونحن نعتقد ان العرب استعملوا كلمة « شرق » من الفعل « شَرَقَ » او اشرق في معنى « الشق ، لان جذر الفعل (شرق) يعني : شق . وفي هذا الاطار يقال شرق الشاة ، اي شق اذنها . والشرق (بكسر الشين) : الضوء الذي يدخل من شق الباب . اما الكلمات الدالة على الشروق في بقية اللغات السامية فغير ذلك . وقد تطرقنا الى ذكرها في مناسبات سابقة ، مثل مادة (يصا) التي

تفيد معنى الخروج والطلوع والشروق ، وكذلك مادة (قدِم) التي تفيد معنى القدوم والشروق والقِدَم . و « بني قِدم » باللغة العبرية : ابناء الشرق ، ويقصد بهم سكان بادية الشام . والعربية احتفظت بمعنى القدوم او القدَم والقِدَم ، واسقطت منها المعنى الدال على الشرق ، بعد ان استعملت مادة « شَرَقَ » .

اما الجنوب والشمال ، فجاء مفهومهما من استعمال اليد اليمنى (للجنوب) ، واليسرى ـ الشمال ـ (للشمال) ، عندما يقف الانسان في مواجهة الشمس ، اي الشرق . لهذا فان مادة (ي م ن) اي اليمين ، تقال للجنوب ايضا في اللغات السامية . من هنا اطلق اسم (اليمن) على القطر اليمني ، لان موقع اليمن يكون الى يمين الانسان العربي ـ في الحجاز ـ عندما يقف في مواجهة المشرق .

اما في مصر القديمة فكانوا يقفون في مواجهة منبع النيل عند تحديد الجهات الاربع . لهذا كانت الكلمة الدالة على اليمين ، او اليد اليمنى ، في المصرية الفرعونية ، وهي (ي م ن) ، كما هو الحال في اللغات السامية ، تعني الغرب ايضا .

ولان اليد اليمنى هي المعوّل عليها في العمل (عند معظم الناس) ، لذلك اقترنت باليمن والخير ، ومن هنا كلمة «اليُمن» . كما اصبحت تدل على التوقير والاحترام ، اذ كان الضيوف المرحب بهم اكثر من غيرهم يجلسون الى يمين الملوك وكبار القوم . ولعل لكلمة (اليمّ) ، اي البحر ، صلة بمادة (ي م ن) ، اي اليمين . وفي هذه الحال لابد من ان الاخيرة ، اي اليمين ، اقدم من الاولى ، لانها مشتركة في اللغات السامية كافة وفي المصرية القديمة ايضا . اما اليمّ فيعتقد بعض اللغويين انها كلمة سامية غربية بالاصل ، وربما استعارها بقية الساميين ، كالاكديين ، من الكنعانيين . ومن معاني كلمة (يم) العبرية ، وهي متفرعة من الكنعانية ، الغرب ، ذلك لان البحر الابيض المتوسط يقع الى الغرب من مساكن الكنعانيين .

اما الشمال ، فتسميته مأخوذة من تسمية اليد اليسرى (شمال) . لكن هذه اللفظة في المصرية الفرعونية تفيد معنى الشرق ، بحكم توجههم شطر

الجنوب حيث منبع النيل . ويرى البعض ان اليد الشمال سميت كذلك لانها تشمل (بمعنى تُستر او تُكسى) بالملابس الخارجية التي كانت تلقى فوق او على الكتف اليسرى (في حين تترك الكتف اليمنى عارية) . وبهذا المعنى الذي تذهب اليه مادة (شمل) اي اكتسى ، جاء في المثل العربي الجاهلي :

اوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الابل

ويرتبط مفهوم الامن والامان باليمين ، او اليد اليمنى ، لان المصافحة - وتتم باليد اليمنى - كانت دلالة على الامان . ونحن نميل الى الاعتقاد بان مادة (ي م ن) مشتركة ايضا مع الكلمة التي تدل على المعنى المماثل لها في اللغات الهندية - الاوروبية . فكلمة Main الفرنسية تعني (يد) وهي من اللاتينية ma-nus ، وترجع هذه الى ايطاليا (القديمة) . وبالانكليزية القديمة mund (يد ، حماية ، حراسة ، حامي ، حارس) ، ومثلها في بقية اللغات الجرمانية ، وفي بعض اللغات السلتية . ويمكن ذكر كلمة mari اليونانية ، وتعني (يد) ايضا ، وكلمة mar الالبانية ، وتعني (أخذ ، استلم) . وفي قاموس الدكتور ارنست كلاين لاشتقاق المفردات الانكليزية ان هذه الكلمات الهندية - الاوروبية ترجع الى اللفظتين الهنديتين - الاوروبيتين غير القياسيتين man و mar (يستلم بيد) .

ويقال للشمال بالكنعانية والعبرية (صافون) ، وهي مشتقة من مادة (صفن) ، بمعنى : اخفى ، حجب ، وتقال للشيء الغامض او المتعذر الوصول اليه : كان القدماء يعتبرون الشمال منطقة قاتمة مظلمة ، اما الجنوب فعلى العكس من ذلك : منير ومشرق ،بفعل الشمس (بالنسبة الى سكان نصف الكرة الارضيةالشمالي) . و(صافون) اسم جبل يقع الى الشمال من ارض كنعان ، في سورية الشمالية ، وارتفاعه ٥٨٠٠ قدم ، ويدعى حاليا جبل الاقرع . وكان الحثيون يدعونه جبل خازي ، واليونانيون يسمونه جبل كاسيوس . واشتهرصافون برياحه الشمالية المدمرة التي تهب منه على سورية وفلسطين . وفي الاساطير الكنعانية انه كان مقر (بعل) . وكان الاعتقاد بأن

اخر الدنيا ينتهي في الشمال شائعا عند كثير من الشعوب القديمة ، كما يقول الدكتور انيس فريحة .

وفي الاساطير اليونانية ان كارديا كانت مسؤولة عن الرياح الاربع . وكانت ريح الشمال اهمها ميثولوجيا ، لان قلعة كارديا ـ المرصعة بالنجوم ـ توجد خلفها ، وتطل على مشارف الكون القطبية ، كما تقول الاسطورة . وكان اليونانيون القدماء ـ وكذلك الرومان ـ يعتقدون ان اناث الخيل تتقلح عندما تدير مؤخراتها الى الريح (الشمالية) . ويرجع هذا الاعتقاد الى ازمنة غابرة يوم كان سبب الحمل مجهولا . جاء في الياذة هوميروس ان بورياس ـ رمز الريح الشمالية عند الاغريق القدامى ـ عشق ثلاثة الاف مهرة تعود لاريخثونياس الدردنيلي ، كانت ترعى في سهول طروادة . ولقح اثنتي عشرة واحدة منها . ثم انعم الاثينيون القدماء على بورياس بلقب « زوج الاخت » او اخو الزوجة بالنسبة الى اي اثيني .

وآمن بهذه الواهمة ـ قدرة الريح الشمالية على تلقيح الجياد ـ المثقفون الرومان ايضا ، كما يقول روبرت غريفز ، مثل عالم الطبيعيات بلينيوس الذي كان يعتقد ان بالامكان تلقيح الافراس الاسبانية بهذه الطريقة . وقال ارسطو ايضا : « ضاجع زوجتك عندما تكون الريح شمالية لتنجب لك ولدا ، وعندما تكون جنوبية لتنجب لك بنتا » .

كما مر بنا آنفا ، كان المصري القديم عند ترسيم الجهات الاربع يتجه الى الجنوب حيث منبع النيل . من هنا فأن احدى الكلمات التي تطلق على « الجنوب » هي نفسها التي تطلق على « الوجه » . والكلمة التي تقال للشمال قد تكون لها علاقة بلفظة تعني « قفا الرأس » . كما ان الكلمة المصرية القديمة التي تقال للجريان الى الشمال هي الكلمة نفسها التي تطلق على الجريان مع التيار . والكلمة التي تقال للذهاب جنوبا هي نفسها التي تقال للذهاب ضد التيار . وهي مستوحاة من مجرى نهر النيل . وعندما يصادف المصريون نهرا آخر ، كالفرات الذي يجري الى الجنوب ، اي عكس مجرى النيل ، فانهم

يطلقون عليه قولهم «ذلك الماءالدوار الذي يجري مع التيار في جريانه ضد التيار» ، او يمكن ترجمتها على النحو الآتي : «ذلك الماء المعكوس الذي يجري مع التيار بجريانه جنوبا» ، كما يقول هنري فرانكفورت في كتاب «قبل الفلسفة» . واستعارت اللغات المتحدرة من اللاتينية في الجزء الغربي من اوروبا اسماء الجهات الاربع من اللغة الالمانية . وتفيد كلمة east الانكليزية التي تقال للشرق (وهي من اصل جرماني) معنى «الفجر» بالاصل . والفجر بلغة هوميروس (اليونانية) eos ، وبالسنسكريتية usas . ويعتقد ان الجذر الهندي - الاوروبي للكلمة هو aus ولعله من اصل au ، والفكرة الاساسية متأتية من الاضاءة .

لكن الفجر او رمز الفجر eos عند هوميروس تذكرنا بـ «ايا» Aia البابلية ، زوجة شماش (الشمس) . وعند الساميين الغربيين - الكنعانيين - يقال للصقر «ايا» . وتجسيد الشمس على هيئة صقر انتقل من مصر الى بقية انحاء الشرق الاوسط . فقد تبنى الاشوريون والحثيون والحوريون صورة قرص الشمس المقترنة ايضا بجناحي الصقر من مصر . وبالتالي فان لفظة الفجر eos اليونانية ، وما يقابلها باللغات الاوروبية ، ومن ثم east ، ترجع الى اصل سامي على ما يبدو . وجاء في تاج العروس : إيا الشمس (بالكسر والتخفيف والقصر) ، ويقال إياه ، واياء : شعاع الشمس وضوؤها . وفي لسان العرب تذكر إيات ايضا . قال لبيد :

سقته إيات الشمس إلا لثاته   أُسِفَّ ولم يكدم عليه باثمد

لكن مادة east التي لها علاقة بكلمة Austro رمز الربيع عند الشعوب التيوتونية (الجرمانية) في العهود الوثنية ، قد تكون مستعارة من اسم (عشتار) او (عشتروت) السامي ايضا ، كما يقول الدكتور انيس فريحة في كتابه «ملاحم واساطير من اوغاريت» .

وكلمة west الانكليزية من اصل جرماني ، وتقابلها باللاتينية uesper ، ومثلها hespers باليونانية ، وتعني مساء . ويقال لنجمة المساء باليونانية

hesperos . فالغرب في اللغات الاوروبية مستمد من فكرة المساء ، اما الجنوب south بالانكليزية فهي من اصل sunith وتعني : تلك الارض التي تقع في المناطق المشمسة بالنسبة الى سكان نصف الكرة الشمالي ، او الاتجاه الذي يفضي الى الاراضي المعرضة للشمس .

واما الشمال north وبالالمانية nord فلعل معناها الاصلي : «الى اليسار» ، تماما كما هو الحال في اللغات السامية . ويتضح هذا في كلمة ner-trak الاوسكانية (من لغات ايطاليا القديمة) ، وفي كلمة nerteros اليونانية ، وتعني بهذه الاخيرة اسفل ، واقع تحت الارض... على ان الفكرة الاساسية هنا في مفهوم الشمال هي «اليسار عند التوجه شرقا» .

من ادب المقامات الاسلامية
الى روايات المتشردين الاسبانية

مما تجدر الاشارة اليه ان كلمتي «مقامة» و «مقام» هما من اكثر المصطلحات العربية غموضا في معناهما الاصلي . وهذا الغموض ينسحب على المقامة كعمل ادبي ، وعلى المقام كلون من الوان الغناء الذي اطلقت عليه هذه التسمية في المشرق العربي ربما منذ القرن الرابع عشر الميلادي . فالقاموس العربي يعرّف المقامة بأنها «المجلس ، او الجماعة من الناس ، او الخطبة ، او العظة ، او الرواية تُلقى في مجتمع الناس» . وتناقش الموسوعة الاسلامية باسهاب جذر كلمة «المقامة» بهدف التوصل الى معناها في اطار مفهومها الادبي . فمحرر هذه المادة - في الموسوعة - يتحفظ بعض الشيء على تعريفها القاموسي الذي يذهب الى معنى «المجلس» ، ويشير الى ان الامر يزداد اشكالا عندما نرى ان الجمع ، المقامات ، لا يقتصر على كلمة «مقامة» بل على «المقام» ايضا . وكلاهما مشتقان من الجذر (ق و م) اي (قام) ، ويذهب الى معنى «الوقوف» ، وكذلك الى «الشروع بعمل ما» ، اي «القيام بعمل ما» . وتزداد المسألة تعقيدا مع المعنى الآخر المعاكس للقيام ، وهو «الاقامة ، محل الاقامة» . والكلمة في الآرامية والعبرية تفيد ايضا معنى النهوض ، والوقوف ، والاقامة ، الخ .

وفي اطار الانزياح في المعنى اتخذت المقامة في العربية معنى (المعركة) ، او (الاقتتال) او (التدافع بالمناكب) . ووردت بهذا المعنى في شعر جرير ، وكذلك في شعر ابي تمام بما يفيد معنى (المعترك) . ووردت في كتاب «البخلاء» للجاحظ بصيغة الجمع ، مقامات ، بصدد الحديث عن جماعة من الاعراب (البدو) في سياق كلامهم على حروب الجاهلية (ايام ومقامات) . كما ان المقامات عند ابن قتيبة ترد في سياق الحديث عن اعرابي او شخص ذي مظهر غامض يخاطب مستمعين من علية القوم فيسحرهم بذرابة لسانه وفصاحة لغته . ولعل هذا التناقض بين بساطة المظهر وعمق المعرفة (اللغوية على وجه الخصوص) عند الاعرابي كان اللحن الرئيسي في الاعمال القصصية العربية القائمة على عنصر المفارقة (بين المظهر والمخبر) . وفي مقابل ذلك فإن (القاص) هو من يروي قصصه على مسامع الناس من الاوساط الشعبية . ويمكن مقارنته الى حد ما بالمكدي ، الشحاذ الجوال الذي يتنقل من بلدة الى اخرى ، ويجمع حوله مستمعين يكافئونه ماليا لقاء القصص المسلية التي يرويها على مسامعهم . ولعل اول من قدم نماذج من هذه الشخصيات النابضة بالحيوية الى الادب العربي هو الجاحظ الذي تحدث عنهم باسهاب في كتابه «البخلاء» . وكتب ايضا عن «حيل اللصوص» و «حيل المكدين» التي لم تصلنا سوى فقرات منها نقلها البيهقي . ويشار ايضا الى قصيدة ابي دلف الخزرجي (القرن الرابع الهجري) الموسومة بالقصيدة الساسانية ، كعمل ادبي سابق للمقامات يتطرق الى مغامرات بعض الفئات الهامشية في المجتمع .

وفي مقال له نشر في العام ١٩٧٢ ، بعنوان «نشوء المقامة» ، يرى بيستون ان دور الهمذاني في ابتكار فن المقامة كان مبالغا فيه ، وان ادب النوادر والحكايات ، لا سيما ما جاء في كتاب «الفرج بعد الشدة» للتنوخي ، معاصر بديع الزمان ، قدم ايضا اشخاصا مظهرهم زري لكنهم يتمتعون بموهبة فذة في فن الخطابة . وجاء في كتاب «زهر الاداب» للحصري ان الهمذاني انما عارض (قلّد) الاربعين حديثا (قصة) لابن دريد اللغوي ، وكتب اربعمئة مقامة

حول موضوع الكدية . (لاشك في ان هذا الرقم مبالغ فيه ، ولعل ما وصلنا من مقامات للهمذاني ، وهو احدى وخمسون ، كان العدد الصحيح ، لانه هذا العدد - ٥٠ - سيصبح تقليدا عند الحريري وغيره) .

ومهما يكن من امر فإن بديع الزمان الهمذاني هو سيد المقامات بحق ، لان هذا الفن اتخذ عنده للمرة الاولى لونا ادبيا متميزا في الادب العربي ، لا مثيل له في الاداب الاخرى . ويعود الفضل للهمذاني في تكريس وتحريك شخصيتي المقامات ، الراوي والبطل ، حيث يمثل هذا الاخير مجموعة كاملة ومتعددة من الادوار الاجتماعية . ويأتي تسلسل الاحداث في المقامة على النحو الآتي : وصول الراوي الى بلدة ما ، ثم لقاؤه برجل (بليغ) متنكر ، هو البطل . يليه كلام او خطاب ، ثم مكافأة البطل بعد كلامه ، ثم التعرف عليه ، فعتاب بسبب لجوئه الى وسيلة الكدية ، فتبرير لذلك ، ثم فراق . اما لغة المقامة فتتسم باستعمال السجع الذي كان طاغيا في النثر العربي (دام حتى نهاية القرن التاسع عشر) ، يتخلله بعض الشعر . فالمقامة ، كنوع ادبي ، تنتمي الى القصة بالاساس ، وفي مجموعها ، اي المقامات ، الى الرواية التجميعية ، لكنها لا تلتزم بالقواعد التقنية لفن القصة ، بل ان لها شكلا خاصا بها ، فيه من مواصفات القصة شيء ، ومن الرواية شيء ، ومن المسرحية شيء (زي البطل المتغير على الدوام ، ووضع الراوي) ، الى جانب عناية المقامة الفائقة باللغة ، لا سيما عند الحريري ، الى حد تبدو المقامة كأنها لعبة اكروباتيكية لغوية في بعض الاحيان .

فالمقامة اذن ، تجمع بين الادب الرفيع والادب الشعبي في آن معا ، لانها كتبت بلغة عالية وتعالج مواضيع شعبية مستوحاة من حياة الناس اليومية المباشرة . ولعل اختيار التشرد والاحتيال مهنة للبطل لم يكن اعتباطا ، لان هذه المهنة تمكن البطل من التنقل من مكان الى آخر ، ومن بلد الى آخر ، وانتحال مهن وادوار شتى ، مما يتيح لكاتب المقامات امكانات واسعة للتحرك على خارطة المجتمع والحياة اليومية للناس ، فضلا عن ان مهنة التشرد تُضفي هالة من

الغموض على البطل المقامي الذي يظهر بمظهر او زي متخف ، يمدّ المقامة بعنصري الترقب والادهاش ، ويكون بمثابة حبكة متجددة في كل مقامة .

صحيح ان مقامات الهمذاني والحريري كتبت بلغة جزلة ومنمقة جدا ، لكن هذه الزخرفة اللغوية املتها طبيعة الواقع الثقافي في العصر العباسي الثاني عندما طغت النزعة لاستعمال المحسنات البديعية . ومن جهة اخرى كان لهذه الزخرفة اللغوية في المقامة دور كبير في تقليص الفارق بين مقاطعها النثرية والشعرية ، فجاء نصها متجانسا بنثرة وشعره . ثم ان شعر المقامة في معظمه مؤلف من قبل كاتبها ، وهو جزء لا يتجزأ من موضوع المقامة ، وغالبا ما يأتي كقفلة تتسم بمزيد من خفة الروح وجمال اللغة . كما ان هذا كله ينسجم مع روح المقامة والمستوى الثقافي العالي لبطلها . فالبطل يسعى دائما الى ان يأخذ بألباب القراء ببراعته اللغوية والشعرية . ثم ان هذه البراعة او الموهبة الادبية التي يتمتع بها البطل المتشرد هي التي تجعل الراوي - بطل المقامة الآخر - ينبهر به في كل لقاء معه ، ويتسامح ازاء احابيله وحيله التي يلجأ اليها في تعامله مع الناس .

وبفضل هذه المزايا الادبية - الفنية للمقامة كان هذا النوع الادبي من بين اهم الآثار الادبية التي كتبت باللغة العربية ، واعجب به آخرون ايضا من غير العرب ، فألفوا على غراره . وكان للمقامات تأثير واضح في روايات المتشردين الاسبانية Picaresque Novels ، التي بدورها كانت من بين ارهاصات الرواية في اوروبا كما سنرى .

بعد بديع الزمان الهمذاني كتب الطبيب ابن بُطلان «مقامة في تدبير الامراض» . ومن ابرز مقلديه ابن نقيّة الذي وصلتنا تسع مقامات له ، لا يتقيد فيها المؤلف بوحدانية البطل ولا وحدانية الراوي . وفي ما عدا ذلك لا يختلف نهجه عن النموذج الاصلي لمقامات الهمذاني . لكن اهم كاتب بعد بديع الزمان هو الحريري الذي ذاع صيته كثيرا في المشرق والمغرب بما في ذلك الاندلس ، مع انه اولى المحتوى في مقاماته اهمية ثانوية ، وركز على الاسلوب والتلاعب في

اللغة والبحث عن اغرب المفردات ، الى درجة ان عدد الذين تناولوا شرح مقاماته بلغ زهاء عشرين كاتبا .ويقال انه لهذا السبب كان على المتعلمين الصغار استذكار مقامات الحريري بعد القرآن .

وعرفت مقامات الحريري فورا في اسبانيا الاندلسية ، حيث قام الشريشي (ت ٦١٩هـ) بشرحها . وقلدها معاصر للمؤلف في «المقامات السراقسطية» ، وتحتوي ايضا على خمسين مقامة . وفي بداية القرن السادس الهجري الف الوزير ابو عامر بن أرقم مقامة في مدح الامير المرابطي (امير غرناطة) تميم بن يوسف بن تاشفين... وكتبت مقامات اخرى كثيرة ، من بينها كتاب «معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار» ، يقدم فيه المؤلف مسافرا يصف ٣٤ بلدة وقرية في الاندلس ، وطبيبا يتحدث عن ١٦ موقعا في المغرب .

وفي فارس كتب حميد الدين بلخي (ت٥٥٩) اربعة وعشرين مجلسا . وفي افريقيا والاندلس انتشرت مقامات الهمذاني ايضا في القرن نفسه (الذي ألفت فيه) . وكتب الشاعر ابن فتّوح مقامة عن الشعراء في زمانه . كما كتب ابن الشهيد مقامة تحدث فيها عن مجموعة من المسافرين الجوالة تأثر بها كتاب المقامات اليهود في اسبانيا بعد ان تعرفوا على هذا الفن الجديد . ففي النصف الاول من القرن الثاني عشر الميلادي ألف الشاعر اليهودي الاسباني سولومون بن سقبل اول مقامة باللغة العبرية بعنوان «اشر بن يهودا» يروي فيها الراوي اشر بن يهودا مغامراته في سياق البحث عن سيدة جميلة اعلنت له عن حبها في رسالة صغيرة مخبأة في تفاحة . وبعد بحث مضن يعثر على سيدته الجميلة التي تمثل امامه متحجبة ببرقع . وعندما يرفع البرقع عن وجهها يطالعه وجه صديق يبتسم له بمكر ، فيدرك ان القصة بأكملها كانت حيلة مدبرة من هذا الصديق .

والف يوزف بن مئير زابار مقامات اخرى بعنوان «كتاب المسرات» مستفيدا من تجاربه الشخصية واسفاره . وكتبت مقامات يهودية اخرى ، عالج بعضها مواضيع تتعلق بالنساء واهوائهن ، سلبا وايجابا . لكن مع هذا العدد كله

من المقامات التي كتبت باللغة العبرية فأن الجالية اليهودية في اسبانيا لم تكن على قناعة بأن الكتّاب اليهود قدموا عملا يضاهي مقامات الحريري بلغتها المذهلة ، كما يقول م . هيرشل ليفاين . لقد حاول عدد من الكتّاب اليهود تحقيق هذه الرغبة لكن مساعيهم كلها باءت بالفشل . وفي اطار هذا المسعى قام يهودا الحريزي بترجمة مقامات الحريري الى العبرية ، تحت عنوان « مخبيروت اتييل» اي « مقامات اتييل » . وقيل انه وفق تمام التوفيق في نقل روح الكتاب الى العبرية من دون ان يفقده شيئا من ألقه الاصلي ، سوى انه استبدل الآيات القرآنية بمايقابلها تقريبا من عبارات استقاها من التوراة . وفيما بعد ألّف هذا الكاتب مقامات من ابداعه تحت عنوان « سفر تحكيموني » اي « مجلس الحكماء » . ويُذكر ان يهودا الحريزي هنا استهلم مقاماته من ابن الشهيد الذي مر ذكره . والف معاصر للحريزي ، هو يعقوب بن لعازر من طليطلة ، عشر مقامات لراو من دون بطل . وترجم ابراهام بن حسادي كتابا من اصل بوذي ، خضع على يد التراجمة المسيحيين من جهة ، والمسلمين من جهة اخرى ، لعملية تحوير في النص بماينسجم مع التفكير الديني لكل طائفة . ولم تخلُ ترجمة حسداي من مثل هذا التحوير . وفي نص متأخر اطلق على هذا الكتاب عنوان ترجمته العربية « الامير وبنو نصر = حكام غرناطة » ، اتبع فيه اسلوب المقامة . وكتابه هذا مليء بالامثال والحكايات الرمزية والقصص ، مستعارة من مصادر عربية ويهودية . وتُرجم هذا الكتاب الى لغات اوروبية عدة ، وتأثر به كتاب بارزون من امثال بوكاتشيو ، وشكسبير ، ولوب دي ڤيغا .

وباللغة السريانية الف رئيس اساقفة نصيبين ، عبديشو (ت١٣١٨م) ، خمسين مجلسا ، على غرار الحريري ، كتبها باللغة الشعرية الدينية .

مع هذا كله ، يبدو انه لا توجد مقامة مؤلفة او مترجمة الى اللغة اللاتينية او اللغات الرومانسية (الاسبانية ، البرتغالية ، الخ) في القرون الوسطى . لكن مما لا شك فيه ان بطل روايات المتشردين الاسبانية picaro يشبه الى حد كبير وفي نقاط كثيرة صفات ابي الفتح الاسكندري (في مقامات الهمذاني) ، او ابي

زيد السروجي (في مقامات الحريري) . ثم ان انتشار الهمذاني والحريري في اسبانيا يرجح وجود تأثير مباشر او غير مباشر للمقامة .

وروايات المتشردين الاسبانية هي من اقدم النماذج الروائية في اوروبا ، وضرب من الادب الخاص باسبانيا ، وهي كالمقامة فيها راوية يتحدث بصيغة المتكلم عن مغامرات متشرد ، وبالاسبانية picaro ، في تنقلاته من مكان الى اخر ، بحثا عن لقمة العيش . وهو هنا يذكرنا الى حد كبير بالبطل المقامي المتأثر به . وعلى غرار بطل المقامات ايضا ، نرى ان بطل روايات المتشردين يجمع بين الموهبة والفقر . وتعتبر رواية (لازاريللو دي تورميس) اقدم نموذج لهذه الروايات (ظهرت في العام ١٥٥٤ وتنسب عن غير يقين الى دييغو هورتادو دي ميندوزا) . وكانت هذه الرواية من بين اكثر الكتب شيوعا في زمانها . وتكتسب اهميتها في كونها اول نموذج لمثل هذا اللون من الفن الروائي الذي دام في اسبانيا من ١٥٥٠ حتى ١٧٥٠ . ويشير A. Rumeuالى ان الحادثة المركزية لرواية (لازاريللو دي تورميس) ، وهي

La Casa Lobrega y oscura (البيت المعتم الذي يكتنفه الغموض) تشبه الى حد كبير حادثة ذكرت عند الابشيهي (انظر المستطرف) . كما انها وردت في عمل للبيهقي ، الذي ربما استعارها من الجاحظ . وهكذا ، فمن المرجح ان الطريق الطويل الذي قطع من « الفتى » و « المكدي » الى الـ picaro (المشترد) مر بالمقامة .

والفت في اوروبا روايات على غرار المتشردين الاسبانية ، ففي انكلترا دشن هذا الفن الروائي توماس ناش في روايته « مسافر سيء الطالع ، او حياة جاك ولتون » (عام ١٥٩٤) . وكتب دانيال ديفو في ١٧٢٢ رواية عن امرأة متشردة هي « مول فلاندرز » . كما كتب هنري فيلدنغ في ١٧٢٥ « جوناثان وايلد » . ومن اشهر الروايات الفرنسية في هذا الصدد رواية بعنوان « جيل بلاس » تأليف ألن رينيه لوساج ، وتحمل نكهة اسبانية واضحة . ومع ان روايات التشرد الاسبانية لم تقدم الكثير للرواية الاوروبية في اطار التقنية

الفنية ، الا ان اهميتها تتجلى في انها عرّفت الرواية الاوروبية على عالم الواقع ومشاهد الحياة اليومية . ويرجع الفضل في ذلك الى ادب المقامات الذي كان ينهل من معين الحياة اليومية .

ومع ان روايات المتشردين اخذت تنحسر منذ منتصف القرن الثامن عشر ، الا ان هناك عددا غير قليل من هذا اللون الروائي ظل يصدر حتى يومنا هذا . من بين الامثلة على ذلك رواية غوغول «النفوس الميتة» ، ورواية مارك توين "Huckleberry Finn" ، ورواية توماس مان «اعترافات فيلكس كرول» (١٩٥٤) ، ورواية سول بيلو الاميركي «مغامرات اوجي مارتش» (١٩٥٣) . ولاحظ بعض النقاد ان منتصف القرن العشرين شهد ثورة ضد الرواية ذات الابعاد الدرامية وعودة الى البناء المفكك والتجميعي لروايات المتشردين*...

* استقيت مادة هذه الكلمة بصورة اساسية من : الموسوعة الاسلامية ، والموسوعة البريطانية ، ودراسة عن تأثر المقامات العبرية بالمقامات العربية نشرت في مجلة (الشرق والغرب) الامريكية ، فقدتها ، فضاع عليّ تأريخها واسم كاتب الدراسة .

اكلة الموتى
ومدى علاقتهم بابن فضلان

قبل بضع سنوات وقعت تحت متناول يدي ترجمة عربية لقصة عنوانها (اكلة الموتى) للكاتب الاميركيي مايكل كرايتون ، اظنها من اصدارات الهلال المصرية . سحرتني باسلوبها الجذاب ، ووقعائها العجيبة المروية بلغة قصصية مشوقة ، مع انها مبنية بالاساس على حدث جغرافي . واذهلتني ، على وجه الخصوص ، تفاصيل رحلة البطل - ابن فضلان - الى بلاد الفايكنغ بالدانمارك ، والمعاناة والاهوال التي تعرض لها في طريق وصوله الى كهوف الفايكنغ الرهيبة ، الكائنة تحت شاطىءالبحر ، التي لا يمكن الوصول اليها الا بطريقة طرزانية معقدة ، باستعمال الحبال ، والزوارق ، والغوص بالماء ، الخ . وبقدر ما اعجبت بمغامرة ابن فضلان الخارقة هذه - التي اتضح فيما بعد انها من نسج مخيلة الكاتب الاميركي - رحت انحي باللائمة علينا نحن المثقفين العرب الذين نفتقر الى سعة المخيلة التي يتمتع بها الكتاب الغربيون حتى في إعادة كتابة تأريخنا نحن ؛ فقد زعم الكاتب الاميريكي مايكل كرايتون انه استند في كتابة قصته ، بالاساس ، وبالكامل تقريبا ، الى رسالة ابن فضلان ، وعدد من المصادر ، تتعلق بها ، ذكرها بالتفصيل ، ولم يخرج عن الاصل الذي اعتمده الا قليلا .

حاولت في حينها الاطلاع على رسالة ابن فضلان الاصلية لأرى كم تصرف مؤلف قصة (اكلة الموتى) ، فلم اوفق في الحصول على نسخة منها ، لا سيما طبعة دمشق التي قيل انها صدرت بثلاث طبعات ، آخرها في عام ١٩٨٨ . ثم وصلتني رسالة من الصديق نجم عبد الله المقيم في المانيا تطرق فيها الى قصة (اكلة الموتى) والمصادر الحقيقية والمختلقة - المزيفة التي استندت اليها . فاقترحت عليه ان يكتب عن الموضوع ، ما دام هو مجترح الفكرة ، وهو الذي وقف على هوية «الباحث» المزعوم الذي استند اليه مايكل كرايتون في ما يتعلق برحلة البطل الى بلاد الفايكنغ . الا انه اصر على ان يكتفي بتزويدي بالوثائق والمستندات الثبوتية فقط ، مخولاً اياي حق الاستفادة منها في الكتابة عن هذا الموضوع . فرأيت والحالة هذه ان اشير الى دوره ، التزاما بالامانة العلمية ، رغم انه احب ان يبقى في الظل!

لكن هذا كله لا يكاد يعني شيئا عندي قبل الاطلاع على رسالة ابن فضلان الاصلية . فكتبت للصديق نجم عبد الله بذلك . واذا به يوافيني بنسخة من كتاب بعنوان (مجموع في الجغرافيا مما ألفه ابن الفقيه وابن فضلان وابو دلف الخزرجي) طبع بالتصوير عن مخطوطة المكتبة الرضوية في مشهد (خراسان) ، استعارها - اي النسخة - من مكتبةالجامعة في فرانكفورت... عند ذاك رأيت ان عدتي توفرت للكتابة عن هذا الموضع ، في الحد الادنى الاساسي على الاقل ، بعد أن عززت معلوماتي عن ابن فضلان من الموسوعة الاسلامية المتيسرة ، هنا ، في مكتبة الاكاديمية في بودابست .

الاسم الكامل لابن فضلان هو : احمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد . مولى محمد بن سلمان رسول الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) (٩٠٨ - ٩٣٢م) الى ملك الصقالبة الروس على نهر الفولغا . لم تكن حياته معروفة سوى من خلال مؤلفه الذي صنفه ياقوت الحموي - خطأً - تحت اسم رسالة ، بينما هو في واقع الحال كتاب . الا ان تسمية ياقوت شاعت ودرجت ، وسمي الكتاب رسالة ابن فضلان .

السفارة التي كان ابن فضلان احد اعضائها كانت تحت رئاسة سوسن الرسي مولى نذير الحرمي . وقد انتدب ابن فضلان لقراءة الرسالة المرسلة من الخليفة المقتدر الى ملك البلغار . وتقديم الهدايا له ولحاشيته ، والاشراف على الفقهاء والمعلمين الذين سبق ان ارسلهم الخليفة استجابة لطلب الملك البلغاري ليبشروا قومه بتعاليم الدين الاسلامي الحنيف .

تحركت السفارة من بغداد يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة ٣٠٩ هـ . (الموافق في ٢١ حزيران ٩٢١م) . وفي بخارى استقبلها نصر بن احمد الساساني . ثم رحل الركب من بخارى الى خوارزم ، التي كان صيارفتها يبيعون الكعاب الى جانب الدراهم ، واهلها يتكلمون بلغة اشبه بصياح الزرازير ، وعلى مسيرة يوم منها توجد قرية تدعى اروكوا ، واهلها يقال لهم الكردلية ، كلامهم اشبه شيء بنقيق الضفادع ، على حد قوله... ثم طال مقامهم في الجرجانية اكثر من ثلاثة اشهر ، ليصّرموا ايام الشتاء فيها . «وكان طول مقامنا من جهة البرد وشدته» ، فقد كان نهر جيجون متجمدا من اوله الى آخره . «وكان سُمك الجمد سبعة عشر شبرا . وكانت الخيل والبغال والحمير والعجلة تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق ، وهو ثابت لا يتخلخل (...) ورأينا بلدا ما ظننا إلاّ أن بابا من الزمهرير قد فتح علينا منه... الا ان الله قد لطف بهم في الحطب وارخصه عليهم» . وكان ابن فضلان حين يخرج من الحمام عائدا الى البيت ، فاذا لحيته قطعة واحدة من الثلج . «ولقد رأيت الارض تنشق فيها اودية عظام لشدة البرد ، وان الشجرة العظيمة العادية لتنفلق بنصفين لذلك»!

في الرابع من آذار ٩٢٢م غادروا الجرجانية . وهنا بدأ ركبهم يسير في ارض غريبة . ورغم انهم تركوا ايام الشتاء وراءهم الا انهم لقوا من الضر والجهد والبرد الشديد وتواصل الثلوج ما جعلهم يترحمون على برد خوارزم الذي كان بالقياس له مثل ايام الصيف... واجتازوا بلاد الترك الاوغز Oghuz الذين لا يعرفون الله . بل « يسمون كبارهم اربابا » ، ولا تستتر نساؤهم ، ولا يستحيين من اظهار مواضع عفتهن امام الغرباء . . ثم صاروا بعد ذلك الى

البجناك ، واذا هم شديدو السمرة ، حليقو اللحى ، فقراء ، خلاف اتراك الاوغز الذين كان بعضهم يملك عشرة آلاف دابة ومئة الف رأس من الغنم ، على حد قول ابن فضلان .

واني لأتساءل ان كان هؤلاء السمر الشديدو السمرة هم من بقايا الافارقة الذين غزا بهم الفرعون المصري سيسوستريس (في القرن العشرين ق .م .) بلدة كولخس (في جورجيا السوفيتييةسابقا) ، كما جاء في بعض الاخبار والروايات التاريخية القديمة . فابن فضلان يصفهم بانهم «على ماء شبيه بالبحر غير جار» .

بعد ان ارتحلوا من ارض البجناك ، صادفوا بلدانا اخرى وانهارا كثيرة . بعضهاعظيم ، ثم وقفوا في بلد قوم من الاتراك يقال لهم الباشغرد (البشكير) ، وهم قذرون واشد الناس فتكا واقداما على القتل ، ويحلقون لحاهم ويأكلون القمل ؛ وعبادتهم وثنية ، بينهم طائفة تعبد الحيّات ، واخرى تعبد السمك ، وطائفة تعبد الكراكي ، وغير ذلك . وبعد ان اجتازوا اراضي وانهارا كثيرة اخرى ، يعددها باسمائها ، وصلوا بلد الصقالبة ، وهو مقصدهم ، في يوم الاحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ٣١٠هـ ، الموافق في ١٢ ايار ٩٢٢م .

وهنا يروي ابن فضلان تفاصيل استقبال ملك البلغار لسفارتهم ، ويسجل انطباعاته عن حياتهم التي حرص ابن فضلان ان يكون فيها امينا ودقيق الملاحظة ، باستثناء بعض الانطباعات شبه الفانتازية القليلة التي لعلها كانت مما يستثير اهتمام ومخيلة القراء في زمانه ، كحديثه عن المعارك بين غيلان الضباب ، وجوج وماجوج . وبعد ان انجزت السفارة مهمتها عادت الى بغداد ، وبذلك تكون رحلة الذهاب استغرقت احد عشر شهرا .

لكن الرسالة لا تتحدث لا عن يوم الوصول ولا عن طريق العودة . كما لم يرد ذكر هذه السفارة عند المسعودي او اي كاتب من كتاب تلك الحقبة ، ولم يُشَر الى ابن فضلان ايضا في هذه المظان . والمعلومات الوحيدة عن سفارته هي التي وردت في رسالته هو . وهي بلا شك موثّقة .

من اسف ان نسخة اصيلة لهذه الرسالة لم يتم العثور عليها حتى الان .
وكان ياقوت الحموي اول من اشار الى هذه الرحلة ، ونقل عنها في كتابه معجم البلدان . ونُقُوله هذه هي التي استرعت اهتمام المستشرقين اليها فيما بعد . ثم عثر في (مشهد) بايران على نسخة غير اصلية من هذه الرسالة . ومع ان هذا النص غير كامل ، ولعله لا يتطابق تماما مع النص الاصلي ، الا انه ينطوي على اهمية تأريخية وجغرافية واثنوغرافية كبيرة تؤكد على ان ابن فضلان كان يمتلك مقدرة فائقة في دقة الملاحظة ، وذهنا ثاقبا مكّنه من العودة بمعلومات على جانب كبير من الاهمية عن اقوام ، كالروس ، وطوائف من الاتراك ، والخزر ، لم تتوفر عنهم معلومات في القرن العاشر الميلادي الا عن طريقه هو وحده تقريبا .

على انه يفهم من رسالته ان سفارته لم تتجاوز روسيا ، وهو ما كان مرسوما لها . فكيف امتدت رحلته الى بلاد الڤايكنغ في الدانمارك ، كما جاء في قصته (اكلة الموتى) التي يزعم مؤلفها انه اعتمد مصادر موثوقة في كتابتها ؟

ها هو يحدثنا في مقدمة كتابه عن كيفية حصوله على مصادر الرواية (ونحن هنا نعتمد النسخة الانكليزية الاصلية) . جاء في المقدمة : «لقد اختفت المخطوطة الاصلية من يومها ، ولاعادة ترميمها يتعين علينا الاعتماد على مقاطع جزئية تم الحفاظ عليها في مصادر متأخرة . من بين اهم هذه المصادر معجم جغرافي عربي لياقوت بن عبد الله (الحموي) كتب في القرن الثالث عشر (الميلادي) . نقل ياقوت اثنتي عشرة فقرة من رسالة ابن فضلان نقلا حرفيا (...) ولعله نقلها من نسخة عن المخطوطة الاصلية . ومع هذا فان هذه المقاطع المحدودة ترجمت واعيدت ترجمتها من قبل الكتاب المتأخرين .

«ثم تم العثور على جزء آخر في روسيا في ١٨١٧ وقامت بنشره اكاديمة بطرسبورغ في ١٨٢٧ باللغة الالمانية . وهذه المادة تشتمل على مقاطع معينة سبق نشرها على يد راسموس في ١٨١٤ . استند راسموس على مخطوطة عثر عليها في كوبنهاكن ، فقدت بعد ذلك ، وهي مشكوك في امرها . وظهرت في

هذه الفترة تراجم سويدية ، وفرنسية ، وانكليزية ، لكنها كلها تفتقر الى الدقة الى حد كبير ويبدو انها لا تحتوي على مادة جديدة .

«في عام ١٨٧٨ عثر على مخطوطتين جديدتين بين مجموعة المخطوطات القديمة العائدة للسير جون ايرسن ، السفير البريطاني في القسطنطينية (...) لقد عثر على هاتين المخطوطتين بعد وفاته ؛ ولا يعرف كيف وصلت اليه ومتى .

«احداهما مخطوطة في الجغرافيا باللغة العربية لاحمد الطوسي ، يرجع تاريخها الى عام ١٠٤٧م . وهذا انما يشير الى ان مخطوطة الطوسي اقرب في تأريخها من ايةمخطوطة اخرى الى النسخة الاصلية لابن فضلان التي يفترض انه كتبها في حدود ٩٢٤ ـ ٩٢٦م . مع هذا فان الباحثين يرون ان مخطوطة الطوسي اقل المصادر الاخرى اهلا للثقة ؛ لان النص يضج بالاغلاط والتناقضات ، ومع انها تقتبس مقاطع مطولة من مخطوطة اخرى لابن الفقيه الذي زار بلاد الشمال ، فان العديد من المعنيين يترددون في اعتماد هذه المادة .

«اما المخطوطة الثانية فهي لامين الرازي ، ويرجع تأريخها الى حوالي ١٥٨٥ ـ ١٥٩٥م . وهي مكتوبة باللاتينية ، لكنها استنادا الى كاتبها ، مترجمة بصورة مباشرة من النص العربي لابن فضلان . ان مخطوطة الرازي تشتمل على بعض المعلومات حول الترك الاوغز ، وعدد من المقاطع حول المعارك بين غيلان الضباب ، لا وجود لها في مصادر اخرى .

« وفي عام ١٩٣٤ ، عثر على نص اخير مكتوب بلاتينية القرون الوسطى ، في احد اديرة كسيموس ، قرب ثيسالونيكا في شمال اليونان ، ان مخطوطة كسيموس تحتوي على مزيد من المعلومات عن علاقات ابن فضلان بالخليفة ، ومعاناته مع مخلوقات بلاد الشمال . لكن مؤلف وتأريخ مخطوطة كسيموس مشكوك بامرها » .

بعد هذا العرض التفصيلي لمصادر المخطوطة ـ وسيتضح انه مختلق في معظمه ـ يخلص السيد مايكل كرايتون ، مؤلف قصة (اكلة الموتى) الى التالي ، مستخفا بالامانة الموضوعية : «ان مهمة فحص هذه النسخ والتراجم ، المصنفة

على مدى اكثر من الف عام ، والموزعة بين اللغات العربية ، واللاتينية ، والالمانية ، والفرنسية ، والدانماركية ، والسويدية ، والانكليزية ، لامرُ يتطلب جهدا كبيرا . ولعل شخصا ذا معرفة وطاقة هائلتين فقط بوسعه ان ينهض بها ، وفي عام ١٩٥١ قام مثل هذا الشخص بهذه المهمة . لقد جمع پير فراوس - دولوس Per Fraus - Doulus ، البروفسور المتقاعد في الاداب المقارنة في جامعة اوسلو ، بالنرويج ، كل المصادر المعروفة وشرع بعمله الهائل الذي استأثر بوقته حتى وفاته عام ١٩٥٧ . ثم نشر جزء من ترجمته الجديدة في محاضر في المتحف الوطني في اوسلو : ١٩٥٩ - ١٩٦٠ ، لكنه لم يثر الكثير من الاهتمام في الاوساط العلمية ، ربما لان النشرة محدودة التوزيع .

« كانت ترجمة فراوس - دولوس حرفية مئة بالمئة ، وقد علق فراوس - دولوس في مقدمته لهذه الترجمة بقوله : من طبيعة اللغات ان الترجمة الجميلة لا تكون دقيقة ، لكن الترجمة الامينة تنطق بجمالها الخاص دون مساعدة » .

ويشير السيد مايكل كرايتون الى انه بالاعتماد على هذه النسخة التامة والمعززة بالحواشي من ترجمة فراوس - دولوس ، عمد الى اجراء بعض التغييرات في قصته (اكلة الموتى) : حذف بعض المقاطع المتكررة ؛ وغير بناء الفقرات ، مبتدئا بحديث المتكلم بفقرة جديدة ، تمشيا مع مقتضيات الطريقة الحديثة . ويؤكد ان صورة ابن فضلان عن الفايكنغ تختلف إلى حد كبير عن النظرة الاوروبية لهؤلاء الاقوام ، بمعنى ان صورة ابن فضلان ملطفة اكثر من نظرة الاوروبيين لهم .

والان ، من هو هذا الشخص الفذ في معرفته وطاقته ، المدعو پير فراوس - دولوس ؟

هنا بدأت عملية البحث والتقصي عن هوية هذا الرجل . لم اكن انا من قام بهذه العملية ، بل الصديق نجم عبد الله ، في سياق دراساته واهتماماته التراثية . فقط لاحظ ان مادة رسالة او كتاب ابن فضلان عن رحلته الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة والباشغرد (البشكير) وغيرهم ، المستقاة من مخطوطة

(مشهد) الايرانية ، وحتى المقاطع والشذرات المنقولة من نسخته الاصلية الى معجم البلدان وغيره ، لا تشير الى انه وصل الى بلاد الفايكنغ في الدانمارك . في حين جاء في رواية مايكل كرايتون ، ما يؤكد ذلك ، وان مصدر هذه الاضافة هو المزعوم پير فراوس-دولوس . ولدى الاتصال بالجهات الثقافية النرويجية ذات العلاقة اتضحت الحقيقة : ان السيد پير فراوس-دولوس اسم مختلق ، ومركب من كلمات لاتينية تعني الغش ، والخديعة ، كما جاء في رد مكتبة جامعة اوسلو المرسل بتأريخ ٢٨/ ١٠/ ١٩٩١ . وفي ما يلي ترجمة رسالة المكتبة :

الموضوع : البحث حول شخصية البروفسور پير فراوس-دولوس كما اشير اليه في كتاب «آكلي الموتى» :

«ان كتاب آكلي الموتى عبارة عن محاكاة ساخرة Parody حول قصة تأريخية كتبها الكاتب مايكل كرايتون المسلي ، اما البروفسور النرويجي المذكور فراوس-دولوس فما هو الا شخصية مفتعلة وان جميع ما ذُكر عن اعماله هو ضرب من الخيال . ان المعنى الحقيقي لاسم Fraus هو الاحتيال والغش ، و Dolus هو الخداع في اللاتينية ، وان ثبت المراجع المذكور في كتاب آكلي الموتى هو افتعال من بدايته الى نهايته عدا بعض المراجع في المقطع الاخير (الموضوع تحته خط في جواب المكتبة) . ان الرحالة ابن فضلان حقيقة اكيدة والمؤلف كرايتون استغل قصة سفرته الى روسيا .

هناك مسلسل لثبت المراجع كدليل وصفي حقيقي موجود في المقطع الثاني : الفايكنغ (Vikingarma) لمؤلفه جوهانس برنستدز Johannes Brnsteds ١٩٧٦ ويمكنكم الاتصال بمكتبات السويد اذا اردتم الحصول على مؤلفات تبحث حول ابن فضلان» .

الظاهر ان مؤلف رواية (اكلة الموتى) اراد ان يتكىء على احمد بن فضلان ، فادعى ان جميع حوادث قصته-تقريبا-موثقة ، ليضفي على كتابه مسحة من المصداقية ، لكنه ضحك على ذقون القراء ، باختلاق باحث مترجم نسب اليه مصدر معلوماته ، وخلع عليه اسما لاتينيا مزيفا يؤكد معناه على

سبق اصرار باللجوء الى هذه اللعبة ، اعتقاداً منه بان اختلاقاته ليست بلا اساس ، لان ابن فضلان التقى بالفايكنغ بالفعل ، وتحدث عنهم ، لكن في روسيا وليس في اسكنديـنافيا . وفي الواقع ان ابن فضلان وسائر المؤرخين والكتاب العرب كانوا يسمون الفايكنغ : برنجار ، وهذه تقابل كلمة Varangian s . جاء في كتاب آرثر كوستلر (القبيلة الثالثة عشرة) : « أما كلمة Varangian فكانت مستعملة لدى العرب وكذلك في التاريخ الروسي القديم ويقصدون بها النورديين او الاسكندنافيين ؛ وكانوا يطلقون على البلطيق اسم « بحر البرنجيين » ، وهذا الفرع من الفايكنغ تحدر من السويد الشرقية ، وهم يختلفون عن النرويجيين والداغاركيين الذين غزوا اوروبا الغربية . وكان البيزنطيون يطلقون على فرع الفايكنغ الذي اقام في روسيا اسم Rhos ، وهي مشتقة من الكلمة السويدية rodher بمعنى « المجذفين » كما يقول توينبي » . ومن هذه الكلمة جاءت لفظة « الروس » .

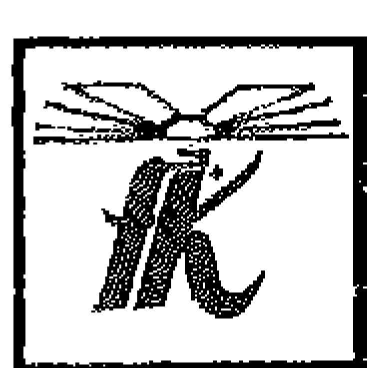
وقد وقفت عن طريق مجلة العربي الكويتية (العدد ٣٧٩ - يونيو ١٩٩٠) على خبر الترجمة العربية - الاخرى على ما يبدو - لقصة اكلة الموتى ، للاستاذ احمد عبد السلام البقالي ، الصادرة سنة ١٩٨٨ عن دار تهامة في جدة - السعودية . في هذا العدد من مجلة العربي استعرض الدكتور شاكر الفحام الترجمة ، واعرب عن امله في ان «تثير هذه القصة الرغبة في ترجمة النص الاساسي الذي هيأه دولوس الى اللغة العربية ترجمة امينة ، فقد يكون ذلك وسيلتنا الصحيحة لنتبين ما يقال فيه ، وما اثير حوله من شكوك » .

والان ، وقد تبينت لنا هوية فراوس - دولوس (=الغش والخديعة) فلا نملك سوى ان نقول اننا كنا نتمنى لو ان مؤلف القصة السيد مايكل كرايتون كان اكثر نزاهة في تعامله مع المصادر التي استند اليها في كتابتها ، وان كان مثل هذا الالتزام سيجعل مصداقية الحوادث المتعلقة برحلة البطل الى بلاد الفايكنغ عرضة للطعن ، في الوقت الذي كان للاتكاء على اسم مفتعل كمصدر لمعلومات عجيبة ، هالة روائية تنطوي على الكثير من عناصر الاثارة .

المحتويات



هذا الكتاب يلقي الضوء على التفاعل والتلاقح الحضاريين بين الشعوب الشرقية والغربية في عصور الحضارات القديمة . واذا كان علم الآثار يضطلع بالدور الرئيسي في الكشف عن هذه العملية ، فان للغة ايضا دورا لا يقل اهمية عنه في هذا الاطار . وسينعكس هذا في العديد من الامثلة في كتابنا . لسوف نرى ان الغرب ـ من خلال اليونان ـ استعار الكلمة التي تدل على (الكتاب) من الشرق ، وبالذات من الفينيقيين . كما سنرى ان الكلمة الاوروبية التي تطلق على المدرسة ، ونعني بها لفظة School ترجع الى جدور ساميّة . وحتى كلمة Philosophy اليونانية تمتّ الى جذور بابلية او مصرية . وان قراءة في قاموس اللغة اليونانية تؤكد لنا ان هذه اللغة ـ الهندية الاوروبية ـ تحتوى على نسبة كبيرة من المفردات الغريبة ، لاسيما السامية ـ الحامية ، بما يزيد على ربع مفرداتها ، بما في ذلك الفاظ تحمل هوية يونانية ، مثل « اثينا » ، و « طروادة » ، و« كريت» ، الخ .



دار المدى للثقافة والنشر